دكتور محمد سكران

الثقافة العربية

التحديات وآليات المواجهة




مكتبة الأنجلو المصرية

الثقافة العربية
التحديات وآليات المواجهة

تأليف

أستاذ دكتور / محمد محمد سكـــران



بسم اللـه الرحمن الرحيم

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ............) (*)

صدق اللـه العظيم

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية ، إدارة الشئون الفنية .

سكران ، محمد .

الثقافة العربية التحديات وآليات المواجهة / محمد سكران .

ـ ط١ . ـ

القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ٢٠٠٧ .

١٨٢ ص ، ١٧× ٢٤ سم

١ـ الثقافة العربية

أ- العنوان

رقم الإيداع : ٢٤٣٦٧

ردمك : ٦ـ ٢٢٨٥ ـ ٠٥ ـ ٩٧٧ تصنيف ديوى : ٣٠١,٢٠٩٥٣

المطبعة : محمد عبد الكريم حسان

النـاشـر : مكتبـة الانجلو المصريـة

١٦٥ شارع محمد فريد

القـاهرة ـ جمهوريـة مصـر العربيـة

ت : ٣٩١٤٣٣٧ (٢٠٢) ؛ ف : ٣٩٥٧٦٤٣ (٢٠٢)

E-mail : angloebs@anglo-egyptian.com

Website : www.anglo-egyptian.com

(*) [سورة: آل عمران - الأية: 110]

مدخـــل:

يقـول التـاريخ، وتقـول الجغرافيـا واللغـة والعقيـدة والمصـير الواحـد، والمشـاعر المشتركة: إننا أمة عربية واحدة ذات رسالة حضارية إنسانية، وأن لهذه الأمـة ثقافـة عربيـة قومية واحدة، وبها يتميز وطننا العربي الكبير على امتداده الجغرافي والحضاري مـن المحـيط إلي الخليج.

وهذه الثقافة حصيلة تـاريخ ونضـال مشـترك، وثمـرة عوامـل ومـؤثرات حضـارية مشتركة، كانت وستبقي دوما منـاط الشخصية العربيـة، ومسـتودع قيمهـا الأصيلة ووعـاء حكمتها، وحقيقة هويتها الحضارية.

لقد عاشت هذه الثقافة واستمرت مع وجود التنوع الثقافي داخل البلدان العربية، بل أن هذا التنوع شـكل ويشـكل عامـل اثـراء وقـوة لهـا ، بفضـل القواسـم المشـتركة التـي استطاعت أن تصهر هذا التنوع في بوثقة واحدة، هي بوثقة الثقافة العربية القومية.

وهنا نقول: إن هذه الثقافة كما تؤكد عشرات التحليلات والدراسـات- تواجـه الآن تحديات غير مسبوقة طوال تاريخها الطويل، تحديات وافدة من الخارج، وأخرى نابعـة مـن الداخل، وكلها تشكل عوامل تهدف لهذه الثقافة، مما يفرض على الأمة العربية البحـث عـن آليات قادرة عـلى مواجهـة هـذه التحـديات للحفـاظ عـلى ثقافتنـا العربيـة، والعمـل عـلى تزويدها بعناصر القوة والمتعة الداخلية، والقدرة على التفاعل والتعامل مع معطيات العصر ومستجداته.

من هذا المنطلق يأتي هذا الكتاب الذي نتنـاول فيـه الثقافـة العربيـة والتحـديات التي تواجهها، والآليات القادرة على التعامل معها.

ويغطي الكتاب بابان:-

- <u>في الباب الأول</u>:- نطرح فيه بعضا من قضايا الثقافة العربية، ويتكـون هـذا البـاب مـن أربعة فصول، أزمة اللغة العربية، وفي الثالـث نطـرح إشـكالية الخطـاب الـديني في الثقافـة العربية، وفي الأخير نطرح قضية الثقافة العربية في عصر العلم .
- <u>أما الباب الثاني</u>: فتغطيه دراسة علمية قمنا بها تحت عنوان **التربيـة والتحـديات التـي تواجه الثقافة العربية.**

ولقد تم طرحها من خلال فصلين: **الأول** منهما يتكفل ببيان التحديات التي تواجه الثقافة العربية، **وفي الآخر** طرحنا الدور الذي يمكن أن تقوم به التربية في مواجهة هذه التحديات.

ونأمل أن يفى الكتاب بالغرض منه .

والله من وراء القصد معين.

محمد سكران

محتوى الكتاب

الباب الأول

من قضايا الثقافة العربية

- **الفصل الأول:**

أهمية الثقافة العربية في الوحدة وإحداث التطوير.

- **الفصل الثاني:**

أزمـــة اللغـــة العربيـــة.

- **الفصل الثالث:**

إشكالية الخطاب الديني في الثقافة العربية

- **الفصل الرابع:**

الثقافـة العربيـة في عصـر العلـم.

مدخل

في هذا الباب نتناول بعض قضـايا الثقافـة العربيـة ونسـتهله بالفصـل الأول الـذي نطرح فيه أهمية الثقافة العربيـة في الوحـدة بـين أبنـاء الأمـة العربيـة ودورهـا في إحـداث التطوير والتغيير المنشود، وفي الفصل الثاني نتناول قضـية تحتـل موقـع الصـدارة في الثقافـة العربية، ونعني بها قضية اللغة العربية والأزمة التي تعاني منها، أما الفصـل الثالـث فنطـرح فيه إشكالية من إشكاليات الثقافة العربية في الوقت الحاضر، ونعني بـه الخطـاب الـديني- ونختم الباب بالفصل الرابع الذي نتناول فيه وضعية الثقافة العربية في عصر العلم وثقافته.

وفيما يلي فصـــول هذا الباب:-

الفصـــل الأول

أهمية الثقافة العربية في الوحدة والنهضة

من المعروف أن للثقافات القومية أهميتها في حياة الشعوب، والثقافة العربية تشاركها هذه الأهمية، لكن يضاف إلي هذا الأهمية التي تختص بها ثقافتنا العربية وهي أنها ذات وظيفة توحيدية، بين أبناء الأمة العربية وأنها ذات رسالة إنسانية حئضارية، وبها من المكونات والعناصر، القيم والأخلاقيات، الثراء والغنى ما يجعل منها ثقافة حية متطورة قادرة على إحداث التغيير والتطوير المنشود لمواكبة حضارة العصر ومعطياته. وفي هذا الفصل نطرح ما قد يوضح هذه الأهمية، وذلك على الوجه التالي:-

أولا: الوظيفة التوحيدية للثقافة العربية(*)

يأتي هذا المقال في إطار ما تستهدفه المناقشات والحوارات الدائرة الآن، من البحث عن الآليات والإجراءات الفعالة لإعادة ترتيب البيت العربي من الداخل، سعيا نحو التعاون والتضامن العربي في كل الميادين والمجالات، باعتباره القادر وحده- وليس غيره- على مواجهة ما يحيط بنا من أخطار التحديات، باتت تهدد وجودنا العربي، وتفقد هذه المنطقة صفة العروبة.

وننطلق- في هذا المقال- من بعض الثوابت التي تؤكدها حقائق التاريخ، ومعطيات الواقع، وتوقعات المستقبل، وتتلخص في الآتي:

1- إن الأمة العربية- برغم دعاة الإقليمية والانهزامية- وحدة من وحدات ذات رسالة حضارية، قوامها: وحدة الجغرافيا والتاريخ واللغة، والعقيدة والمصير الواحد، والمشاعر المشتركة. وبوحدة الغرب سادوا العالم، وارتفع شأنهم، وامتد نفوذهم في أرجاء المغمورة، وانتصروا في كل المعارك التاريخية التي كانت تهدد وجودهم وعقيدتهم وفي العصر الحديث- وفي فترة المد القومي- استطاعت الأمة العربية القضاء على الاستعمار، وزوال الاحتلال، وكانت لها كلمتها المسموعة؛ فلم يكن الغرب- كما يقول الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين- يجرؤ على اتخاذ قرار يخص المنطقة العربية دون معرفة رد فعلهم عليه.

(*) مقال منشور بجريدة الأهرام 2003/9/19

2- أنه لا وجود لهذه الأزمة- في هذه الظروف الفارقة الحاسمة من تاريخها- دون وحدة عربية تبعث فيها الحياة، وتعيدها إلي سابق مجدها وعزها، فهي الصيغة الوحيدة أو الدعامة الممكنة لتجميع طاقاتها العربية المختلفة، لتحتل مكانتها اللائقة بين موازين الدعامة الممكنة لتجميع طاقاتها العربية المختلفة، لتحتل مكانتها اللائقة بين موازيين القوى العالمية، إن هذه الوحدة- كما يقول الجابري- هي بالفعل الديل الصحيح والوحيد لحالة التجزئة والتخلف التي نعيشها. وهي بالفعل البديل الصحيح والوحيد لحالة التجزئة والتخلف التي نعيشها. وهي بهذا الوضع وحدة إجرائية وظيفية، يمكن تحقيقها من خلال مراحل معينة، في إطار إستراتيجية عامة، طويلة المدى.

ومن ثم فإنه ينبغي علينا النظر إليها، والتعامل معها على أنها تشكل المشروع القومي الوحدي للنهضة العربية القادر على امتلاك كل مظاهر الفعل والتأثير في المحيط العربي، وليست مجرد فعل سياسي توحيدي فوق كيانات منفصلة في حدود سياسية معينة، عملية توحيدية، واندماج داخلي، ومعركة شاملة للتحديث في السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة، دون تجاهل لخصوصيات كل قطر عربي على حدة.

3- إنه بالرغم من التنوع الثقافي داخل البلدان العربية، إلا أن هناك ثقافة عربية قومية واحدة، بها يتميز وطننا العربي الكبير على امتداده الجغرافي والحضاري من المحيط إلي الخليج، هي حصيلة تاريخ ونضال مشترك، وثمرة عوامل ومؤثرات حضارية مشتركة، دوافع وآمال مشتركة. كانت وستبقى دائما- كما يقول عبد السلام المسدي- مناط الشخصية العربية، ومستودع قيمتها الأصيلة، ووعاء حمتها، وحقيقة هويتها الحضارية. ثقافة إنسانية أصيلة شاملة لكل المظاهر المادية الروحية، وتتميز بقيم عليا قوامها: الحق والعدل والمساواة، وهي قادرة على تمثل الثقافات الأخرى، دون تصادم ودون إذابة أو ذوبان، إنها- كما يقول حامد عمار- عالمية التوجه، فلا تمايز فيها بين البشر، قوامها العلاقات الطيبة بين الدول، وإشاعة المحبة بين الناس، وإرساء قاعدة الحوار، وإقرار مبدأ الشورى، وغيرها من القيم التي تزخر بها ثقافتها المستمرة من موروثاتنا وحضارتنا العربية الإسلامية.

4- إن لهذه الثقافة بهذه الخصوصيات والميزات أهميتها القصوى بالنسبة لوحدتنا وتماسكها العربي، فهي ذات وظيفة توحيدية، متجاوزة في ذلك الاختلافات السياسية والإقليمية، ومن ثم لا وحدة الآن أو في المستقبل إلا بالثقافة، بل لا وجود لها إلا ها.

5- إن هذه الثقافة عاشت واستمرت مع وجود التنوع الثقافي داخل البلدان العربية، بل هذا التنوع قد تشكل- ويشكل- عنصر قوة وإثراء بها، وقدرة على استيعابه واحتوائه، وتوظيفه في إخصاب هذه الثقافة. فما أكثر القواسم المشتركة التي بقدرتها استطاعت أن تصهر هذا التنوع في بوتقه واحدة، هي بوتقة الثقافة العربية القومية. ويبقى أن نستمر على النهج نفسه، فتعمل على توسيع دائرتها كي تضم الثقافات الأقوامية على حد تعبير الجابرتي، وذلك من خلال التواصل، والمثاقفة قي جو من الحرية والديمقراطية، مما يفسح المجال للاحتفاظ بالعناصر الحية في التنوع والتعددية، وتجاوزها في الوقت نفسه لصالح الثقافة العربية القومية.

6- إنه بالرغم من وجود عشرات العناصر والمكونات، ومن تعدد الهيئات والمؤسسات الثقافية التي بإمكانها الحفاظ على الثقافة العربية القومية، ومساعدتها على القيام بوظائفها التوحيدية- فإن التربية تحتل بينها جميعا قلب الصدارة، فهي وإن كانت بالنسبة للثقافة إحدى عناصرها ومكوناتها، مقوماتها إلا أنها تعد الشرط الضروري لحفظها واستمراريتها، ونقلها للأجيال، والعامل الفاعل في تطويرها وتجديدها. وانتقاء عناصرها ذات الأهمية في البناء والنهوض والتقدم، فالعلاقة بينهما علاقة تفاعل وتأثير متبادل وهي من الترابط والتلاحم بما لا يمكن تصور وجود ،حداهما دون الأخرى.

وتجدر الإشارة إلي أن التربية التي نقصدها هنا التربية بمفهومها الواسع الشامل لكل أنواعها، وكافة مؤسساتها، إنها التربية المبثوثة في كل شرايين المجتمع، ويشكل المجتمع لحميتها وسداها.

من هنا تأتي أهمية التربية العربية بهذا المفهوم في الحفاظ على الثقافة العربية وتطويرها وتجديدها، لكن وفي الوقت نفسه تأتي أهمية النظر إلي التربية نظرة عربية قومية في أهدافها وغاياتها العليا، من أجل

تحقيق الأهداف القومية المشتركة، ومساعدة الثقافة القومية على القيام بدورها التوحيدي للأمة العربية.

ثانيا: رغم آنف التآمر: العروبة هي الثقافة والكيان(*)

تتعرض الأمة العربية في المرحلة الأخيرة لهجمة استعمارية غير مسبوقة، بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، ويعمل تحت لوائها من يسيرون في فلكها ويخشى بأسها، إلي جانب عملاء الداخل من المتأمريكين الجدد وأصحاب النزعة الإقليمية البغيضة. ولا تقف الهجمة عن حد استخدام القوة العسكرية، واحتلال الأرض والوقوف إلي جانب الكيان الصهيوني لتنفيذ مخططاته، وإنما تمتد الهجمة إلي الثقافة والاجتماع، السياسة والاقتصاد، حتى التاريخ والجغرافيا بات مستهدفا من قبل الأمريكان والصهاينة. إنها- وباختصار- هجمة تسعى إلي تمزيق الأمة العربية وشرذمتها، ومحو صفة العروبة عن هذه المنطقة من العالم وهذا هو التحدي الحقيقي الذي يواجه أمتنا، لأن زوال هذه الصفة يعني الانهيار والفناء وليس غيره فالعروبة لا تعني مجرد التجاور والتقارب بين الحدود، وإنما هي – وبالنسبة لأي عربي- هي الذات والوجود، الثقافة والكيان، ووجودها ليس ثوبا يمكن أن نردتيه أو نخلعه حسميا تقرر السياسة، ولا ننتظر الدساتي والقوانين والاعتراف بها، ، أو المؤتمرات لإقرارها، وإنما هي مركب ثقافي عضوي يعيشنا ونعيشه في كل لحظة، وخصائصه تلتصق بنا التصاق الجلد بالجسد، ويسري بداخلنا سريان الدم في العروق، وقيم وعادات وأخلاق تبلغ منا مبلغ الخيوط في النسيج. ومن ثم لا تناقض بين العروبة وهوية العربي في بلده، لأنه في النهاية- ومهما كان الاعتزاز والتمسك بهذه الهوية- إنما يرتد إلي نسيج ثقافي واحد، هي الثقافة العربية، فالمصري ينتمي: لمصر بمميزاته الداخلية والإقليمية، وينتمي لعروبته بخصائصه الخارجية العربية، التي يشترك فيها مع كل العرب، وهكذا كل مواطن عربي في بلده.

ويأتي في مقدمة هذه الخصائص اللغة العربية التي تعد من أهم العوامل الجامعة في انتماء أي بلد عربي لعروبته، فهي المعبرة عن ثقافة القومية، وبها وبالثقافة تتكون وتتشكل هوية هذا البلد العربي أو ذاك، بل يمكن القول: أن اللغة في تشكيل الهوية أقوي من العامل الديني ففي الكثير

(*) مقال منشور بجريدة الجمهورية من 2005/11/21

من الدول العربية توجد أقليات دينية إلي جانب الأغلبية المسلمة ولكن الكل ينتمي، إلي هوية وثقافة البلد التي يعيش فيها بصرف النظر عن الدين الذي يعتنقه، والسبب في هذا التوحد والانتماء هي اللغة كل أبعادها ومكوناتها الثقافية، وما تكسبه للأفراد من سلوكيات وطريقة تفكير وعواطف ووجدانات.

وهذه أهمية اللغة العربية في تشكيل الهوية العربية يدركها جيدا المتآمرون على هذه الهوية، وعلى عروبتها، ومن ثم يعملون ليل نهار وبمختلف الوسائل والآليات على النيل من هذه اللغة ومحاربتها. ومن الخطير أننا نساعدهم في هذا الاتجاه لتحقيق أهدافهم من خلال إهمالنا للغة العربية استخداماً وتوظيفا تعليما وتعلما. وعلينا أن ندرك خطورة هذا الأمر ومواجهته، لأن اللغة العربية هي المقوم الرئيسي لثقافتنا العربية ولعروبتنا: الهوية والكيان، ودائرة الانتماء، والتي تشكل مع الإسلام الإطار الثقافي والعقائدي للهوية العربية، وبهما تكتمل دائرة الذات والوجود لأي بد عربي، دون تناقض أو تضارب أو عصبية، وإنما يتم التكامل في تفاعل، وفي وحدة عضوية تشكل عقيدة ووجدان وروح الإنسان العربي ونتساءل ماذا حدث ويحدث الآن للعروبة تشكل عقيدة ووجدان وروح الإنسان العربي ونتساءل ماذا حدث ويحدث الآن للعروبة الذات والكيان؟ وكيف تكون المواجهة؟ الإجابة معلومة ومعروفة، ولا يحتاج إلي بيان أو طول في الإثبات، ومن ثم يبقى السؤال الذهبي والأكثر أهمية: ما الحل؟ وكيف نحافظ على عروبتنا في ظل التحديات التي تتواجها؟ الإجابة عن هذا السؤال وغيره قد تكون موضوعا لمقال آخر.

<u>ثالثاً</u>:- الثقافة ودورها فى عمليات التنمية والتطوير (*)

بداية ، نقولها ـ وكما تؤكد عشرات الدراسات والتحليلات ـ إنه حدث تعديل في ترتيب أوليات اهتمامات الأمم والشعوب ، ففى الماضي ـ وتحديدا قبل الحرب العالمية الثانية، ولسنوات قليلة بعدها ـ كانت السياسة تحتل الأولوية على ما عداها من منظومة الاهتمامات والعلاقات ـ ومن بعد جاء" الاقتصاد" ليحتل مقعد الأولوية ويفرض سلطانه وبقوة على حركه المجتمعات، وأصبح وزير"الاقتصاد "ورجال الأعمال في مقدمة المرافقين

(*) مقال نشر على حلقتين بجريدة روزاليوسف اليومية بتاريخ 18،25 من يونيو2006م

لرؤساء الدول في زياراتهم ومقابلاتهم لغيرهم من الرؤساء. وتزايدت الوفود الاقتصادية على " السياسية ".

أما الثقافة فلم تكن بالفاعل المؤثر، بل لم تكن مطلوبة فى حد ذاتها، حتى جاء الربع الأخير من القرن العشرين، فانقلب الحال تماما، وحدثت إعادة ترتيب للأولويات والاهتمامات، فبعد أن كانت الشعوب تناضل من أجل استقلالها السياسي، ومن بعد الأقتصادى، أصبحت الآن تناضل من أجل الحفاظ على خصوصياتها الثقافية. وما يدور الآن من حروب وصراعات دولية وإقليمية إنما يشكل البعد الثقافي فيها دورا أكبر مما عداه من أبعاد، إما لإحياء ثقافات قديمة،أو لمواجهة محاولات فرض ثقافات أخرى.

على أي حال، باتت الثقافة الآن ـ وبأي معنى من المعاني- تحتل أولية الاهتمام والصدارة. ولم لا؟ وهى المنتج والإنتاج، الكيان والذات، والملاذ ساعة المحن، واشتداد الكرب، وإثبات الوجود فى عالم يتزايد فيه تهميش صغاره، وهيمنة كباره ومن قبل ومن بعد دورها فى عمليات التنمية والتطوير.

فإذا كان هناك من يرى ـ وبحق ـ أنها تشكل مع التعليم والتكنولوجيا ثلاثية النهضة والتقدم ـ فإنه بالإمكان اختزال هذه الثلاثية فى"الثقافة " بمفهومها الواسع الشامل لهذين البعدين، باعتبارها في المحصلة"منتدى ثقافيا" وإبداعا إنسانيا، بل ويتوقف المضى فيهما بكفاءة واقتدار على نوعية الثقافة السائدة، وقدرتها على استيعاب هذا المنتج وتوظيفه فى عمليات التنمية والتطوير. أما إغفال الجوانب الثقافية، والتركيز على المفاهيم الاقتصادية فى هذه العمليات فإنه يؤدى إلى وجود العديد من المشكلات مثل البطالة والاغتراب، وأتساع الفروق بين الطبقات. وزيادة التهميش، وتكريس التخلف، والوقوع فريسة لعمليات تزييف الوعي، وفكر الخرافة. وما عليه واقع المواطن المصري والمجتمعات العربية عموما خير شاهد، ومن ثم لا بديل أمامنا إلا اتخاذ الثقافة منطلقا لعمليات التنمية والتطوير، واحتلالها الأولوية فى هذا المجال، خاصة بعد أن أصبحت شاملة لمختلف الجوانب والأبعاد، سياسية واقتصادية، اجتماعية وتربوية، علمية وتكنولوجيا، فكرا وإبداعا، حتى نظام القيم والمعتقدات والحفاظ على الثوابت بات جزء لا يتجزأ من التنمية المجتمعية الشاملة، مما يؤكد أن العلاقة بين

التنمية والثقافة من الوثوق والتلاحم مما يصعب معه تصور إحداها دون الأخرى، وهى في المقام الأول علاقة تفاعل، وتأثر متبادل، إيجابا وسلبا نجاحا وإخفاقا، صعودا وهبوطا.

وهنا يفرض التساؤل نفسه. كيف يمكن توظيف هذه العلاقة فى القيام بعمليات التنمية والتطوير بكفاءة واقتدار ، وتحقيق الأهداف المنشودة ؟ وكيف يمكن للثقافة السائدة أن تسهم بدور فعال فى تحقيق هذه الأهداف، ونجاح هذه العمليات؟ للإجابة على هذا السؤال يمكن طرح الأتي:

1- إنه ـ بداية ـ ينبغي أن نشير إلى أهمية التعامل مع مفهوم"التنمية" بنظرة أوسع وأشمل، وأبعد عمقا، تأخذ فى اعتبارها أنها عملية موحدة مركبة متكاملة شاملة، تتفاعل مكوناتها وتتشابك فى الغايات والوسائل وتنطوي على العديد من الأبعاد والمضامين الأخلاقية والإنسانية والاجتماعية والثقافية ، التى تعمل ـ كما يقول شيخنا حامد عمار ـ على الوحدة بين الحاجات المادية والمعنوية ، الفردية والاجتماعية، والتكامل بين مختلف المجالات،وكافة الإمكانيات والطاقات، وغيرها من المضامين والأبعاد التى ينبغي أن تنطوي عليها التنمية، وإلا فقدت أهميتها وجدواها ، خاصة فى المجتمعات التى تنشد النهضة والتقدم وهنا يلتقي مفهوم"التنمية" مع مفهوم "التطوير" الذى طرحه شوقي جلال كمفهوم يعبر عن مرحلة حضارية جديدة شاملة للإنتاج وللإنسان ومقدراته وقدراته ومشاركته الإيجابية فى صنع حياته، وحياة مجتمعه. فالهدف هنا هو هدف وجودي تطويري فى سياق وتنافس وصراع ـ حضاري يستهدف بناء إنسان ومجتمع جديدين : علما، فكرا وثقافة ، سلوكا ووجدانا .

2- وأياً كانت التفسيرات لمفهومي التنمية والتطوير، فإنها جميعا تصب فى اتجاه الشمول والتكامل وتوظيف كافة الإمكانيات والقدرات المادية والإنسانية والمشاركات الايجابية، وتعبئة الجماهير، وتحقيق العدالة الاجتماعية، والتحرر من قهر الداخل والخارج، وهذه كلها تشكل ـ كما يقول مفكرنا حسن حنفى ـ أهدافا قومية بل ومن أهم مقومات مشروعنا القومي الان، ولعدة أجيال قادمة وهذا يتطلب ثقافة تطويرية بمفاهيم وقيم جديدة قوامها الديمقراطية والحرية والشفافية والمشاركة الايجابية الفاعلة،

3- والانفتاح على الثقافات الأخرى، والإفادة من تكنولوجيا العصر، والدخول فى حوار مع الواقع المعاش والتفاعل معة بغية الارتقاء والنهوض به، والإفادة من معطياته فى توجيه حركة التنمية والتطوير. على أن يتم غرس هذه المفاهيم والقيم فى الكيان والوجدان القومي، ليصبح سلوكا حياتيا معاشا، ويستطيع النفاذ إلى مكونات الثقافة السائدة التى هى بدورها بحاجة إلى إعادة البناء، حيث إنها الضمان الوحيد لإحداث التغيرات الاجتماعية المنشودة ، وهنا الزم ما يكون للمجتمعات فى ظل الظروف التى تعيشها، ومرحلة الانتقال التى تمر بها .

إن تطوير الثقافة وإعادة بنائها يتطلب أساسا التحديد والتحليل العلمي لمكوناتها والكشف عما بها من إيجابيات واتخاذها منطلقا لعمليات التنمية والتطوير، وتحويل ما بها من سلبيات إلى ايجابيات من خلال تعديل مسارها فى الاتجاه المنشود. وهذا كله يتطلب رؤية وفهما جديدا يقوم على الانتقاء الوظيفي للعناصر الثقافية وتحديد المكونات الأساسية لهذه الثقافة.

ونقول مع حسن حنفى إن الفكر العربي سيظل عاجزا عن الدخول فى التحديات الرئيسة فى الواقع العربى، ما لم يتحول إلى فكر قادر على صياغة مفاهيم جذرية للواقع المأساوى الذى يتفاعل معه، ويعيش فيه. ويضيف نبيل على ضرورة إعادة الثقافة لمنظومة المجتمع ككل ، والتفاعل مع المنظومات الفرعية السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بل مع الثقافات والأخرى ، التى يشكل الحوار معها تحديا حقيقيا لثقافتنا العربية فى ضوء ما يقال عن عالميتها ، وقاعدتها الذهبية فى اتخاذ المواقف الوسطى المتوازنة بين ثقافات العالم المختلفة . باختصار إننا بحاجة إلى إعادة علاقة الثقافة بهذة المنظومات على أسس واعية رشيدة تجعلها، قادرة على التفاعل معها،والعمل على تنميتها وتطويرها وبهذا وحده وليس غيره، يمكن تحقيق التنمية والتطوير، النهضة والتقدم انطلاقا من خصوصياتنا الثقافية ووفق إرادتنا القومية .

رابعاً:- ثقافة التطوير.. وتطوير الثقافة(*)

إذا كنا نعيش اليوم عصر الثقافة، فإننا أيضا- وباستحقاق- نعيش عصر الثقافة، حيث لم تنل من الاهتمام والأهمية مثلما تشهده الآن، في كل المواقع، وعلى كل الجبهات، وباتت تحتل مرتبة الصدارة، بعد ما كانت في

(*) مقال منشور بجريدة الأهرام 2005/2/4

الماضي تالية للسياسة، ومن بعد الاقتصاد. ولم لا؟ وهي المنتج والإنتاج، الكيان والذات، والملاذ ساعة المحن،واشتداد الكرب، وبها- ومن أجلها- يتزايد الصراع، بل ويشتد القتال، وتقوم الحروب، من أجل إثبات الوجود في عالم يتزايد فيه تهميش صغاره، وهيمنة كباره. ومن قبل ومن بعد فقد تأكد- وبما لا يدع مجالا للشك- أن للثقافة أهميتها دورها في عمليات التنمية والتطوير، فإذا كان هناك من يري- وبحق- أنها تشكل مع التعليم والتكنولوجيا ثلاثية النهضة والتقدم، فإنه بالإمكان من اختزال هذه الثلاثية في الثقافة بمفهومها الواسع الشامل لهذين البعدين، باعتبارهما في المحصلة منتجا ثقافيا وإبداعا إنسانيا، بل ويتوقف المضى فيهما بكفاءة واقتدار على نوعية الثقافة، وقدرتها على استيعاب هذه المنتج وتوظيفه في عمليات التنمية والتطوير، النهضة والتقدم.

باختصار: إنه بدون الثقافة يصعب التكهن بنجاح أي عمليات تنموية تطويرية، إن لم يكن من المؤكد الحكم عليها بالإخفاق، فالبحوث والدراسات ومعطيات الواقع المشاهد تؤكد أن إغفال الجوانب الثقافية، والتركيز على المفاهيم الاقتصادية في هذه العمليات قد أدى إلي وجود العديد من المشكلات في المجتمعات المتقدمة، مثل البطالة والاغتراب، واتساع الفروق بين الطبقات. أما في المجتمعات فحدث ولا حرج عن الفشل والإخفاقات المتتالية بل نقول- مع غيرنا- إن أقل ما يوصف ما حدث ويحدث بالكوارث التنموية. وهي توارث لا تحتاج إلي بيان، أو طول في الإثبات.

فما عليه واقع المواطن والمجتمعات العربية عموما خير شاهد، ومن ثم بدا واضحا للجميع- متقدما كان أمناميا- أنه لا بديل من اتخاذ الثقافة منطلقا لعمليات التنمية والتطوير، واحتلالها الأولوية في هذا المجال، خاصة بعد أن أصبحت منظومتها تشمل مختلف الجوانب والأبعاد وفي كل الميادين والمجالات: سياسية واقتصادية، اجتماعية وتربوية، علمية وتكنولوجية، فكرا وإبداعا، حتى نظام القيم والمعتقدات، والحفاظ على الثوابت بات جزء لا يتجزأ من التنمية المجتمعية الشاملة، مما يؤكد أن العلاقة بين التنمية والثقافة من الوثوق والتلاحم ما يصعب معه تصور أحداهما دون الأخرى، وهي بالدرجة الأول علاقة تفاعل وتأثر متبادل إيجابا وسلبا، نجاحا وإخفاقا، صعودا وهبوطا.

وهذا يتطلب – ولا شك- ثقافة متطورة بمفاهيم وقيم جديدة قوامها الديمقراطية والحرية والشفافية والمشاركة الإيجابية الفاعلة، والانفتاح على الثقافات الأخرى، والإفادة من تكنولوجيا العصر، والدخول في حوار من الواقع المعاش والتفاعل معه بغية الارتقاء والنهوض به، والإفادة من معطياته في توجيه حركة التنمية والتطوير. على أن يتم غرس هذه المفاهيم والقيم في الكيان والوجدان القومي، ليصبح سلوكا حياتيا معاشا، ويستطيع النفاذ إلي مكونات الثقافة السائدة، التي هي بدورها بحاجة إلي إعادة البناء، واعتباره ف القلب من عمليات التنمية والتطوير، حيث أنه الضمان الوحيد لأحداث التغيرات الاجتماعية المنشودة، ومن ألزم ما يكون بالنسبة للمجتمعات التابعة في ظل الظروف التي تعيشها ومرحلة الانتقال التي تمر بها.

أن تطوير الثقافة أو إعادة بنائها يتطلب أساسا التحديد والتحليل العلمي لمكوناتها والكشف عما بها من إيجابيات لتوظيفها واتخاذها منطلقا لعمليات التنمية والتطوير، وتحويل ما بها من سلبيات إلي ايجابيات من خلال تعديل مسارها في الاتجاه المنشود وهذا كله يتطلب رؤية وفهما جديدا يقول على الانتقاء الوظيفي للعناصر الثقافية، وتحديد المكونات الأساسية لهذه الثقافة.

ونقول مع حسن حنفي إن الفكر العربي سيظل عاجزا عن الدخول في التحديات الرئيسية في الواقع العربي ما لم يتحول إلي فكر جذري قادر على صياغة مفاهيم جذرية للواقع المأساوي الذي يتفاعل معه ويعيش فيه، ويتطلب ذلك إعادة تأسيس جذوره الثلاثة في التراث القديم والمعاصر، والواقع العربي ذاته، ونضيف ما يراه نبيل على من ضرورة إعادة علاقة الثقافة بمنظومة المجتمع ككل، وبالمنظومات الفرعية السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بل وبالثقافات الأخرى، التي يشكل الحوار معها تحديا حقيقيا لثقافتنا العربية في ضوء ما يقال عن عالميتها، وقاعدتها الذهبية في اتخاذ المواقف الوسطى المتوازنة بين ثقافات العالم المختلفة. باختصار إننا بحاجة إلي إعادة علاقة الثقافة بين المنظومات على أسس واعية رشيدة تجعلها قادرة على التفاعل معها والعمل على تنميتها وتطويرها وبهذا وحده ليس

غيره يمكن تحقيق التنمية والتطوير، النهضة والتقدم انطلاقا من خصوصياتنا الثقافية ووفق إرادتنا القومية.

خامساً: فكـر الواقـع... وواقــع الفكـر[*]

العلاقة بين الفكر والواقع من القضايا المثيرة للجدل، قديما وحديثا، فمن يتتبع تاريخ الفكر الإنساني يتبين له اختلاف الاتجاهات الفكرية حول هذه العلاقة. فهناك من يرى في العقل والوجدان منشأ الفكر، وغايته البحث عن المعاني والأفكار المجردة، متجاوزا بذلك الواقع والمحسوسات. وهناك من يري في الواقع وسيلة الفكر، وغايته، فهو به، وله، ونتاج التفاعل معه، وبين هذا وذاك يوجد عادة الاتجاه التوفيقي بين هذا وذاك.

لكن - هذه العلاقة- لم تشهد من الإثارة والجدل مثلما تشهده الآن، فلقد تسلسلت المعرفة الإنسانية إلي كل أرجاء المجتمع الإنساني وفي كل الميادين والمجالات، ودخلت المعارف والأفكار في علاقة جدلية مثيرة مع كل القوى والفئات، ومختلف الطبقات، وعلى كل الأصعدة والمستويات، ومن ثم بات علينا تحديد موقفنا من هذه العلاقة، وفي أي اتجاه نسير؟ هذا ما نحاول ألقاء الضوء عليه في هذا المقال، الذي يتلخص محتواه في الآتي:

- إنه بات واضحا أثناء لأننا نعيش بالفعل مغايرا، وتحديات جسام على مختلف الجبهات، وفي كل الميادين والمجالات، بفعل عشرات التغيرات والتطورات، وفي القلب منها تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، والتي اختلطت معها- كما يقول نبيل على- قوانين اللغة على ساحتي الثقافة والفكر، بعد أن صار الأداء الكلي للمجتمع هو محصلة الخطابات التي تسري بداخله، من خلال نظم الأعلام الجماهيري، وتكنولوجيا الاتصال فائقة التقدم.

- كما أن علاقة الفكر بالواقع بدأت تأخذ- في ظل التغيرات والتطورات المعاصرة- أشكالا وأساليب شتى، وتتسع لتشمل كل الأبعاد المجتمعية: ثقافة واجتماعا، سياسة واقتصادا، ومن ثم بات على الفكر أن يشتبك مع كل هذه الأبعاد: رصدا وتحليلا، ونقدا لمكوناتها، واتجاهتها وتناقضتها، وتحديد الفئات المستفيدة منها، كما ينبغي- من ناحية أخرى- إعادة بناء

(*) مقال منشور بجريدة الأهرام في 2005/2/18

هذه المكونات، وتجديد لغتها في الخطاب والتعبير، سواء في علاقتها ببعضها البعض، أو في علاقتها بما يحيط بها في الواقع الاجتماعي.

- إن هناك ما يشبه الإجماع على أن فكرنا العربي- في علاقته بالواقع- يعاني أزمات طاحنة، على مختلف الأبعاد والمجالات. وقد يكفي الرجوع إلي عشرات التحليلات، والصفات السلبية التي طرحتها العديد من الأقلام تعبيرا عن هذه الأزمة، من خلال وصفه بالتبرير لا النقد والازدواجية لا الصراحة. والإنشاء لا أخبار، التكرار لا الإبداع، الجمع لا التحليل والنقد. عشرات الصفات التي يوصف به فكرنا العربي وكلها تصب في غير صالح الفكر والسلوك والوجدان أو الجماهير والفئات الاجتماعية المختلفة إن أقل ما يوصف به فكرنا العربي أنه فكر نخبوي بعيد عن نبضها وحاجاتها الأساسية، ومن ثم افتقد الفاعلية والتأثير على ساحة العمل الاجتماعي، بل ومبررات وجوده واستمراريته، وباتت الحاجة ملحة إلي إحداث ثورة تجديدة لأصولنا الفكرية، وعدتنا المعرفية واقتحام الواقع بكل مشكلاته وقضاياه مهما كانت درجة حساسيتها، مع توافر شط الحرية للقيام بهذه المهام والأدوار، وتوافر الآليات والقدرات لتسويق الفكر والإبداعات والاستجابة للاحتياجات المجتمعية، ومن ثم ضمان نموها وتراكمها، وتأثيرها في الواقع الاجتماعي.

عشرات المتطلبات والآليات والشروط التي ينبغي توافرها من أجل تعميق العلاقة بين الفكر والواقع العربي: إثراء لهذا الفكر، وتطويرا وتغييرا لهذا الواقع، والارتقاء والنهوض به

الفصـــل الثاني

أزمـــة اللغة العربيـــة

لغتنا العربية، تعاني أزمة حقيقية، لاعن طبع فيها أو لأمر يتعلق بها، وإنما لظروف خارجة عنها، وفي الغالب الأعم ممن يحملونها، ومن أهلها، واليهم تنتمي. مع أنها العروة الوثقي بينهم وعليهم تقع مسئولية حمايتها والحفاظ عليها وهذا ما نود الإشارة إليه في هذا الفصل من خلال المحاور التالية:-

أولاً: لغتنا الجميلة البقية الباقية من عِقْدِنا العربي(*)

وهكذا يتوالى- يوما بعد يوم- انفراط حبات عهدنا العربي، على كل الجبهات، وفى مختلف الميادين والمجالات، حتى الوجود بات مهددا، أما "الكرامة" فمسألة فيها نظر، وتبقى اللغة العربية البقية الباقية من حبات هذا العقد، التى ما تزال تستعصى على الانفراط والسقوط وتقاوم- ليس فقط تهديدات الخارج، وغريماتها من اللغات الحية- وإنما أيضا جحود أبنائها، الناطقين بها، وإليهم تنتسب وإليها ينتسبون. ومع ذلك ما تزال عصية على الانفراط والسقوط، لأنها- أولا- "لغة"، وثانيا "عربية" فمنهما، وبهما تستمد مقومات الاستمرارية والوجود، وتستعصى على الانفراط والسقوط. فهى – بهاتين الخاصيتين- تشكل كائنا حيا نحمله ويحملنا، وإن بدا لنا معنى ورمزا، إنها تعيش فينا، ومن حولنا، وأداة ادراكنا لما يحيط بنا. وهى على حد تعبير نبيل على- الساحرة القادرة على تحويل المحسوس الضخم إلى مجرد رمز، والمجرد- بمجازها- إلى محسوس ضخم، نلمسه ونحسه، فهى الجسر الواصل بين خصوصية الذات، وعمومية الموضوع. وهى الترجمة لما فى الصدور إلى معان، تشكل الحياة، وتوجه الأداء والسلوك. إنها قدر الإنسان الاجتماعي، فكما تكشف عن طبقته وجذوره، ونشأته، تكشف أيضا عن قدراته العقلية وميوله الفكرية، وهى وإن كانت ظاهرة شائعة إلا أنها-

---

(*) مقال منشور بجريدة الاهرام بتاريخ 2003/3/28 تحت عنوان "لغتنا الجميلة أخر ما بقى لنا"

وبالقدر نفسه- مستترة دفينة فى طبقة اللاوعى على المستويين: الفردى والجمعى.

إنها "الأم" الحنون الرءوم التى تعطى بلا حدود، وإن لاقت من أبنائها عقوقا، وتغفر للعامة إن تجاوزوها، وللشعراء وإن تمردوا عليها، وللعلماء وإن عاملوها بصرامة. فهى تعيش وتبقى لكل هؤلاء وأولئك، وترعى كل ناطق بها، وكأنه الأثير إلى قلبها. بل إنها ذات الإنسان وزاده، وعالمه الرحيب وأداة صنع المجتمع كما يقول بتربرجر.

من هنا كانت اللغة الشغل الشاغل، ومسئولية الجميع ابتداء من الأسرة، مرورا بالشارع، والمدرسة، ووسائل الإعلام، ورجال السياسة والاقتصاد وصالونات الأدباء، فالكل بها مهموم، وعنها مسئول، لأنها ذاته وحياته هويته وكيانه.

ومن ثم فإن الحفاظ عليها حفاظ على الكيان والذات، وبناء حضارة الأمة، فهى المواكبة لها، الناهضة بها، وبقوة اللغة تشتد أركان الحضارة، وبارتفاعها يرتفع بناء الأمة، إنها تشكل الوجود الداخلى للإنسان إرادة ووعيا، فنا وذوقا، خلقا وعلما، وبهذا الوجود تبنى الحضارات، وعلى الأمم التى تريد بناء حضارتها والنهوض بها، وصون ذاتها، أن تحسن العناية بلغتها.

ونضيف للغة العربية ميزات أخرى، فهى- الخصوصية المكان الزمان، الإنسان واللسان-، من أطول اللغات الحية عمرا، ومن أكثرها أبنية ومن أقدرها تعبيرا، ومن قبل ومن بعد لغة "القرآن" ورابع ثلاثة- الدين والجغرافيا والتاريخ- فى تشكيل الهوية والذات القومية وترسيخ الولاء والانتماء للأمة العربية.

إنها باختصار أبرز ملامح الثقافة العربية، وسجلها الأمين فى بيان لحظات ازدهارها وانتكاساتها، وشاهد العيان على إبداع أبنائها. وهى البقية الباقية من مقومات عروبتنا، بعد أن تم تغييب كل المقومات بفعل المؤامرات الاستعمارية، والنزاعات الإقليمية. ومن ثم بات الحرص عليها واجبا وجوب الحفاظ على وجودنا وذاتنا، وفريضة دينية لفرضية الحفاظ على كلام الله: قرآنه الكريم. وفريضة إسلامية من أجل أمة القرآن، من المسلمين فى شتى

البقاع والأصقاع، خاصة فى ظل الهجمة التربية المسعورة التى تحاول تفتيت المسلمين، ومحاربة عقيدتهم، تمهيدا لنشر، ثقافة القطب الأمريكي.

إن لغتنا العربية تتعرض بالفعل لأخطار وتحديات خارجية تتمثل فيما يحدث لها من حركة تهميش نشطة بفعل الضغوط الهائلة الناجمة عن طغيان اللغة الانجليزية- على وجه الخصوص- على مختلف الأصعدة، ذات الفاعلية والتأثير فى عالم اليوم، ويزيد من خطورة هذا الأمر ما نعانيه نحن من تقاعس واضح إزاء لغتنا العربية على كافة المستويات بالدرجة التى يمكن القول معها: إنها هانت على بنى وطنها، ومن باسمها سموا عربا، وهذا ليس بحاجة إلى دليل، ويكفى أن نشير إلى ما تعانيه من تقاعس لغوى فى عمليات التجديد والإصلاح اللغوي، ومن الاهتمام بالشكل دون المضمون، وبالحفظ والاستظهار على حساب التوظيف والاستخدام، حتى من جانب المؤسسات من صراحها المعنية، ومن المدافعين عنها. نقول هذا فقط كنوع من دق نواقيس الخطر لما تتعرض له لغتنا الجميلة، فالأخطار المحدقة بها لا تأتيها من الخارج فحسب، وإنما أيضا من الداخل، وهذه هى الكارثة بعينها، وليس غيرها.

ثانياً:- لغتنا العربية في خطر![*]

تحديات الخارج، التي فرضت علينا فرضا ولعشرات الأسباب لم تكن مؤهلين لمواجهتها، وأثرنا السير في ركابها، وتتبع خطاها، والانتظار لما يطرحه علينا الآخر المتقدم وعلى كل الجبهات من تأشيرات العبور، وإشارات المرور، دون التساؤل عن الأسباب والمبررات، والآثار والتداعيات، والأخطار المتوقعة على الهوية، والسيادة القومية العربية.

فعلى جبهة الثقافة: المفاهيم والمصطلحات، الرؤى والأفكار، القيم والأخلاقيات، حتى الذين والمعتقدات باتت محل تدخل لما يجوز وما لا يجوزون، ونخشى في مستقبل الأيام أن يصل به الصلف والغرور ليتدخل في تحديد أمور أخرى تتعلق بالأركان والفرائض، وكيفية إقامة الشعائر، خاصة وأن كل إقامة الشعائر، خاصة وأن كل شيء بات مستهدفا ومستباحا في ظل الهيمنة والتبعية، والمؤامرة الاستعمارية على ثوابتنا القومية ومقدساتنا الدينية.

(*) مقال منشور بجريدة الجمهورية في 2004/7/7

وعلى جبهة الحضارة، فقد اختص كبار العصر بصنعها واكتفينا باستنشاقها، لحل وعسى!! ولم نتعامل معها بما يفترضه واجب النهوض والتقدم،والقضاء على التخلف.. وإنما من باب التمتع بإنجازاتها الاستهلاكية الترفيهية التي باتت تقتل أنبل ما في الإنسان، الروح والوجدان، المعتقدات والأديان.

أما على جبهة الثقافة فيكفي أن نشير إلي الانترنت الذي كان لسنوات قليلة، حلما بشرياً، أصح الآن في كل مكان، حتى في القوى التي لم يكن بها إلا تليفون العمدة وسيلة للاتصال، ناهيك عن طريق المعلومات فائق السرعة – INFORMA TION SUPERHIGH WAY الذي تعد تكلفة إنشاء بنيته التحتية بتريليونات الدولارات، مما يجعل المشاركة فيه قاصرة على أغنياء العصر، دول العالم المتقدم، وإن كان من المتوقع أن تعمل الولايات المتحدة على مشاركة طفلها المدلل- وقاعدتها الاستراتيجية في الشرق الأوسط- الكيان الصهيوني في هذا الطريق الذي يعد- قوة ثقافية ديناصورية تفوق الخيال- يضاف إليها تلك التقنيات العجيبة التي تحاكي الواقع، وتجعلها نحسب الخيال واقعاً، وما هو كذلك، إنها الخائلية- VIR TUAL REALITY التي تتجاوز مفهوم الخيال، كما نعرفه، ونمارسه.

باختصار، نعيش عصر التقنية المذهلة التي قد يمتلك بعضنا- في عالمنا العربي- شيئا منها، كما لو كانت فعل ساحر، ولماذا لا؟ وإن تحلقنا: إنها التكنولوجيا وإن كان هذا لا ينفي لدينا مفهوم السحر. مما دفا لا نعرق بشكل محدد كيف ولا حدود قدراتها.

وفي هذا الإطار، نقول أنه مع التسليم بما لعصر العولمة من إيجابيات وإنجازات على جبهتي التقانة والثقافة: إلا أن هذا العصر يجمل العديد من الأخطار التي تواجه ثقافتنا العربية، بصفة عامة، ولغتنا العربية بصفة خاصة، ونكتقي هنا بما يخص الأخيرة، وحولها نسجل الآتي:

1- إن العولمة- بآلياتها التقنية والثقافية الهائلة، واقتصادها الضخم، هي من صنع العالم المتقدم ونتاجه، خاصة القطب الأمريكي، الناطق بالانجليزية: مما يعني هيمنة وسيادة هذه اللغة، وتهميش اللغات القومية الأخرى، وبالتالي- فرض ثقافتها وقيمها على كل الثقافات الأخرى، باعتبارها اللغة إلي الناقلة لهذه الثقافات والحافظة عليها.

وهذا ما يؤكده- المشهد اللغوي العالمي- لا سيما في مجال المعلومات والإعلام- حيث تطفي الانجليزية على التدفق المعلوماتي الهادر عبر الانترنت وتصل نسبة الوثائق المخزنة فيه بهذه اللغة ما يزيد عن 90%، وتصل نسبة المكالمات الهاتفية الدولية باللغة الانجليزية إلي حوالي 85 من جهة المكالمات وبهذه اللغة حوالي 70% من الأفلام وما يزيد عن 65% من البرامج الإذاعية، بالإضافة إلي سيطرتها على التعاملات اللحظية اليومية في مختلف الميادين والمجالات، وعلى مختلف الأصعدة والمستويات، حتى باتت تشكل الصيفية اللغوية لما يطلق عليه الآن مصطلح الإمبريلية الثقافية أو الدارو الثقافية على أساس إن معظم لغات العالم- لما تقدم منه والنامي على حد سواء- باتت مهددة الإنقراض وفقا لمبدأ مطلقا للأصلح والإصلاح هما هو الأكثر شيوعاً واستخدماً، وهي اللغة الانجليزية، التي تضيؤ الخناق على ما عليها من لغات وتوشك أن تكون متفردة لغة عالمية.

الأمر الذي آثار فزع جميع الأمم- غير الناطقة بها- على مصير لغاتها القومية، وهي توشك أن تختصر أمام اللغة العاتية، المهيمنة المسيطرة، وبدأت تعد العدة لمواجهتها من خلال السعي لإقامة تحالفات لغوية إقليمية، أو المواجهة بشكل منفرد، كما يحدث من جانب اليابان، التي تعد نموذجا حياً للنضال في هذه المواجهة، وإثبات أن لغتها ليست أقل من الإنجليزية في المجال المعلوماتي والتكنولوجي.

2- أن التحديات العولمية- وإن كانت تحمل- كما سبق أن أشرنا- العديد من الأخطار الكل اللغات- غير الانجليزية- إلا أنها تحمل أخطاراً إضافية للغة العربية، لغة القرآن وذلك في ظل الحملة المسعورة التي يشتنها الغرب- والأمريكي منه على وجه الخصوص، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ضد العرب والإسلام، مما يعني أننا إزاء هجمة مستعرة، ليس فقط على جهة الثقافة، وفي القلب منه اللغة العربية.

3- إنه من هذه التحديات وهذه الأخطار العولمية التي تواجه اللغة العربية فإنها قادرة على مواجهتها. ولقد ثبتت غير العصور جذارتها، بل وأن تصبح لغة عالمية، وشهدتها تاريخ الفتح الإسلامي سرة انتشارها وانتاجاتها في بيئات لغوية متباينة ونجحت في عصور الازدهار أن تكف

أداة فعالة لقل المعرفة، كما أنها على مستوى طبيعته اللغوية تمتلك العديد من الخصائص والمميزات الأساسية التي تؤكد أحقيتها في أن تكون لغة عالمية. ويأتي في مقدمة هذه الخصائص- التوسط والتوازن اللغوي، فهي تجمع بين كثير من خصائص اللغات الأخرى: كتابة وأصواتا ونحوا وصرفاً، كما تختص بتوازن دقيق وتآخ- محسوب بين فروع اللغة المختلفة.

وبهذه الخاصية الوسيطة يسهل تطويع النماذج البرمجية المصممة للغة العربية لتلبية مطالب اللغات الأخرى، وعلى رأسها اللغة الانجليزية.

لهذا ولغيره، فإنه يجب علينا إعادة دراسة لغتنا لهذا ولغيره، فإنه يجب علينا إعادة دراسة لغتنا بنية وتركيبا، نحو وصرفا، لفظا ومعني، تفكيرا وتنظيرا، فقها وعلما، استخداما وتوظيفا، وعلاقات التعامل والتفاعل مع غيرها من العلوم والمعارف باختصار، نحن في دراستنا للغة العربية في أمس الحاجة إلي نظرة أشمل، متجاوزة الخطاب اللغوي الراهن على اختلاف رجاله ومستوياته، ومؤسساته، فقضية اللغة العربية في أمس الحاجة إلي نظرة أشمل، متجاوزة الخطاب اللغوي الراهن على اختلاف رجاله ومستوياته، ومؤسساته، فقضية اللغة العربية باتت من المحورية والشمول والتعقد ما يصعب معه- إن لم يكن من المحال- تناولها من منظور تخصص ضيق، أو استخدام اجتماعي قاصر، كما أنها من الخطورة والأهمية بما لا يقل التأجيل أو الإرجاء وهي- لكل هذا وذاك، ولغيره- يصعب تناولها دون وجود إستراتيجية واضحة للإصلاح اللغوي الشامل، في إطار خطة قومية أكثر شمولا تجعل من لغتنا لغة عالمية قادرة على التعامل مع عصر التحديات.

ثالثا: من المسئول عن أزمة اللغة العربية؟(*)

سؤال صريح ومباشر، نطرحه عنه إجابة صريحة مباشرة من قبل المهتمين والمهمومين بهذه القضية الخطيرة خصوصا في الوقت الحاضر الذي تتعرض فيه اللغة العربية(بل كل اللغات القومية) لظروف وتغيرات ضاغطة فقد تفقدها خصوصيا صياتها بل قد تتحلل وتذوب داخل لغة القطب الواحد في ظل الدعوة لنظامه العالمي الجديد، وتحت مفاهيم العولمة

(*) مقال منشور (لعد الاختصار) بجريدة الجمهورية بتاريخ 2000/10/30

والكوكبة، التي تتجه وبقوة حسب تعبير وتفسير فيديريكر مايور مدير اليونسكو إلي صيغ العالم بثقافة واحدة، ولغة واحدة، حتى تفتقد الشعوب هويتها، وتنصهر في ثقافة العولمة ويؤكد عليه الرئيس الفرنسي جاك شيراك في تحذيره من محاولة سيطرة لغة واحدة، وثقافة واحدة على العالم، تطبخ بخصوصيات ثقافة الشعوب.

إن من حق اللغة العربية علينا، ومن واجبنا نحوها أن نحافظ عليها، لأن في الحفاظ عليها- كلغة قومية- حفاظا على كيان الأمة العربية وذاتها، وبناء حضارتها، فاللغة سابقة للحضارة، مواكبة ومواجهة، محفزة ومصوبة لها ناهضة بها، حافظة عليها، تقوي اللغة فتشتد أركان الحضارة، وترتفع فيرتفع بناء الأمة، وتحيا فتحيا الجماعة إنها على حد تعبير أستاذنا د. سيد عثمان تشكل الوجود الداخلي للإنسان: إرادة ووعيا، فنا وذوقا، خلقا وعلما، وبهذا الوجود تبني الحضارات، ومن ثم فإن على الأمة التي تريد بناء حضاراتها والنهوض بها وصون ذاتها أن تحسن العناية والرعاية للغتها.

إن اللغة العربية هي ثالث اثنين- التاريخ والجغرافيا- في تشكيل الهوية القومية، وترسيخ الولاء والانتماء للوطن بل هي أسبق منهما ومن الدين نفسه في تحديد هوية الأمة.

ولغتنا العربية لغة غنية ثرية، وباعتراف علماء اللغة تعد من أكثر اللغات أبنية، ومن أقدرها تعبيرا، ومن أطول اللغات الحية عمرا، وأقدمها عهدا. وهي البقية الباقية من ثوابت الأمة العربية، والعروة الوثقى بين شعوبها، وبدونها- في ظل الظروف التي تعيشها هذه الشعوب- سوف ينفرط عقدها، بل يصعب وصفها- حينئذ- بالشعوب العربية.

وهنا نقول إننا لسنا بحاجة إلي التأكيد على أن لغتنا العربية تعاني أزمة، وهي أزمة حقيقية ترتبط تاريخيا بانحسار المد الحضاري للمسلمين، وضعف الأمة العربية، ووقوعها فريسة للاحتلال التركي بكل تعصبه وتخلفه وجهلة، ومن بعد الاحتلال الفرنسي والانجليزي بكل طغيانه الثقافي وقهره السياسي، وما ترتب عليه من انقاسمات وإقليمية للبلدان العربية، شجعت على التمسك باللهجات المحلية التي يصعب على غير المستخدمين لها التخاطب أو التفاهم بها. فضلا عن وقوع بعض هذه البلدان فريسة للثقافة الغربية، وفي بلدان أخرى للثقافات الأسيوية الوافدة مع العمالة التي تستعين بها وبشكل أساس

في مختلـف المجـالات يضـاف إلي هـذا تلـك التطـورات العلميـة والتكنولوجيـة المذهلـة، والتطورات الاقتصادية والسياسية التي فاتقـت كـل التوقعـات، ومـا ترتـب عليهـا مـن آثـار وتداعيات تبلورت في مفاهيم العولمة والكوكبة، ومحاولة أمركـة حيـاة الشـعوب لا رغبـة في النهوض بها أو تقدمها، وإنمـا بفـرض الهيمنـة والسـيطرة، والانضـواء تحـت النظـام العـالمي الأمريكي، إلي آخر هذه الظروف والتغيرات التي كان لها تأثيرها الواضـح في تعـرض الثوابـت العربية وفي مقدمتها اللغة لهزات عنيفة ساهمت وبشكل فعال في اتساع حدة هذه الأزمة.

مظاهـــر الأزمــــة:-

مع التسليم بأن أعراض الأزمة ومظاهرها واضحة لعيان، ولا تحتاج إلي تبيان، وأن مـن الصعب توضيح الواضحات، مع التسليم بهذا كله، فإننا نشـير إلي بعضـها مـن بـاب إنعـاش الذاكرة بخطورة هذه الأزمة، مع التأكيد على إننا قد لا نصف جديدا عـلى مـا سـبق طرحـه قل المحللين والمفسرين لهذه الأزمة. من هذه المظاهر:-

1- ضعف الأداء اللغوي، لدرجة أن هناك من المتعلمين من يصـعب علـيهم تكـوين جمـل مفيدة- كتابة وتحـدثا- حـول موضـوع معـين. وأوضـح مـا يكـون هـذا بـين الشـباب، حتـى الحاصلين منهم على الدرجات العليا، فلقما تجد شابا قادرا على التعبير عن فكرة معينة بلغة سليمة، وإنما تجـد التلعـثم والتكـرار، والإتيـان بألفـاظ لا علاقـة لهـا بالموضـوع، فضـلا عـن الأخطاء اللغوية الفاحشة.

وفي هذا الصدد يقول شاعرنا د/ أحمد تيمور: عليك أن تشاهد طالبة دراسات عليا أمـام ميكروفون إذاعة أو تلفاز، وحاول أن تقرأ وراء شفتيه وهو يجيـب عـن أحـد الأسـئلة، إنـك ستجد أخطاء لغوية لا حصر لها، ومعلومات هـي رءوس لموضـوعات اعتـاد عـلى حفظهـا في المدرسة هربا من التعبير الحر الذي لم يتدرب عليه من قبل لا في المدرسية ولا فر غيرها.

ولا يقف الأمر بالشباب عنه هذا الحد، فلعديـد مـن الظـروف- وهـي في معظمها أسرية- بدأ هـؤلاء الشـباب يسـتخدمون لغـة خاصـة بهـم يطلـق عليها د/تيمور اللغة المضادة للغتنا العربية المعروفة، المتوارثة عبر الأجيال،

والتي بها حصلنا على شهادة ميلا الانتماء للأمة العربية ، والحصول على الهوية القومية أما اللغة المضادة التي شرع أبناؤنا في استخدامها، وتعميم اصطلاحاتها فهي من حيث معناها وتراكيبها غير اللغة العربية التي ألقناها وتعلمناها.

صحيح هي ذات حروف عربية، ويضاف إليها أحيانا بعض المفردات الأجنبية، إلا أن معانيها شبابية تضاف إلي قائمة الشبابيات التي بدأت تفرض نفسها وبقوة عل حياتنا الاجتماعية والثقافية(أغنة شبابية، زي شبابي...الخ) إن هذه اللغة وغيرها من الشبابيات تؤكد على أننا إزاء ثقافة خاصة بالشباب. وليس عيبا أو ممنوعا أن يكون للشباب ثقافتهم الخاصة بهم، بل إن وجودها مطلوب وضروري لأسباب يطول شرحها، وإنما تصب كلها في عمليات التنشئة الاجتماعية وتكوين الذات المستقلة. لكن الخطير هي الفجوة العميقة بين الثقافة الخاصة.

بالشباب والثقافة العامة للمجتمع، أو بتعبير أدق هو في نمو الثقافة الخاصة وازدهارها بعيداً عن السياق العام للمجتمع وما ينطوي عليه من قيم وأخلاقيات، وثوابت معينة. وبالمثل فإن الخطر في وجود اللغة المضادة هو خروجها عم المألوف من اللغة الأم من حيث معناها وتراكيبها إنها تعمل على إفراز أفكار ومشاعر مضادة، تؤدي- على حد تعبيرد. تيمور- إلي اغتراب لغوي عوق التفاعل والتواصل مع: الكبار، من ناحية، ومع أفكار الواضحة من ناحية ثانية.

2- وإذا كان الشباب قد تطرف في تعامله مع اللغة العربية من حيث استخدامه لغة مضادة تتميز بالاختصار والاختزال لغة عملية وسريعة، سرعة إعداد السندوتشات والموسيقي الصاخبة، خالية من العواطف ومن المعاني العميقة، نقول: إذا كان الشباب قد تطرف في هذا الأمر فإن هناك من الكبار من يمارس التطرف مع اللغة ولكن بأسلوب آخر، وتطرف يفقدها معناها ووظيفتها الاجتماعية، حيث نجد هذا الصنف من الناس يهتم- على حد تعبير أحد الباحثين- بلغة الإنشاء أكثر من اهتماه بلغة الواقع والتعبير عن الأفكار التي تثري العلم والفكر، وتحقق التواصل مع الآخرين.

إن هذه الفتنة تهتم بالشكل على حساب المضمون، وتجعل من اللغة مجرد لسان ينطق بها في حين- وكما هو معروف- أن الغة ليست لسانا فحسب، وإنما هي أيضا فكر وعلم.

لا تصلح لإقناع العقل لإقناع العقل أو نتاج العلم والفكر. واللغة بلا شكل جمالي وفنيات وقواعد مرعية، لغة جامدة منفلتة يصعب على الناطقين بها السيطرة عليها، ويسهل على غيرهم افتراسها والقضاء عليها. اللغة شكل ومضمون، لسام وفكر ولا يمكن أن تستقيم أو تؤدي وظائفها إلا بالارتباط الوثيق، والتفاعل الحي بين هذه العناصر.

3- ومن مظاهر الأزمة أيضا ما لا تستطيع إغفاله أذن السامع أو عين الملاحظ ويتمثل في تغلغل العجمة

- وبدرجة خطيرة- في مختلف جوانب حياتنا الاجتماعية والثقافية والسياسية والعلمية، وعلى مختلف الفئات والمستويات، بل أصبحت تسيطر على خطابنا العام، وتروح لها أخطر وسائل الأعلام تأثيراً، مما يهدد لغتنا وهويتنا، ويوقعنا فريسة للهيمنة والتبعية للثقافات الأجنبية، والخطر في الأمر أن العجمة عرفت طريقها إلي أساتذة اللغة العربية أنفسهم، كما بدأت تتسرب إلي الطبقات الشعبية التي تشكل الأغلبية في المجتمع، وتعد خط دفاعه الأول والأخير.

4- أما ما تعانية الفصحى في هذا الزمان، فأمر واضح ومعروف، حيث بات الحديث بها مدعاة للسخرية والتنذر مما جعلها تعاني اغتراباً شديداً، حتى بين من يفترض فيهم استخدامها من المتخصصين والمفكرين والمثقفين.

بل إن العامية التي كنا نعرفها في الماضي أصبحت هي الأخرى تعاني الآن من هذا الاغتراب، فعامية الماضي كانت رشيقة سهلة، سلسلة، ثرية المعاني، تحمل الحكمة والمثل الشعبي المعبر بصدق عن الواقع وعن التفاعلات والعلاقات بين الناس. كانت قريبة إلي الفصحى في ألفاظها، وتراكيبها، ومعانيها. أما عامية اليوم المنافية للقيم والأخلاقيات، باختصار: باتت تعاني تشويهاً واختزالاً وسوقية أبعدها كثيراً عن الفصحى كما أبعدها عن الوجدان والحس الشعبي الصادق، وعن العذوبة والذوق اللغوي الذي كانت تتميز به في الماضي.

5- ولا يمكن إغفال تخلف اللغة العربية عن الإنجازات العلمية والتكنولوجية، كأحد المظاهر الهامة للأزمة التي تعاني منها. لا لعيب فيها، وإنما لعيب في أهلها.

فاللغة العربية ثرية بمفرداتها وتراكيبها ومعانيها، وبها من المرونة ما تستطيع معه أن تستوعب كل المصطلحات العلمية والتكنولوجية- لكن اللغة ليست كائنا مستقلاً بذاته يمكن أن ينهض نفسه وإنما تنهض من خلال الناس.

فماذا عن الناس أو الأهل أو الأمة الناطقة بها في مجال إنتاج العمل والتكنولوجيا؟ الإجابة واضحة ومعروفة وغاية ما يقال: إنها أمة مستهلكة لا منتجة، رضيت لنفسها أن تكون سوقا كبيرة لإنتاج الآخر المتقدم، والذي لا يصدر إلينا سلعة فحسب وإينما يصدر أيضاً لغته وثقافته.

فالسلعة تأتي إلينا وهي مشبعة بثقافته وأيديولوجياته بالدرجة التي يمكن القول معها: إن وراء كل تكنولوجيا يصدر إلينا ايديولوجيا معينة تبقى التبعية الهيمنة بكل أبعادها ومسمايتها، فكيف يمكن للغة العربية أن تتقدم وتنهض وتستطيع مواكبة الإنجازات والتطورات العلمية والتكنولوجية وأهلها هم في عداد الدول المتخلفة علميا وتكنولوجيا.

إن العيب في تخلف اللغة العربية عن مواكبة هذه الإنجازات ليس عيبا ذاتيا وإنما عيب موضوعي يتعلق بالظروف المحيطة بها، وأسلوب التعامل معها من جانب أهلها، وكلها لا تشكل البيئة المناسبة الصالحة لازدهارها وتقدمها، وإنما لاغترابها وضمورها.

الظروف المساعدة على تزايد حدة الأزمة:

بالرغم من أن طرحنا لبعض مظاهر الأزمة التي تعاني منها اللغة العربية يمكن أن يكشف لنا عن الكثير من هذه الظروف إلا أننا وبإيجاز نشير إلي أهمها فقد تصلح موضوعات لبحوث ودراسات يمكن أن تساعد على الإجابة عن السؤال الذي طرحناه عنونا للمقال. ويأتي في مقدمة هذه الظروف:

1- ما تتعرض له الثوابت العربية التي تشكل الوعاء المعنوي والمادي الحافظ على اللغة العربية في صورتها النموذجية وفي مقدمة هذه الثوابت:

أ- التراث الديني والفكري، وعلى رأسه القرآن الكريم والأحاديث النبوية، والمأثورات الدينية والتراث الأدبي، وغيرها من العناصر التراثية التي تشكل زاداً لا ينقطع للغةن العربية: معناً ومبنىً. فلم يعد هناك إقبال أو اهتمام بها من جانب الشباب، وإذا قدمت للناشئة فإنها تقدم بطريقة منفرة تزيد من هواة إهمالها والابتعاد عنها.

ب- العروبة: الهوية والذات والكيان، والتي تعد اللغة من أهم مكوناتها ومقوماتها. فماذا حدث للعروبة؟ لقد أصابها الانحسار والضمور لدى البعض، والترهل، والتميع لدى البعض الآخر. ولماذا لا؟ وهناك من يدعو إلي انضمام الكيان الصهيوني للجامعة العربية.

ورغبة منل في خطب وده، قبلنا وجوده تحت مفهوم الشرق أوسيطة كباب أوسع يتيح للكيان الصهيوني السيطرة والهيمنة، ومن ثم حل هذا المفهوم محل العروبة صباح ومساء- وبإلحاح- وسائل الإعلام الغربية والعربية، ومعها اختفت مفاهيم العروبة ووحدة المصير والهدف بل بات الحديث عنها مدعاة للاتهام بالرجعية والتخلف عن معطيات العصر أو أنها ليست أكثر من بقايا الماضي الحزي ماضي المد العربي في الخمسينيات والستينيات وعلينا نسيانه تماما حتى نحظى برضا الولايات المتحدة ولا نغضب آل صهيون.

ج- ويأتي التاريخ العربي ذاكرة الأمة، وثيق الصلة باللغة العربية: نشأة وازدهارا وتطورا. لقد حدث لهذا الثابت العربي هزة عنيفة تفقدنا مصداقيته، ونفقد معه ذاكراتنا.

فتاريخ الفتوحات والانتصارات وازدهار الحضارة الإسلامية أصبح من وجهة نظر الغرب تاريخ حروب وانقسامات وتخلف وفرقة، وقهر ديني وسياسي، وعلى العرب نسيانه والدخول في شرنقة النظام العالمي الجديد: عالم المحبة والسلام والثروة والرفاهية والثقافة الواحدة.

والمؤسف أننا بدأنا نتأثر ونروح في إعلامنا وتعليمنا لهذه الدعوات الخبيثة المدمرة لوجودنا وذاكراتنا العربية.

د- أما الجغرافيا: بعد المكان والحاضنة للغة العربية، فقد أصيبت بالإقليمية واللهجات المحلية المدمرة للغة العربية ووحدة العرب وموقعهم المتميز الفريد.

وغاية ما يقال: إن الجغرافيا، ثالث اثنين- اللغة والتاريخ- في الانتماء والولاء للوطن قد أصيب بعضها بعوامل النحر بفعل هيمنة الكيان الصهيوني والبعض الآخر بالقوقعة داخل إقليمية بغيضة، والثالث يحرص على ما بيده خشية فقداته، غير عابئ بما يحدث للآخرين.

2- كما لا يمكن عزلة أزمة اللغة العربية عما تعانيه من أسلوب التعامل معها من جانب أهلها، ومن إليهم تنتسب. وغاية ما يمكن قوله هنا: إنها هانت كما هان عليهم غيرها من الثوابت العربية، فنظروا إليها نظرة دونية وأصبحت تحتل مرتبة ثانية بل وثالثة.

لقد فقدت النخوة والغيرة عليها من أهلها وبنى وطنها، وليس أدل على هذا من افتتانهم باللغات الأجنبية: إعلاما وإعلانا، وتحدثا، وتدريسا في بعض المؤسسات التعليمية: في المدارس الأجنبية، وفي المنهج العالمي في المدارس الخاصة، وفي كليات الطب، حتى الخطاب السياسي حرص كل الحرص على استخدام اللغة الأجنبية في اللقاءات والمقابلات الرسمية.

أين نحن من اليابان في كل هذا؟ حيث الحرص الشديد على ألا تكون هناك لغة غير اليابانية في التعامل والتخاطب، والتدريس والإنتاج العلمي والتكنولوجي اعتزازا بها، وبالهوية اليابانية.

بل أنه من الأمور الملاحظةو أنه داخل الأسرة، وفي العديد من خلال التعامل الحياتي اليومي يخجل الفرد أن ينطق لفظه واحدة عربية فصيحة تجنبا للسخرية والتنذر في حين أنه يجد التعزيز والإكبار إذا ما نطق باللغة الأجنبية، فأي مأساة وأي مهانة تلك التي تواجهها الفصحى لغة التراث ولغة القرآن وفي بلاد الإسلام.

3- وهنا نأتي لدور العامية في الأزمة التي تعاني منها اللغة العربية. وغاية ما يمكن قوله في هذا الصدد: إنه في كل لغات العالم توجد العامية كلهجة مشتقة من اللغة الأم، والتحليل العلمي لها يؤكد على أنها لا تخرج في حروفها وفي الكثير من تراكيبها عن اللغة الأم حتى في صورتها النموذجية.

ولقد استقرت هذه اللهجة في وجدان الناس، وبها نتحاور ونتفاهم على مستوى العلاقات الشخصية والاجتماعية وقضاء الحاجات اليومية.

ومن ثم هي قائمة وموجودة ومن يحاول القضاء عليها كمن يخط على الماء أو يضرب رأسه في الحائط لتحطيم الحائط. لكن علينا أن نقف بها عند حد التعامل اليومي والعلاقات الشخصية والاجتماعية، أما التعامل الرسمي، والخطاب العام، ووسائل الإعلام وعلى المستوى المؤسسي وفي المعاهد والمؤسسات التعليمية، وفي الانتاج العلمي والإبداع الفكري والفني فينبغي أن تكون الفصحى هي السائدة، لأنها البديل المضمون القادر على التواصل والتعبير عن الأفكار والمشاعر بلغة واضحة مفهومه، لكن لابد أن تكون اللغة المستخدمة هنا سهلة سلسة، والشعب المصري والعربي لديه استعداد فطري لتذوق الفصحى، انظر كيف يتفاعل مع أغنيات كبار المطربين المكتوبة بالفصحى، حتى الصعبة منها في ألفاظها ومعانيها.

4- أما في المؤسسات التعليمية، فحدث ولا حرج، فبالرغم من أن المدرسة تعتبر البيئة النموذجية لتهذيب لغة التلاميذ، وإتقان اللغة العربية وتوظيف مهاراتها الأساسية في التعبير والحوار والكتابة- نقول: إنه بالرغم من كل هذا- ولعشرات الأسباب- أخفقت المدرسة وبدرجة ممتاز في القيام بهذه المهمة، وتحقيق هذه الوظيفة التي تعد من أولى المسئوليات التي ينبغي أن تقوم بها فالأذن لا تخطى سماع الألفاظ السوقية والبديئة كما أن العين لا تخطئ الوقوع في الأخطاء اللغوية الفاحشة، وضعف القدرة على التعبير تحدثا وكتابة، بل إن مهارة الاستماع أصيبت بالصم بسبب فقدان الحوار الجاد والمنظم، وغلبة الفوضى في النقاش وكثرة المقاطعة للمتحدث.

وربما هذا يفسر لنا ما نشاهده في الاجتماعات وعلى شاشة التلفاز من جانب البعض وعلى أعلى المستويات العلمية الفكرية من مقاطعات وارتفاع صوت يفقد المستمع متابعة الحوار، ويفقد المتحدث إمكانية طرح أفكاره، ويفقد الجميع التقدير والاحترام.

إن السبب في كل هذا عمليات التنشئة- منذ الصغر- في المدرسة والأسرة حيث لم يكتسب الفرد منذ نعومة أظفاره آداب الحديث وأساسيات الحوار.

5- ولنبقى داخل المدرسة ونحاول أن نلقى نظرة على منهج اللغة العربية وعلاقته بالمناهج الأخرى إنها تعمل كجزر منفصلة، لا علاقات ولا تفاعلات بينها. وليس ثمة رابط سوى الجدول المدرسي الذي يعلن للتلاميذ والمعلمين، ومن منطلق النظرة الدونية للغة العربية، يتم التنازل عن بعض حصصها للمقررات الأخرى. في حين أنه بإمكان أن يكون في منهج اللغة العربية، من الاتساع بما يخدم هذه المقررات للمقررات الأخرى. في حين أنه بإمكان أن يكون في منهج اللغة العربية من الاتساع بما يخدم هذه المقررات خاة في موضوعات القراءة والتعبير، وبالمثل يمكن أن تخدم هذه المقررات منهج اللغة العربية بالحرص على استخدامها في الموضوعات التي تعالجها ما يعطي نوعا من التفاعل والتكامل بين مختلف المقررات الدراسية.

أما بخصوص منهج اللغة العربية نفسه وطرائق تدريسه فبالرغم من التوصيات التي صدرت منذ أن عرفت التربية الحديثة طريقها للتعليم المصري وكلها تؤكد على ضرورة التكامل بين فروع اللغة العربية نفسه وطرائق تدريسه فبالرغم من التوصيات التي صدرت منذ أن عرفت التربية الحديثة طريقها للتعليم المصري وكلها تؤكد على ضرورة التكامل بين فروع اللغة العربية موضوعا وطريقه فإن هذه الفروع ما تزال يتم وضعها وتدريسها بطريقة تجزيئية تقليدية تفقد الآداء اللغوي أخص خصائصه وهو التكامل.

إن هناك تفاعلا كيماويا بين عناصر ومكونات الأداء اللغوي: لفظا ومعنى، نحوا وصرفا، شكلا ومضمونا، وهذا التفاعل لابد أن يجد طريقة إلي منهج اللغة العربية وطرائق تدريسها.

هذا من ناحية، من ناحية أخرى فإنه بالرغم من توصيات المؤسسات المعنية بالتخطيط للعملية التعليمية، ومن إجراء المسابقات ورصد المكافآت لإعداد هذا المنهج واختيار النماذج والموضوعات التي تغطية إلا أنه ما يزال يتم اختيار النماذج والموضوعات التقليدية البعيدة تماما إيقاعات العصر، واهتمامات التلاميذ، بل ويتم توزيعها وتدريسها بطريقة تتنافي وطبيعة المراحل العمرية مما يجعل التلاميذ ينفرون منها ولا يجدون مفرا من الحفظ

ضمانا للنجاح والحصول على الدرجات- والذي تكرسه الامتحانات، وطرائق التدريس والكتب الخارجية والدروس الخاصة.

6- وهذا ينقلنا إلي دور بعض فنيات اللغة العربية في تزايد حدة الأزمة. ونخص بالذكر الإملاء والنحو العربي.

- فثمة شكوى من قواعد الإملاء في الكتابة العربية، وصعوبة الكتابة بها، مع العلم بأن لكل لغة قواعدها الإملائية، وثمة لغات أصعب بكثير من اللغة العربية في هذا المجال- والرأي عندنا أن الصعوبة في أتباع قواعد الإملاء هو أننا لم نهتم بتعليمها والتدريب عليها منذ الصغر، كما أهملنا مراعاة القواعد الإملائية وقواعد الحظ في كتابات التلاميذ. وانظر جيل الكبار الذين تدربوا على هذه الأمور منذ نعومة أظافرهم، إنك ستجد الحظ جميلا، والقواعد الإملائية مرعية.

- أما النحو العربي فقد نال من الهجوم عليه أكثر مما ناله أي فرع آخر من فروع اللغة، بل يرى بعض المتخصصين في اللغة العربية ممن تعد بضاعتهم الأساسية، ومصدر رزقهم أن النحو العربي أس البلاء والسبب الرئيس في تزايد حدة الأزمة. ولا تفسير لنا هذا الموقف سوى أنه من مجاراة الخطاب السائد الداعي للعصرية والحداثة واللجوء إلي السهل بدلاً من تجشم الصعب، مثل هذه الأمور وإن كانت مقبولة في بعض الحالات إلا أنها مرفوضة وبشدة إذا كان الأمر يتعلق بالثوابت، وبالأسس والقواعد.

إن لكل لغة من لغات العالم قواعدها النحوية والصرفية التي تتعلق ببنيتها وتركيبها، وتحدد معناها. وتعد هذه القواعد- على حد قول أحد الغيورين على اللغة العربية- بمثابة الهيكل العظمي الذي يحدد شكل اللغة، فهي كالأساس للبناء وبدونه يتحول إلي كومة من التراب.

وتختص اللغة العربية من بين لغات العالم بخصائص معينة، يأتي الضبط على قمتها، وبدونه لا يمكن فهم معنى الكلمة، أو تحديد موقعها في الجملة، وبإهماله يتحول القاتل إلي مقتول، والمقتول إلي قاتل، إن ثمة علاقة وثيقة بين ضبط الكلمة ومعناها.

ومن القواعد الأصولية المعروفة في فقة النحو العربي(إن الإعراب فرع المعنى)

وإذا كان البعض يرى أن قواعد النحو صعبة على التلاميذ فليس أكثر صعوبة من النظريات في العلوم والرياضيات. بل وربما تكون قواعد اللغة أسهل من هذه النظريات، وإنما الذي أوجد الشعور بالصعوبة من هذه القواعد إنما هي النظرة الدونية للعربية وقلة الاهتمام بمراعاتها، وإهمال تعلمها والتدريب عليها. إنه في اختيار نوعية القواعد النحوية المفيدة فائدة مباشرة غي الأداء اللغوي، والتي يجب على التلاميذ الإلمام بها، وتلك التي يجب أن تترك لأهل الاختصاص.

إنه في طريقة التدريس لقواعد النحو، ووضعها بالطريقة المحايدة فلا هي تم وفق النظرة التكاملية للأداء اللغوي، ولا هي تتم وفق النظرة التخصصية في دراسة القواعد. وأخيرا وليس آخرا ما يحدث في تدريس قواعد اللغة للصغار، حيث يتم تدريسها بصورة منفرة تدفع التلاميذ لحفظ القاعدة دون إدراك وظيفتها وكيفية استخدامها.

باختصار ليس بالعيب في القواعد الإملائية والنحوية، وإنما في طرائق تدريسها، أما إلصاق الاتهام بها والدعوة إلي التخلص منها فإنه من باب التساهل المرفوض والمدفوع بدوافع غير موضوعية.

والآن نتساءل : ما الحل؟ أو بتعبير أكثر دقة كيف يمكن التخفيف من حدة هذه الأزمة؟ ليس في تخطيطنا لهذا المقال طرح حلول وإنما كان التركيز على التحليل والتشخيص، عملا بمقولة(التشخيص نصف العلاج) إن لم يكن العلاج كله في حالة التشخيص السليم.

ويتبين لنا: أن الحل أو التخفيف من حدة الأزمة لا يمكن التوصل إليه إلا من خلال:

1- الدراسة العلمية المنظمة لواقع اللغة العربية ولدى مختلف الشرائح والفئات، ومختلف اللهجات، والأساليب والتراكيب المستخدمة في الطبقات الاجتماعية والمؤسسات المختلفة، ووسائل الإعلام، وتلك التي تستخدم في قاع المجتمع، ودراسة الصعوبات والمشكلات التي تواجه اللغة العربية سواء من داخلها أو من الظروف المحيطة بها.

2- التخطيط الدقيق والمنظم والقائم على نتاج المعرفة العلمية، ونتائج العلوم المختلفة وفق رؤية كلية شاملة ومستقبلية حتى يمكن التشخيص والتفسير الدقيق للظواهر اللغوية وللمشكلات والصعوبات المتوقع

حدوثها، ومحاولة الإفادة من كل ما هـو متـاح مـن لهجـات وأسـاليب ومفـردات في إطـار القواعد والأسس الثابتة للغة العربية.

3- وضع خطة قريبة المدى وأخرى بعيدة المدى لتنمية اللغة العربية والنهوض بها بحيث تركز الخطة قريبة المدى على كيفية تعلم اللغة العربية واكتساب مهاراتها والقدر والنوعيـة اللازمة من فروع اللغة لتحقيـق هـذا الهـدف. أمـا الخطـة بعيـدة المـدى فتتعلـق بالأبعـاد المجتمعية والثقافية المرتبطة بها.

4- أن يتم تناول قضية اللغة العربية والتخفيف من حدة الأزمة التي تعاني منهـا والعمـل على تنميتها بشكل مؤسسي منظم وفي إطار قومي تشارك فيه مختلف الهيئات والمؤسسات، ولا شك في أن المساندة السياسية ذات أهمية قصوى في تحقيق هذا الهدف القومي.

فالقضية هي في الأساس قضية مجتمعية، وإذا كان للغة العربية من الداخل دورها فهو دور ثانوي ومحد- للغاية ويرجع في معظمة لمناهجها وطرائق تدريسها في المؤسسـات التعليميـة حيث أن الظروف والعوامل الخارجية المحيطة هي السبب الرئيسي في إحداث الأزمة وتزايـد حدتها. وبالتالي لابد أن يكون العلاج مجتمعيا فالأزمة أكـبر مـن أن يتـولى أمرهـا شـخص أو هيئة أو مؤسسة معينة. ولن يتحقق هذا إلا إذا وضعنا في الاعتبار أن قضـية اللغـة العربيـة هي بالدرجة الأولى قضية قومية ذات أبعاد استراتيجية هامة تتعلق بكيان الأمة ووجودهـا، إنها باختصار ثابتة الثوابت العربية والعروة الوثقى بين شعوبها، وما يحدث لها نـذير خطـر على وجود هذه الشعوب.

<u>رابعاً</u>:- عن اللغة العربية بل "الأزمة أبعد من أى نظام تعليمى" [*] فى تعقيبـه عـلى مقـال "العربية الحائرة بين اللغوي ين والتربويين للاستاذ محمد الصاوى- كتب د./ مصطفى رجـب مقالا- منشورا على هذه الصفحة بتاريخ 2000/8/2م يرى فيه أن "أزمة اللغة العربية" هـى "أزمة نظام تربوى (تعليمى) بلا فلسفة". وتواصلا للحوار نطرح بعض الملاحظات، وتـتلخص فى الآتـى:

(*) مقال منشور بجريدة الأهرام بتاريخ 2003/8/23 تحـت عنـوان "عـن العربيـة الحـائرة بـين اللغـويين والتربويين بل الأزمة أبعد من أى نظام تعليمى.

1- إن اعتبار "أزمة النظام التعليمى" هى السبب فى وجود "أزمة اللغة العربية" إنما يتطلب تحليلا علميا موضوعيا- وهادئا- لأبعاد أزمة هذا النظام، والظروف التاريخية والثقافية والمجتمعية المرتبطة بها؛ لاستخلاص أهم المعطيات ذات الارتباط الوثيق بأزمة اللغة العربية. وفى الوقت نفسه يتطلب الطرح الموضوعى للقضية تناول الجهود التى تبذل فى هذا المجال، ونقدها وفق رؤية موضوعية أبعد عمقا، واتساعا. حتى يمكن التوصل إلى نتائج وأحكام تتميز بالدقة والموضوعية. وما عدا ذلك لن يفيد القضية شيئا، ولن يساهم فى حل الأزمة، بل يزيدها غموضا، ويغرقنا فى الذاتية، ويخرج بنا عن دائرة الحوار العلمى الجاد.

2- إنه من الصعب علميا وموضوعيا - الوقوف عند مرحلة تاريخية معينة، من تاريخ التعليم المصرى، ونعتبرها المسئولة عن إحداث أزمة اللغة العربية؛ فأزمة تدريسها، والاستخدام السئ لها فى التعامل اليومى والحياتى ليس وليد اليوم، إنما يمتد بجذوره إلى الماضى البعيد، وتشكل الأزمة تركة مثقلة ما يزال يعانى منها نظامنا التعليمى حتى اليوم. وهذا ما يحاول القائمون على أمر التعليم التغلب عليه، من خلال عمليات التطوير المكثفة التى لم يشهد التعليم المصرى مثيلا لها من قبل. هذه حقيقة لا يمكن إنكارها، أو تجاهلها، ولابد من الاعتراف بها، سواء اختلفنا أو اتفقنا مع توجهات القائمين بها، أو على أسلوب أو إجراء معين من الاجراءات التى تتخذ فى هذا الصدد.

3- إن "اللغة"- كما هو معروف- ظاهرة اجتماعية، وهى بهذا الوصف لا يمكن تفسيرها، أو تحديد أزمتها بعامل واحد يمكن ردها إليه؛ فنظرية العامل الواحد- كما هو مستقر فى الفقه الاجتماعى- لم تعد بصالحة، ولا يمكن الوثق بها، وإنما هناك نظرية "العوامل المتعددة المتداخلة" ، التى ينبغى العمل بها فى تفسير الظواهر الاجتماعية؛ ومن ثم فإنه من الصعب- بل من غير المقبول علميا- اختزال أزمة اللغة العربية" فى عامل واحد، وهو التعليم.

صحيح يشكل النظام التعليمى أحد العوامل- والهامة جدا- فى إحداث هذه الأزمة. لكنه بالتأكيد ليس بالعامل الوحيد، وإنما هناك عوامل أخرى لا تقل عن

التعليم أهمية- إن لم تتفوق عليه- فى تزايد حدتها. ويأتى فى مقدمة هذه العوامل "المجتمع"، وأسلوبه فى التعامل مع اللغة العربية.

إنه مسئول- وبدرجة كبيرة- عن وجود هذه الأزمة، وبالتالى لابد أن يكون العلاج مجتمعيا؛ لأنها أكبر من أن يتولى أمرها شخص معين، أو مؤسسة أو نظام تعليمى معين.

ولن يتحقق هذا إلا إذا وضعنا فى الاعتبار أن "قضية اللغة العربية" هى بالدرجة الأولى قضية قومية تتعلق بكيان الأمة ووجودها.

إن للغة- كما هو معروف- عناصرها ومكوناتها المتشابكة المتداخلة، التى تجعل من الصعب التعامل مع إحداها دون الأخرى. ولقد غاب عنا- ونحن نتعامل مع أزمة اللغة العربية- أن هناك تكاملا وتفاعلا "كيميائيا" بين عناصر ومكونات الأداء اللغوى: لفظا ومعنى، شكلا ومضمونها، نحو وصرفا، بلاغة وأدبا، وغيرها من عناصر الأداء اللغوى، الذى يتميز بالتنوع والثراء، ويتسع ليشمل مختلف جوانب الحياة. ومن ثم فإنه ليس فى صالح اللغة العربية، اختزال أزمتها فى مسألة "القواعد النحوية والصرفية.

وحتى لا يفهمنا الآخرون خطأ نقول: إنه لابد من توافر هذه القواعد لضمان سلامة الأداء اللغوى، فلكل لغة من لغات العالم قواعدها النحوية والصرفية التى تتعلق ببنيتها وتراكيبها، وتحدد معناها، وهذه القواعد تعد- على حد تعبير أحد اللغويين- بمثابة الهيكل العظمى الذى يقوم عليه الجسم، ويحدد الشكل، وبدونه يتحول هذا الجسم إلى كومة من التراب. لكن وفى المقابل لا يمكن لهذا الجسم أن يتحرك، ويؤدى وظائفه بدون مكوناته وعناصره الأخرى الضرورية التى تبعث فيه الحياة، وتساعده على التواصل، وقيام اللغة بالوظائف الاجتماعية والثقافية المنوطة بها.

لهذا نجد أن اختزال أزمة اللغة العربية فى مسألة "القواعد النحوية والصرفية" يعد من قبيل التبسيط المخل لها ، ولا يساعد فى العمل على الحد منها.

بل إن هذا الاختزال بشكل أحد جوانب الأزمة، والتركيز عليه هو من مظاهر قصور معرفتنا بلغتنا، ويتمثل- كما يقول المفكر المعلوماتى العربى نبيل على- فى عدم إلمام الكثير منا بالجوانب العديدة لاشكالية اللغة، حيث يقتصر الاهتمام- فى أغلب الأحوال- على الجوانب التى تعيش على الأطراف

الهامشية للأزمة، ويتمثل- على حد قوله- فى قصور العتاد المعرفى لمعظم منظرينا اللغويين ، والقطيعة المعرفية التى يقيمها البعض لدينا على اختلاف ميولهم الفكرية مع التوجهات الفلسفية الحديثة، التى تولى اهتماما شديدا بأمور اللغة تنظيرا واستخداما، وتوجب الإلمام بحصادها النظرى الهائل على صعيد اللغة، خاصة فى غياب تنظير لغوى عربى حديث.

إن اللغة باتت تحتل موقعا متميزا- بل وفريدا- على خريطة المعرفة الإنسانية، لعلاقتها الوطيدة مع مختلف فروع هذه المعرفة، إنها- على حد تعبير نبيل على- قمة العلوم الانسانية، ورفيقة العلوم الطبيعية، وركيزة الفلسفة، ورابطة عقد الفنون، ومحور تكنولوجيا المعلومات، وهندسة معرفتها، ولغات برمجتها.

وهذا هو التحدى الحقيقى الذى ينبغى أن نتصدى له، ونعمل مخلصين جادين على تحديد موقع لغتنا العربية على خريطة المعرفة الإنسانية، بدلا من تشتيت جهودنا فى البحث عن إضافة أو حذف باب من أبواب النحو أو الصرف فى مناهجنا الدراسية، بوهم أن فى هذا الحل السحرى للارتقاء بلغتنا العربية والتغلب على الأزمة الحادة التى تعانى منها.

باختصار: من الصعب- بل من غير المقبول علميا- اعتبار أزمة اللغة العربية أزمة نظام تعليمى فحسب، إنما هى أزمة تتداخل فيها العديد من العوامل، أكاديمية ومعرفية، علمية، وتعليمية، ثقافية ومجتمعية. ومن ثم فإن الكل مسئول عن وجود هذه الأزمة، وعلى الجميع تقع مسئولية التغلب عليها أو على الأقل الحد منها.

<u>خامساً</u>: الهندسة اللغوية.......وتنمية : (العربية)(*)

لنتجاوز- ولو مؤقتا- الإشارة إلي أن هناك أزمة تعاني منها فعلا اللغة العربية، فالأزمة موجودة، والأسباب تكاد تكون معروفة، وتبقى الحركة ويبقى الفعل لمواجهة هذه الأزمة.

ولنتجاوز- أيضا- تناول القضايا التي تعلق باللغة: بنسبة وتراكيبا، تدريسا وتعليما، فهناك أهل التخصص، من هم بها أحل وأجدر في تناولها.

(*) مقال منشور بصحيفة الأهرام: (صفحة ثقافة الجمعة) 1997/9/12.

ويبقى لنا أن نتوجه مباشرة- في هذا المقال- إلي قضية أكثر شمولا، وأبعد مدى: قضية تنمية اللغة العربية، والتخطيط بها، شأنها في ذلك شأن كل العمليات التنموية، حفاظا على الهوية، والذات القومية.

فاللغة ليست مجرد أداة للاتصال، أو وسيلة إرسال واستقبال، أو دعاء للفكر، كما يقولون، وإنما اللغة هي الأمة ذاتا وكيانا، استمرارية ووجودا، وأن النهضة في حضارة أي أمة هي نهضة في لغتها.

كما أن اللغة- في الحقيقة والواقع- قضية أمن قومي، وعمق استراتيجي هام بالمفهوم الواسع الشامل لقضية الأمن والعمق الاستراتيجي.

لهذا ولغيره يأتي التأكيد على أهمية الحفاظ على اللغة، والعمل على تنميتها، وتطويرها على أسس ثابتة تحفظ لها مقوماتها الأساسية، وفي الوقت نفسه تعمل على مواكبة ما يحيط بها من تطورات وتغيرات، فكما أن اللغة ثوابتها والدعائم التي تقوم عليها فإنه لابد أن تكون من المرونة الكافية لاستيعاب ما حولها، بدلا من أن يستوعبها ما حولها فتضيع، وتضيع معها الأمة.

إن اللغات القومية، خاصة في دول العالم النامي والمتخلف تواجه التحديات خطيرة، وثورة اتصال واسعو عميقة، بل تواجه ما يفرضه العالم المتقدم من أنظمة اقتصادية(اتفاقية الجات مثلا التي تحمل أبعاد افتصادية وثقافية وسياسية خطيرة بالنسبة لدول الجنوب) بل أن النظام العالمي الجديد له آثاره وتداعياته على قضية اللغات القومية في هذه الدول.

ومن ثم فإننا إذا كنات نحرص على إقامة نظم سياسية واقتصادية واجتماعية، ونحرص على إقامة نظام تعليمي لمواجهة تحديات القرن القادم، فمن الواجب ايضا التخطيط لتنمية اللغة العربية حتى تكون قادرة على مواجهة هذه التحديات، وهذه الدعوة هي غاية ما نهدف إليه من وراء كتابة هذا المقال: الذي يحمل عنوان: التخطيط والهندسة اللغوية لتنمية اللغة العربية، ونقصد من وراء هذه المصطلحات ذات الدلالة العميقة القيام بالإجراءات التالية:

1- الدراسة العلمية المنظمة لواقع اللغة العربية، ولدى مختلف الشرائح والفئات ومختلف اللهجات، والأساليب والتراكيب المستخدمة لدى الطبقات الاجتماعية والمؤسسات المختلفة، ولدى المثقفين والجمهور،

وتلك التي تستخدم في قاع المجتمع، ودراسة الصعوبات والمشكلات سواء من داخل اللغة نفسها أو من خلال الظروف المحيطة بها.

2- التخطيط الدقيق والمنظم، القائم على استخدام وتطبيق المعرفة العالمية، ونتائج العلوم المختلفة، وفق رؤية كلية شاملة ومستقبلية حتى يمكن التشخيص والتفسير الدقيق، والتحكم في عمليات تنمية اللغة العربية، وتحديد نوعية هذه التنمية، والتغلب على المشكلات المتوقع حدوثها، ومحاولة الإفادة من كل ما هو متاح من لهجات وأساليب ومفردات في إطار القواعد والأسس الثابتة للغة العربية.

3- إمكانية وضع خطة قريبة المدى، وأخرى بعيدة المدى لتنمية اللغة العربية، حيث تركز قريبة المدى على كيفية تعلم اللغعة واكتساب مهاراتها والقدر والنوعية اللازمة من فروع اللغة لتحقيق هذا الهدف، باختصار كل ما يتعلق بالمشكلات الجزئية المحدودة المرتبطة بتعلم وتعليم اللغة على مستوى التعليم الرسمي.

4- ومن الأهمية بمكان أن تأخذ عمليات تنمية اللغة العربية شكلا مؤسيا منظما، وصبغة قومية تشارك فيها مختلف المؤسسات والهيئات ولا شك في أن المساندة السياسية والعلمية والمجتمعية ذات أهمية قصوى في تحقيق هذا الغرض القومي، تنمية اللغة العربية.

سادساً:- اللغة العربية ومجتمع المعرفة(*)

في الوقت الذي نري فيه بعض المثقفين يتخلون عن دورهم النضالي في الحفاظ على الهوية، والدفاع عن ثوابت الأمة، بل نرى من المحسوسين عليها من يهاجم هذه الثوابت، ويمهد لهيمنة وسيطرة ثقافة القطب الواحد في عالمنا المعاصر- في هذا الوقت الذي نري فيه هذا وذاك، نجد من يدافع عنها لا بالشعارات الجوفاء، أو المبررات الساذجة، وإنما بالحقائق العملية، وبلغة العصر، وفي صمت، ومن قبل ومن بعد بإيمان ثابت واعتقاد راسخ في أهمية هذه الثوابت وضرورة تفعيلها في عصر التحديات، عصر تكنولوجيا المعلومات والاتصالات. في مقدمة هؤلاء الخبير المعلوماتى، والعالم الفذ، مهندس الطيران نبيل على، الذي لا يقل إبداعه في مجال الثقافة واللغة عن

(*) مقال منشور بجريدة الأهرام في 2004/2/12

إبداعه في هندسة الطيران(تخصصه الدقيق الذي نال فيه درجة الدكتوراه عام 1971).

فمنذ ثلاثة عشر عاما تخصص في بحوث اللغويات الحاسوبية، بهدف تطبيق أساليب الذكاء الاصطناعي على معالجة اللغة العربية بالكومبيوتر. كما أنه وضع أول كتاب في المكتبة العربية يتناول قضية اللغة العربية والحاسوب وهو مؤلف كتاب العرب وعصر المعلومات(1994)، بالإضافة إلي هذه الإبداعات وغيرها كانت الثقافة العربية وعصر المعلومات: رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي(2001)، وفي هذه الإبداعات وغيرها كانت الثقافة واللغة العربية شغله الشاغل وهمه الأكبر، وإن حظيت الأخيرة باهتمام خاص في أحداث إصداراته اللغة العربية وتكنولوجيا المعلومات(2003).

وهنا نقول: إن هذه النقلة النوعية في سيرة نبيل على العلمية تضعنا ولا شك أمام شخصية مثيرة- ليس فقط للإعجاب- وإنما للتقدير والإكبار، فلقد استطاع وهو مهندس الطيران، أن يلحق بنا- في معالجته لقضية الثقافة واللغة العربية- إلي آفاق أرحب وأبعد بكثير من تلك المعالجات التقليدية قصيرة النظر، ضيقة الأفق، مما يجعلك- وأنت تقرأ أو تسمع له- تشعر أنك لست أمام مهندس في الطيران، وإنما خبير متخصص في الثقافة، وفي أدق خصائص اللغة العربية وفنونها: نحوا وصرفا، بلا لغة وبيانا، علما وفقها، أسلوبا وفكرا، وفي الجملة شكلا ومضمونا، مما يبرر لنا أن نطلق عليه مهندس اللغة العربية في عصر تكنولوجيا المعلومات والاتصالات. ولن نطيل في بيان اجتهاداته الإبداعية في مجال اللغة العربية، فقد غطتها العديد من مؤلفاته ودراساته، ونكتفي هنا بالإشارة إلي ما جاء في ورقة العمل القيمة، التي ألقاها في الندوة الفكرية، التي عقدتها كلية الاقتصاد والعلوم السياسية لمناقشة العدد الثاني من تقرير التنمية الإنسانية، الذي يحمل عنوان مجتمع المعرفة، وحضرها نخبة من المهمومين بقضايا وطنهم وأمتهم العربية، وكان لكاتب هذه السطور شرف الدعوة لحضور هذه الندوة. وجاء أفكار ورؤى نبيل على حول اللغة العربية ومجتمع المعرفة، لتزيد من ثراء وخصوبة وحرارة المناقشة.

يستهل ورقة العمل بمقدمة تكشف عن أهمية اللغة، ودورها المتعاظم في مجتمع المعرفة لاعتبارات وعوامل عديدة، منها:

- محورية الثقافة، التي لم تعد مجرد بنية فوقية، أو إحدى العناصر المكونة لمنظومة المجتمع، وإنما المحور الأساسي الذي تدور في فلكة عملية التنمية المجتمعية الشاملة.

- محورية اللغة في منظومة الثقافة، لتعاظم الدور الذي تلعبه في جميع العناصر المكونة لهذه المنظومة في مجتمع المعرفة.

- محورية معالجتها آليا بواسطة الكومبيوتر في تكنولوجيا المعلومات، فاللغة هي المنهل الطبيعي الذي نستقي منه هذه التكنولوجيا أسس ذكائها الاصطناعي، وقواعد معارفها، وهي التي تكسب أجيال الإنسان الآلي القدرة عل محاكاة الوظائف البشرية.

- تعاظم أهمية اللغة على خريطة المعرفة الإنسانية، حيث ازدادت علاقتها وثوقا مع مختلف أنواع هذه المعرفة، ليشمل مجتمع التعلم مدى الحياة- ليس فقط للبشر- وإنما أيضا للآلات والنظم والمؤسسات، بل للخلايا والفيروسات. وكل هذا يرتكز في الأساس على اللغة : إنسانية كانت أم برمجية اصطناعية.

- احتياج مجتمع المعرفة دوما إلي التواصل الأوسع نطاقا والأكثر تنوعا، بما يفرض تأصيل العلاقة بين اللغة- بصفتها النسق الرمزي المحوري- وبين الانساق الرمزية الأخرى.

- تعاظم الدور الذي تلعبه اللغة على مختلف الأصعدة والمستويات، خاصة بعد أن أصبحت من أشد الأسلحة الأيديولوجية ضراوة، وبعد أن فرضت قوى السياسة والاقتصاد سيطرتها على أجهزة الإعلام، وعلى صنع الثقافة بوجه عام.

- وباتت هذه القوى- ومن خلال اللغة- تعمل على توليد خطاب يخدم مصالحها، ويتحكم في أقدار الأفراد والجامعات، والدول والمجتمعات.

لهذه العوامل، ولغيرها، يتعاظم دور اللغة في مجتمع المعرفة، مما يتطلب نظرة أعمق، وأشمل لمنظومة اللغة العربية بعناصرها الداخلية، وعلاقاتها الخارجية التي تربطها بالمنظومات المجتمعية الأخرى.

ويقول نبيل على: إن العالم العربي في مسعاه لدخول مجتمع المعرفة يواجه تحديات قاسية في كل الميادين والمجالات، وعلى كل الجبهات خاصة جبهة اللغة، حيث يعيش أزمة لغوية طاحنة على جميع الأصعدة: تنظير

وتعليما، نحوا ومعجما، استخداما وتوثيقا، إبـداعها ونقـدا، وجـاءت تكنولوجيـا المعلومـات، لتضيف إلي خليط هذه الأزمة عنصرا تكنولوجيا متعلقا بمعالجة اللغة العربية آليا، بواسـطة الكومبيوتر، مما يجعل منها الأزمة الأم، لشدة خطورتها وتعقيدها، إذا ما قورنت بغيرها من الأزمات التي تواجهها الأمة العربية، وهي على عتبة نقلة نوعية حادة، ولا فكاك مـن دائـرة هذه الأزمة إلا باستغلال الفرص العديـدة التـي يتيحهـا مجتمـع المعرفـة، لتفجـير الطاقـات الكامنـة في اللغـة العربيـة: ابتـداء مـن آليـات تكـوين الكلـمات اشـتقاقا وتصريفـا ومزجـا، وامتدادا إلي أساليب صياغة أنواع الخطاب المختلفة: علمية كانت إم إنسـانية، أدبيـة. ومـن هذه الفرص- كما يقول نبيل على:

- الثورة العلمية التي تشهدها اللغويات الحديثة وما أفرزتـه مـن عشرات المنـاهج التـي يمكن من خلالها تناول الكثـير مـن إشـكاليات اللغـة العربيـة، التـي استعصـت عـلى الحـل، كـالمنهج الأنثروبولـوجي، والصـوري: الريـاضي والمنطقـي، والسـلوكي الإمبريقـي، والتوليـدي. وغيرها من المناهج العلميـة التـي يمكـن الإفـادة منهـا في إصـلاح لغتنـا العربيـة، وتوظيفهـا لدخول مجتمع المعرفة.
- التطور التكنولوجي الهائل فيما يسـمى هندسـة اللغـة، القـادرة عـلى معالجـة النظـام اللغوي شديد التدخل والتعقيد.
- ما تزخر به شبكة الانترنت من فرص، يمكن استغلالها في تطوير مواقع مختلفـة لخدمـة اللغة العربية.
- استثمار التحالف غير المعلن بين الـدول غـير الناطقـة بالإنجليزيـة، مـن أجـل التصـدي لهيمنة هذه اللغة معلوماتيـا وإعلاميـا وترفيهيـا. وغيرهـا مـن الفـرص المتاحـة التـي يمكـن اغتنامها في تطوير اللغة العربية، وتعظيم دورها في مجتمع المعرفة.

كما أوضح نبيل على: علاقة اللغة العربية بمنظومة اكتساب المعرفة بمراحلها المختلفة، ابتداء من النفاذ إلي مصـادرها، وامتـدادا إلي نقلهـا واسـتيعابها، وتوظيفهـا، وتوليـد معـارف جديدة. وهذه العلاقة تتطلب- أول ما تتطلب- تحليلا دقيقا لعلاقة اللغـة العربيـة بـالفكر على كافة المستويات، وتوفير الآليات والوسائل المناسبة التي تمكنها من القيام بدورها في كل مرحلة من هذه المرحل، فمرحلة النفـاذ إلي مصـادر المعرفـة تتطلـب العديـد مـن الوسـائل

البرمجية لمعالجة النصوص العربية آليا: كالفهرسة والاستخلاص والتلخيص. ويتطلب نقل المعرفة واستيعابها تعريب التعليم في جميع المراحل التعليمية، بما فيها من التعليم العالي والجامعي، والمراجعة الجذرية لتعليم اللغة العربية، أما دور اللغة في توظيف المعرفة فإنه ينطلق في الأساس من منظور حل المشكلة الذي يتطلب بدوره دقة في تحديدها ووصفها والمقارنة المنهجية بين البدائل المطروحة لحلها. وبخصوص دور اللغة العربية في توليد المعرفة الجديدة فإنه يمكن أن يتعاظم من خلال دعم جهود البحث العلمي الحديث في المجالات العلمية المختلفة، وتشجيع الإبداع الفني والأدبي على اختلاف أنواعه وتوجيهاته.

وفي المحور الأخير من ورقة العمل يوضح نبيل على: علاقة اللغة العربية بالسياق المجتمعي، الذي تمارس فيه وظائفها المتعددة، حيث لا يمكن أن تؤتي جهود الإصلاح اللغوي ثمارها، أو قيام اللغة العربية بدورها في مجال مجتمع المعرفة دون تحليل دقيق لطبيعة التفاعل اللغوي- المجتمعي، وافتقار مسالكه على الصعيدين السياسي والاقتصادي الإقليمي والعالمي.

ويختم نبيل على أفكاره وتحليلاته بكلمات تكشف عن اعتزازه وإكباره للغته العربية، فكما يقول- وبحق- لقد اثبت هذه اللغة جدارتها على مر العصور، ويشهد تاريخ الفتح الإسلامي على سرعة انتشارها، واندماجها في بيئات لغوية متباينة، وأنها كانت أداة فعالة لنقل المعرفة، ومن ثم فإن من حقها أن تصبح لغة عالمية، خاصة وأنها- من منظور فقة اللغة- تتسم بالعديد من الخصائص الجوهرية، من أهمها: التوسط والتوازن اللغويين. كما انها تثبت- من منظور معالجة اللغات الإنسانية آليا بواسطة الكومبيوتر- جدارتها كلغة عالمية. كما أنها تثبت- من منظور معالجة اللغات الإنسانية آليا بواسطة الكومبيوتر- جدارتها كلغة عالمية، فبفضل توسطها اللغوي يسهل تطويع النماذج البرمجية المصممة للغة العربية، لتلبية مطالب اللغات الأخرى، وعلى رأسها الإنجليزية .

وأخيرا- وليس آخرا- يقول نبيل على: إن ثقافة مجتمع المعرفة تفرض علينا توطيد العلاقة بين اللغة العربية، واللغات العالمية، والتوسع في الدراسات اللغوية المقارنة والتقابلية. وضرورة إخضاع اللغة العربية للنظرية العامة للغة التي تدرج في إطارها جميع اللغات الإنسانية، انطلاقا من عالمية

الخطاب القرآني، وبالتالي عالمية لغته. بل إن هذه العالمية تفرض أن تكون اللغة العربية من أوائل اللغات التي تنضم إلي حظيرة العموم اللغوي العالمي.

هذه بعض أفكار ورؤى نبيل على التي تضمنتها ورقة العمل التي ألقاها في ندوة كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، وهي الأفكار والرؤي المبثوثة في العديد من كتبه ودراساته القيمة المتميزة. وكلها تؤكد – وكما سبق أن أشرنا- إنه بالفعل مهندس اللغة العربية في عصر تكنولوجيا المعلومات والاتصالات.

الفصـل الثالث

إشكالية الخطاب الديني في الثقافة العربية

يعد الخطاب الديني من أهم إشكاليات الثقافة العربيـة في الوقـت الحـاضر، وبـات يواجه بالعديد من الانتقادات لعجزه عن التعامل مـع تحـديات الـعصر ومسـتجدا تـه، وفي هذا الفصل نحاول إلقاء الضوء على هذه الإشكالية وذلك على الوجه التالي:

<u>أولاً</u>: هل نعيــش ردة فكـــرية؟

بالرغم من قسوة الظـروف التـي كانـت تعيشـها مصر في أواخـر القـرن التاسـع عشر وأوائل القرن العشرين، وما كانت تعانيه من جمود وتخلـف في كـل المجـالات، وعـلى كـل الجبهات مخاصمة جبهة الثقافة السائدة، وشيوع الخرافـات- إلا أن الأسـتاذ الإمـام الشـيخ محمـد عبـده(1226- 1323هـــ 1849- 1905م)، اسـتطاع أن يتغلـب عـلى كـل هـذه الظروف، ويشق طريقه إلي الإصلاح والتي كلفته حد الاتهام بالكفر أحيانا و الخيانة أحيانـا أخرى، ولكنها لم تنـل مـن عزمـه، بـل زادتـه قـوة ورسـوخاً، وثقـة في مشروعـه الإصـلاحي التنويري، حتى أستحق أن يوصـف بالعديـد مـن الصـفات التـي وضـعته في مقدمـة كبـار المفكرين الإصلاحيين المستنيرين، ومن أبـرز مجـددي الإسـلام في الـعصر الحـديث، وأعظـم العقـول التـي تـوفرت عـلى تحريـر العقـل المسـلم مـن قيـود الجمـود والتقليـد والبـدع والخرافات، وكما يقول محمد عمارة، هو أول من تكونت من حوله مدرسة فكرية متميـزة متجددة وممتدة. وكان له فضل تجديد أساليب الكتابة، والتفسير المنهجي المـنظم للقـرآن الكـريم، الـذي يصـفه أحـد المفكـرين الإسـلاميين- نقـلا عـن عـمارة- بالمنهـاج المعجـزة في التفسير: بيانا لهدى القرآن، وفهما لأسراره، وتوفيقا بين آيات الـلـه في القرآن وبـين آياتـه في الأكوان، فضلا عن معاركه الفكرية دفاعاً عن الإسلام والمسلمين بأسلوب علمي رصـين، كـما كانت له جهوده الاجتماعيـة والتربويـة، ولعـل في مشـاركته في تأسـيس الجمعيـة الخيريـة الإسلامية خير مثال، وهي الجمعية التي كان لها فضل نشر التعلـيم بـين جمـوع المصريـين دون تفرقة بين مسلم وغير مسلم. باختصار- وكما يقول سامي خشبة- كان للأسـتاذ الأمـام منهجيته العلمية المنظمة المستمدة من قراءاته الواعية للتراث، وللواقع الذي يعـيش فيـه،

ويتعامل معه فجاء فكره متسقا متكاملا، وجاءت دعوته صادقة وإصلاحاته مؤثرة، خاصة على جبهة الفكر الديني والمؤسسات الدينية.

وهنا نتساءل- ونحن نعيش في الألفية الثالثة- ماذا حدث لخطابنا الديني؟ إن سنن التغير والتطور تفرض التراكم في اتجاه التطوير، خاصة مع تغير الظروف، وتوافر الأدوات والوسائل التي هي في صالح التغيير والتطوير.

لكن يبدو- بل هو كذلك بالفعل- يعيش خطابنا الديني خارج سنن التغيير، ويرتد بنا إلي الوراء، ليس إلي فكر السلف في عصور ازدهاره، أو فكر المحدثين بتفتحه واستنارته، وإنما إلي عصور الجمود والتخلف ولم لا؟ وتطالعنا كل يوم- بل كل لحظة- وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، بعشرات الخرافات والخزعبلات، والأفكار الجامدة المتخلفة المنسوبة إلي الإسلام ظلما وبهتانا وتناول قضايا ومشكلات عنفا عليها الزمن، وأكل عليها الدهر، وشرب ناهيك عن ظاهرة الدعاة الذين باتوا يحتلون هذه الوسائل ويتصدون الندوات، ويعتلون المنابر بفتون، ويصدرون الأحكام والاجتهادات التي تصب في دائرة الخرافات والخزعبلات، والتي يتم بثها من خلال الفضائيات، الكتب والكاسيت، وتجد رواجا شديدا بين العامة والخاصة، بكل ما تنطوي عليه من تدمير للعقل، وهدم للشخصية السوية، وتكريس للتخلف، والمحصلة تهيئة المناخ والظروف المناسبة لتشكيل العقلية الجامدة المتخلفة غير القادرة على التعامل مع ما يحيط بها من تغيرات وتطورات، ومن ثم تعيش الاغتراب بكل أبعاده ومكوناته، اغترابا على التراث والمجتمع، وليس لها من خلاص سوى تدمير التراث والمجتمع، من خلال عمليات ترى فيها مثل هذه العقلية أنها استشهادية في حين وبكل المقاييس الدينية والإنسانية ليست إلا عمليات إرهابية تدميرية، ولا حل إلا بالتوجه كلية لعقلنة الفكر، وإنتاج خطاب ديني يرقى إلي مستوى ما نادى به الأستاذ الإمام منذ أكثر من مائة عام. نعم هناك العديد من الكتابات الإسلامية المتميزة لبعض المفكرين المستنيرين، لكن لا يستفيد منها سوى الخاصة، وربما قلة من العامة وتبقى الساحة مفتوحة للخرافة، ودعاة التخلف الذين يهيمنون على وسائل الإعلام ويستقطبون الشباب بأساليبهم ووسائلهم الخبيثة الماكرة والتي تفوق في تأثيرها كتابات واجتهادات المتخصصين المستنيرين.

ثانياً:- الدفاع عن الإسلام بمنطق الدبة التي قتلت صاحبها(*)

حبا وعشقا لصحابها، وإبعادا للضرر عنه، لم تجد الدبة الوفية "الغبية" سوى حجر ضخم تلقى به على وجهه، منعا للذباب الذي يتساقط عليه وهو نائم فلم تقتل الذباب، وإنما قتلت صاحبها، هذا المثل يعبر وبدقة عن حال بعض الذين يحاولون الدفاع عن الإسلام بأساليب تسئ إلي قيمه وأخلاقياته، ونبل رسالته، وسمو مقاصده. بل وتعمل على تعطيل وظائفه ودوره في النهضة والتقدم، أو الحكم عليه بصلاحيته لكل زمان ومكان يحدث هذا خاصة من جانب بعض أتباعه الذين يستميتون في إظهار حبهم له: شكلاً ولباساً، حديثاً وكلاماً، وأنهم الأحق بالدفاع عنه، حتى ولو كان بإلقاء القنابل والتفجيرات، أو تكفير المبدعين إن لم يكن قتل رموزهم، أو ممارسة الخرافات والخزعبلات، وإشاعة ثقافتها بين المؤمنين الطيبين، بدعوى أنها من الإسلام، وهو منها براء، بل إن من المسلمين- كما في قول لإمام الدعاة المجددين وزعيم الإصلاحيين الإسلاميين محمد عبده- من يحرص على السؤال على كل ما فيه فائدة له، ومحاولة البحث عنه للانتفاع له، وإنما لتحريمه على نفسه، وإلا لماذا يتساءل بعض الناس عن الحرام والحلال من الفنون، ولا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء، أو ما يسميه بعضهم أولياء وهم لا يملكون نفعا ولا ضرا، ومع ذلك لا يسألون عنهم، بل يخشونهم كخشية الله أو أشد. نقول هذا بمناسبة اعتقاد بعض المسلمين- إن لم يكن الكثرة منهم- بحرمة الصور والرسومات وغيرها، وأن الملائكة لا تدخل بيتا فيه شيء من هذا أو فيه كلب، ناهيك عن الاعتقاد بحرمة التماثيل كاملة أو ناقصة، ومما زاد الوضع سوءاً وقتامة تلك الفتاوى والأقوال التي صدرت في الماضي وما يزال يرددها بعض العلماء الأجلاء، ممن يحظون بكل الحب والتقدير لسابق فتواهم في أمور الدنيا والدين بقدر عال من الفهم، وحسن التقدير لمتغيرات العصر وتقلب أحواله- نقول الفتاوى والأقوال بحرمة التماثيل الكاملة، تحت مبرر مظنه الاعتقاد فيها، وتعظيمها كما كان عليه الوضع في الجاهلية الأولى.

(*) مقال منشور بجريدة روزاليوسف بتاريخ 2005/7/2

وفي هـذا الصـدد لـيس مـن حقنـا الخـوض في المسـائل الدينيـة، فلهـا أهلهـا والمتخصصون فيها، وهم بها أحق وأجدر، صحيح أن الساحة باتـت الآن مـلأي بمـن يـدعون القدرة عـلى الفتيـا عـلى القنـوات الفضـائية، ووسـائل الإعـلام المختلفـة، يفتـون ويـفسرون ويبررون الخرافات التي ابتلينا بها وبقائليها، وهـم الآن مـلء السـمع والـبصر، ويحظـون في وسائل الإعلام بمساحات لا يحظي بها العلماء والمفكرون.

نقول: إننا لن نخلع على أنفسنا عبادة المفتين في الدين، ولكن نستشهد في مسـائل تحريم الصور والتماثيل بما قاله إمام المجددين الشيخ محمد عبـده(1849-1905) وخلاصـة ما يراه إن أثر الجمال في النفس الذواقة يكون بانفعال أنفسنا من الجميل بهجة وإعجابا.

ويشبه الصناعات التي تنمتمي إلي الفنون من الرسوم والتماثيـل بالشـعر، فيقـول: إن الرسوم ضرب من الشعر يري ولا يسمع، والشعر ضرب من الرسم يسمع ولا يـري(انظـر: محمد عبده) الصور والتماثيـل الأعـمال الكاملـة للأمـام محمـد عبـده ص2 تحقيـق محمـد عمارة، 1980، ص 204-205). ويـفسر الحـديث النبـوي القائـل إن أشـد النـاس عـذابا يـوم القيامة المصورون بأن هذا الحديث جاء أيام الوثنية، وكانت الصور وقتها تتخـذ للهـو الـذي يبغضه الإسلام، وللتبرك الذي يحرمه أما في زماننا فيعـد تصـوير الأشـخاص بمثابـة الرسـوم في حواشي المصاحف وأوائل السور، ولم يمنعها أحد من العلماء(انظر المرجع السابق). كما يـري الشيخ الإمام أهمية المتاحف وضروريتها في إنماء الثقافة، وتوسيع الفكر مما تحويه من آثـار ونون، ومن تنوع أحوال الجماعات، وغيرها، مما يسـتحق منـه أن يسـمي المتـاحف بـديوان الهيئات والأحوال البشرية (انظر المرجع السابق ص 202-203).

هذا ما قالها الشيخ محمد عبده منذ ما يزيد عن مائة عام. وهنا يفرض التساؤل نفسـه في ظل ما نعيشه من أقوال وفتوى تعمل على تكسيف مواطن التحـريم وتهمـيش الحـلال مـع أن الحياة تتسع، وتتنوع، ويظهر فيها كل يوم بل كل لحظة الجديـد والجديـد، ولا يمكـن لاجتهـادات الماضي وتفسيراته استيعابها. نتساءل ألـيس الإسـلام صـالحا لكـل زمـان ومكـان، وبالتـالي لابـد مـن

الاجتهاد برؤية عصرية قادرة على توظيف هذه الصلاحية بما فيه خير العباد دينا ودنيا، أم إننا نعيش ردة فكرية؟

إن الإسلام يقوم على "النية" والقصد وصدق الاعتقاد، وإذا كان- كما يقول الإمام محمد عبده- إذا كان في الصور مظنة العبادة أو الاعتقاد فإن هذه "المظنة" لا تبرر تحريمها، وإلا قطعنا كل لسان بناء على مظنة الكذب، مع أنه يجوز أن يصدق ونقول، إنا إذا أخذ "المظنة" مقياسا لتحريم الأشياء أو تدميرها لجاز لنا أن نردم النيل لمظنة ارتكاب الفواحش على ضفافه، ونقطع الأشجار مظنة أن يستظل بظنها الأحبة والعشاق وقس على هذا كل شئون الحياة من حولنا وكل تكنولوجيا العصر الذي يظن منه ارتكاب المعاصي والآثام. هل يعقل أن يقال هذا من الإسلام الذي يعد "العقل" العقل مناط المسئولية ولا تكليف؟ هل وصل بنا الحال إلي هذا الوضع الذي يعود بنا إلي القرون الوسطى، بل إلي العصور البدائية؟ وهل لنا بعد ذلك أن نتساءل: لماذا يسئ الآخرون إلي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؟ ولماذا باتت صورة الإسلام مشوهة في الغرب؟ ألسنا شركاء في كل هذه المآسي؟ وأخيرا وليس أخرا- ألسنا في دفاعنا عن ديننا الحنيف أشبه بالدبة التي قتلت صاحبها؟.

حفظ الله إسلامنا من كل ما يسيئون إليه ليس فقط من أعدائه وإنما أيضا من أبنائه، وهذا هو البلاء بعينه وليس غيره.

<u>ثالثاً</u>- تجديد الخطاب الديني لمواجهة متطلبات الحياة المعاصرة[*]

لن نقف طويلا عند ما يردده غلاة العلمانيين والعقلانيين من أنه لا جدوي من الدين، أو أن لا يشكل أكثر من ظاهرة "لا عقلانية" مآلها- حتما- إلي الاندثار، وأن الحضارة التي صنعت الأقمار الصناعية، والمركبات الفضائية، والعقول الالكترونية ليست بحاجة- كما يدعون- إلي آلهة، وغيرها من الدعاوي غير القادرة على الصمود أمام حقائق العلم، ومعطيات الواقع، والتي تؤكد جميعها أهمية دور الدين في حياة المجتمعات والشعوب، وأنه من الثوابت التي لا يمكن إسقاطها من حياة الإنسان مهما كانت قوة العقل وجبروت العلم، وتقدم التكنولوجيا.

(*) مقال منشور بجريدة الجمهورية 2005/10/25 وأعيد نشره بجريدة روزاليوسف اليومية بتاريخ 2005/12/20.

بل ومن حق المتدينين أن يتشككوا في هذه الحضارة، وما ارتكبته- وترتكبه- من خطايا، وما أكثرها، ويطول شرحها، وقد تكفي الإشارة إلي ما يقوله استيورات لا تسلي- الاقتصادي البريطاني الشهير- من أننا نعيش عالما يعاني تآكلا وتراجعا في استقراره السياسي والاقتصادي، وتزيدا في هجرات لا تتوافر لها أسباب الحياة، ناهيك عن انتشار المجاعات والتدهور البيئي وتزايد حدة العنف والحروب المحلية والإقليمية العرقية والدينية، وتلك التي تشنها قوى الهيمنة والاستكبار، تحت دعاوي ومبررات واهية، ومعها تزايد الخراب والدمار، والإنفاق العسكري غير المسبوق، فتبددت الأحلام والآمال في عالم أفضل يعمه الرخاء والسلام، وأصبح المزاج الإنساني العام كئيبا منذرا بالانفجار والمزيد من الأخطار.

على أي حال، ومهما يمكن القول، فإن "الدين" في الحياة العربية والإسلامية يتغلغل فيها ويكمن في أعمق متعقبيه ويعيش فيهم بالوعي واللاوعي، ويمثل لهم رؤية كلية للحياة والموت، لا يمكن لرؤية أخرى أن تحل محلها. ويضاف للإسلام- دين الأغلبية- أنه يشكل المقوم والأساس للثقافة العربية والإسلامية، وللذات والهوية القومية. ولا محل فيها لفكر جديد بقادر على أن يتخطى الإسلام عقيدة وإطار وجود، وفي هذا الصدد يقول أحد عتاة الماركسية إن الإسلام يشكل ثورة أخلاقية وفكرية واجتماعية وثقافية في حياة المسلمين، وعلى أهل الديانات الأخرى التي تعيش بينهم أن يتقبلوا- وعن محبة- هذه الحقيقة، ويحرصوا عليها كأثمن شيء في وجودهم.

وهنا لابد أن نميز بين الإسلام "كدين منزل" وبينه "كفكر" وتاريخ وتراث وثقافة، وإنتاج بشر يفهمون العقيدة حسبما تتاح لهم من معرفة، ووفق ما يقومون به من أدوار في صنع تاريخهم وتشكيل ثقافتهم، والنهوض بمجتماعتهم، ومشاركتهم في بناء الحضارة الإنسانية، فالإسلام بهذا المعني- وعلى حد تعبير أحد الباحثين النابهين- يمكن أن يشكل حضارة كاملة، لكن- وفي الوقت نفسه- يمكن أن يتحول إلي تعصب، تخلف وجمود، وهذا كله مرهون "بفعل" أتباعه، فيزدهر حين ينشطون، ويتقدمون، ويضمحل وينزوي حين يقعدون ويتخلفون، أو ينقلبون إلي مواقف التبرير والدفاع ويستهلكون ما قدم السلف، ولا يضيفون جديدا.

وهنا بيت القصيد، فمنع التسليم بأن الإسلام بمبادئه وشرائعه، قيمه وأخلاقه يمثل منهلا خصبا للنهوض والبناء، بل ولعلاج أزمة القيم في عصرنا إلا أن هذا لا يتحقق بالتمني، ولا برفع الشعارات، أو بتكوين الخلايا السرية وغير السرية، أو عقد الاتفاقات والصفات مع الجهات والمنظمات المشبوهة، أو بالاستقواء بقوى الهيمنة والاستكبار، وإنما بالفعل، والعلم، وبالجهود البحثية الجادة، التي تتجاوز حدود الخطب والعظات، واقتراح حلول لمشكلات معاصرة بالإحالة إلي حلول مضي عليها الزمن، بل أكل عليها وشرب. وهذا يتطلب:

- وجود باحثين دينيين جدد وجادين قادرين على الجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا، من خلال دراسات دينية وعلمية حقيقية فلسفية واجتماعا، سياسة واقتصادا، إعلاما ومعلومات.

- المراجعة الشاملة لعلاقة الدين- إسلاميا وغير الإسلامي- بكل ما يحيط به ويتفاعل معه من منظومات ثقافية ومجتمعية واقتصادية وسياسية، وغرس العنصر الديني في كل هذه المنظومات بصورة أكثر علمية ومنهجية.

- إقامة حوار موضوعي علمي وجاد، بين علماء الدين والفكر الديني المستتير وبين معتقي الفكر العلماني، للقضاء على بؤر التعصب والتطرف الديني الذي لا يري في غيره من أهل الديانات الأخرى أو العلمانيين سوي الكفرة الملاحدة، وبالمثل القضاء على التطرف العلماني الذي لا يري في الدين إلا التخلف والرجعية، ولا في رجاله إلا الجهل والتعصب ولا في المتدينين إلا المتخلفين المخدوعين. إن مثل هذا الحوار ضروري وحتمي من أجل التقارب الفكري، وتوظيف الفكر- دينيا كان أم علمانيا- فيما هو أجدى وأنفع.

باختصار، إنه لا أمل لخطابنا الديني الراهن في مواجهة التحديات، المعاصرة، وما أكثرها، وأخطرها إلا بمراجعة شاملة لمختلف مفاهيمه وآلياته، ولشبكة العلاقات الكثيفة التي تربط الدين بمختلف المنظومات، في كل الميادين والمجالات وعلى كل الجبهات وبما يسمح له بتناول الأسئلة الملحة، والمشكلات والقضايا المستجدة، فلا وقت لدينا لنضيعه في تكرار المحاولات القديمة، وإنما على هذا الخطاب إن يجدد منطلقاته وأدواته، وأن يجعل من

الدين دافعا للتقدم لا عائقا، وإلا أعطى الفرصة للعابثين والمضللين والمتطرفين وأشباه العلميين- على اختلاف اتجاهتهم وأهدافهم- لملء الفراغ الفكري، ومن ثم نشر عبثهم، وضلالهم وسموهم، بين الشباب خاصة، والمحصلة لن تكون سوي المزيد من الإرهاب، والجمود والتعصب، والتخلف، أو المزيد من الإلحاد والإنكار لقيمة الدين، ودوره في الحياة. وساعتها لن يبقي الوضع على ما هو عليه، وإنما إلي الأسوأ، وهذا ما لا نقبله لأمة سادت العالم، وكانت يوما هي صانعة التاريخ والحضارة.

رابعاً: نحن فعلا- كما قال الرئيس - بحاجة إلي خطاب ديني مستنير

في خطابه عميق الدلالة، في احتفال مصر بليلة القدر، دعا الرئيس مبارك إلي ضرورة تبني خطاب ديني مستنير، يعي مشكلات المجتمع، ويتعامل معها، وينشد الإدراك الواعي بقيم الإسلام ومبادئه وتعاليمه وسامحته، ويقطع الطريق على محاولات الفتنة والوقيعة بين مسلمي مصر وأقباطها، ويحفظ لها استقرارها وسلامها الاجتماعي ووحدتها الوطنية. وناشد الدعاة وعلماء الدين القيام بمسئولياتهم الكبري تجاه دينهم ومجتمعهم من خلال تعلم الناس ما ينفعهم، وتبصير الشباب بأمور دينهم، وحثهم على المشاركة في بناء وظنهم، وأن الإسلام بقيمه ومبادئه السمحة يحرم إراقة الدماء، واستهداف الآمنين ودويهم، وليس من حق أي شخص أو جماعة احتكار الدين، أو التحدث باسمه، نيابة عن جموع المؤمنين. إلي أخر هذه الموضوعات المهمة التي طرحته الرئيس مبارك في خطابه. خاصة ونحن- على حد قوله- نعيش ظروفا إقليمية ودولية بالغة التعقيد، ونواجه تحديات غير مسبوقة تفرض علينا "وقفة مع الذات" نراجع فيها أنفسنا، والتعمق في جوهر الإسلام وتعاليمه وسماحته، ونصل ماضي الأمة بحاضرها ومستقبلها، ونستلهم ما أسهمت به الحضارة الإسلامية في تراث الإنسانية، ومن الوقفة نستمد العزم على مواجهة حاضر يموج بالتحديات، ومستقبل أشد تحديا وخطورة. وهنا نشير إلي أن ما تتضمنه خطاب الرئيس مبارك يحمل في طياته العديد من الأبعاد والدلالات، منها- على سبيل المثال:-

1- إن خطابنا الديني- الإسلامي منه والمسيحي- بحاجة إلي المراجعة الجذرية، كشفا لجوهر الدين وغاياته ومبادئه وأخلاقياته التي تنشد

المحبة والتسامح بين بني البشر، وغرس القيم الإنسانية النبيلة، التي تحفظ للإنسان قيمته وأهميته، وتحثه على العمل المنتج، فالدين قوة روحية هائلة، دافعة لبذل أقصى الجهد من أجل البناء والتعمير، النهضة والتقدم.

2- إن خطابنا الديني- الإسلامي والمسيحي- لم يصل بعد إلي المستوى الذي يمكنه من تحقيق هذه الغايات والأهداف النبيلة والرسالة السابقة، وذلك بسبب ضيق الأفق، أو الانحراف بغاياته وأهدافه ورسالته لتحقيق أمور الدين منها، فهناك من يسعي إلي تشويه الدين وقيمه ومبادئه بارتكابه ما يخل بها ويثير الأحقاد والفتن، ويعطل أغراضها، وأهدافها السامية.

3- إن الشعب المصري بكل أبنائه من المسلمين والأقباط، وبكل تياراته وأطيافه يرفض ويستنكر الخروج على وحدة المجتمع وتماسكه، وإثارة الفتن بين أبنائه، واستغلال الدين لتحقيق مصالح عقائدية، أو طبقية أو حزبية أو سياسية "فالدين لله والوطن للجميع"

4- ومن قبل ومن بعد يؤكد خطاب الرئيس مفهوم "المواطنة" ويعتبرها أساس المفاضلة بين المواطنين دون تفرقة، وعلى الجميع العمل على تعميمها والحفاظ عليها، وترجمتها إلي واقع ممارس، فالمواطنة هي "مصر" ومصر فوق الجميع، وهي الحافظة على الأديان، بل وسابقة عليها.

باختصار: إن ما طرحه الرئيس مبارك يفرض وجود الخطاب الدين المستنير الذي دعا إليه، ويقف إلي جواره فيه كل المؤمنين بالدين، وبأهميته ودوره في الحياة ونري أن وجود هذا الخطاب المنشود يتطلب ويفرض الحوار بين الدين الواحد- من ناحية- للاتفاق على ما ينبغي أن يقوم به أبنائه، ومن ناحية أخرى بينهم وبين علماء الدين الآخر للاتفاق على القيم والمبادي المشتركة، وطرح أسس التعاون والتنسيق فيما بينهم، ووضع استراتجيات قريبة وبعيدة المدى لتحقيق الخطاب المنشود، مع استهداف الشباب عدة المستقبل وعتاده.

خامساً:- (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ)(*)

صدق الله العظيم، بهذا قضت حكمه العزيز الحكيم، يا جهلاء العصر، يا من تدعون- غرورا وكبرياء- أنكم المتحضرون، وسادة العالم، أيها الكارهون لرسول الإسلام، ولأتباعه. إنكم بهذه الكراهية، والحقد الدفين قد حكمتم على أنفسكم بالقصور في الفهم والإدراك، والتشوه وانقطاع الفائدة والنفع منكم، ولم لا؟ وأنتم بأسلحة الدمار الشامل تهددون العالم، وبإعلامكم تثيرون الفتن، وتمزقون الأمم، وتعتدون على المقدسات، والخصوصيات. ونحن على ثقة أن ما تقومون به اندفاعاً بغروركم- سوف يعود عليكم بالدمار والخراب. إن البعض والكراهية لرسول الله إنما فكر جاهلية موغلة في غيها وضلالها، ولم تنقطع بعد حتى يومنا هذا، وعلينا إمعان النظر والتدبر:

- فالجاهلية الأولى، جاهلية الظلام والإظلام، حاربت رسول الله في بدنه، وخلقه، بل وأهله. ولكن كان انتصار "السماء" وظهر الحق "من منن الهدى غراء".

- ومن بعد جاءت الجاهلية الأوربية، في عصور الظلام، وجيشت الجيوش، رافعة الصليب، وهو، وعيسى بن البتول براء، ولما لا؟ وهو المبشر برسول يأتي من بعده اسمه "أحمد".

- واستمرت الجهالة وعبرت عن نفسها في "ايدولوجية" استعمارية غربية عانت منها كل البشرية، وايضا "أيدلوجية علمانية" انتهكت كل الأديان والمقدسات، حتى المسيحية دينهم ومعتقداتهم- فصلوها عن حياتهم، بل وتعرضت للإهانة باسم "حرية التعبير.

- وها هم سائرون في جهالتهم على الدرب نفسه، تحت وهم "ما بعد الحداثة" ليجعلوها "علمانية شاملة" تنكر كل المطلقات والمرجعيات، وكل الأديان والمقدسات وتعمل بكل المعايير، مهما كيان تناقضها، فعاثوا في الأرض فسادا وكان الاعتداء على الشعوب، واعمل على تمزيق الأمم،

(*) كتبت هذه السطور في إطار الحملة الغربية ضد الإسلام وتلك الرسوم المسيئة للرسول الكريم التي قامت بنشرها أحدى الصحف الدنمركية وغيرها من الصحف الغربية.

وإثارة الفتن وانتهاك المقدسات، وخصوصيات الثقافة، وكان ما كان الرسول الإسلام في حادثة يقال "دانمركية"، وما هي إلا علمانية التوجه، الطبع والطابع، غريبة السمات والقسمات.

— ومع ذلك فإنه في وسط الجهالة الغريبة، والعدوانية المتجذرة في سياستها، ظهر منهم المنصفين. فما هو "وول ديوارنت"، في قصته عن الحضارة، يؤكد حضارة الإسلام، والمسلمين، والسماحة والتسامح الإسلامي ولرسوله الكريم. أما "شتييات" المفكر الألماني فيري أن الإسلام بعيد عن العنصرية والإرهاب، وعلى الغرب أن يفتش عن هذا في سلوكه وممارسته، ومن قبل كانت الألمانية "زجرد هنكه" صاحبة أعظم مؤلف "شمس العرب تشرق على الغرب". وهناك العشرات الذين يرون في"محمد "رسول الله، أعظم مائة شخصية شهدتها البشرية. وإذا عدنا لأخوتنا من المفكرين المسيحيين، فمن منا ينسى "نظمي لوقا"، وكتابه خالد الذكر محمد "الرسالة والرسول"، والقائل فيه: علينا أن نفتح أعيننا على هذا النور، فمن يغمض عينيه عن النور يضير عينيه ولا يضير النور. أما رأس الكنيسة الأروثوذكية "البابا شنودة" فهو المؤكد دوماً- بحس ديني عميق ووطنية لا تقل عمقاً- سماحة الإسلام والمسلمين، وأن ما حدث ليس فقط ضد محمد رسول الإسلام وإنما يمس كل الأديان.

— وهنا نتضرع- وفي خجل عميق- ونقول يا أبا الزهراء قد قصرنا في حقك ورسالتك، ونعترف بأننا شاركنا في الإساءة إليك، لضعف في إيماننا بك، ولهواننا، وتشرذمنا، وتخلفنا وجمودنا، وما يرتكبه السفهاء منا من أعمال مخزية مسيئة لإسلامنا تحت اسم الدفاع عن أمة الإسلام، وهو منها براء. كما أسأنا إليك وإلي رسالتك بممارستنا الاستبداد والديكتاتورية، وتوظيف أغلى ما نملك- الدين والعقيدة- لتحقيق مآرب رخيصة والنصب والاحتيال الدجل والشعوذة، بل في السياسة والرغبة في اعتلاء المناصب.

— فنحن- يا رسول الله- شركاء في الجريمة النكراء، التي من المتوقع تكرارها، ولا نملك إلا التوسل إليك بقبول اعتذارنا، والدعاء إلي الوقوف بجوارنا، وقد يكون في "المحنة" الكبري التي نعيشها "منحة" على حد

تعبير شيخنا مفتى الديار المصرية- على جمعة- للخلاص مما نحن فيه، والعمل على نصرة الدين، مع الثقة بنصر الله " أن تنصروا الله ينصركم" ولقد وهنا الله من الخير الكثير والعميم، وما علينا إلا توظيفه، فيما هو صالح شعوبنا والدفاع عن عقيدتنا، ونحن بهذا مأمورون، مصداقاً لقوله الكريم "(وَأَعِدّواْ لَهُمْ مّا اسْتَطَعْتُمْ مّن قُوّةٍ وَمِن رّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوّ الله وَعَدُوّكُمْ)" والقوة ليست فقط في الإمكانيات المادية وإنما في كل فعل، يزودنا بالمنعة والقوة، ويرفع من قدراتنا على المواجهة، وإن بأذن الله لمنصرون، ولو كره الكافرون الحاقدون والكارهون لرسول الله(ﷺ) وأتباعه المسلمين.

<u>سادساً</u>: الإســلام كما يـراه مُنصفُـو الغــرب.

بالرغم من أن كل ما نطرحه هنا هو من الحقائق المعروفة، بل وأشبه بالمسلمات التي لا تحتاج إلي إثبات وطول بيان، إلا أننا نطرحه لنذكر به من يحاول الافتراء على الإسلام، والإساءة إليه، عن جهل وتعصب، وضيق أفق، بل واستغلال لمواقف العداء التي يعلنها الغرب الاستعماري ضد الإسلام والمسلمين، واتهامهم بالفاشية، الإرهاب والدموية، ومحاولة استدعاء التاريخ، وتلك الحروب التى شنها الغرب على بلاد المسلمين، تحت راية "الصليب" وهو منها براء، وإنما كانت بفعل "الباباوات"، وبمشيئتهم هم لا بمشيئة "الرب" كما كانوا يدعون، ووحد فيها "الأباطرة" الفرصة لنيل رضاء الكنيسة، والحصول على "صكوك الغفران" لما يرتكبوه من جرائم وخطايا، وهي الحروب التي أطلق عليها المسلمون بحس وفهم عميق للرسالة السامية للأديان، وسماحة المسيحية، وعيسى ابن مريم، القائل "على الأرض السلام وبالناس المسرة"، أطلق عليها المسلمون "حروب الفرنجة" تبرئة للمسيحية ولرسولها من هذه الحروب العدائية، بدوافعها السياسية، والتغطية على ما كان بين الباباوات والأباطرة من صراعات نقول نطرح هنا رؤية نماذج من منصفي الغرب من المؤرخين، الفلاسفة والمفكرين من أمثال:"وول ديوارنت"، في موسوعة "قصة الحضارة"، والمؤرخ التربوي "ر.ه يك" في مؤلفة القيم "التاريخ الاجتماعي للتربية" وأيضا "بول منرو" في كتابه "المرجع في تاريخ التربية، ويحتل كتاب" شمس العرب تشرق على الغرب" ، للمستشرقة الألمانية "زجرد هنكه" أهمية القصوى في هذا

المجال، لما ينطوي عليه من حقائق تم طرحها بكل ـنصاف وموضوعية، وتكشف عن فضل العرب والعلماء المسلمين على الغرب والحضارة الأوربية في مختلف الميادين والمجالات. أما الفيلسوف البريطاني العالمي "برتراند راسل"(1872-1970م)، فبالرغم من ميوله الإيجابية تجاه اليهود، خاصة بعد ما حدث لهم أيام النازي، إلا أنه قال كلاما عن الإسلام والمسلمين والحضارة الإسلامية، يعد وبك المعايير- إضافة حقيقية وموضوعية للكشف عن أوجه المشرق للإسلام عقيدة وحضارة. ولن ندخل في تفاصيل رؤية هؤلاء المنصفين من المفكرين الغربيين، ونكتفي هنا بالإشارة إلي الاتجاهات العامة لرؤاهم ونظرتهم الموضوعية، وما طرحوه من حقائق حول تأثير الحضارة الإسلامية فيما وصل إليه الغرب من نهضة وتقدم. من هذه الاتجاهات والحقائق:-

1- إن العالم الإسلامي قد شهد أعظم نهضة علمية وفكرية، في ظل ازدهار الحضارة الإسلامية في العصر العباسي الأول(القرن الثاني الهجري- الثامن الميلادي) ، مع استمرارها بعد ذلك عدة قرون، حيث استطاع مفكرو علماء المسلمين من العرب وغيرهم تحقيق أروع الإنجازات الفكرية والعلمية في مختلف الميادين والمجالات، مما كان له أعظم الأثر في بناء الحضارة الإسلامية، والتي أخذ يمتد نورها إلي العقل الأوربي وإيقاظه من سباتها العميق، ومن ظلمة العصور الوسطى.

2- أن العقل الإسلامي كان عقلا علميا منظما، ويسير على المنهجية العلمية الاستباطية والاستقرائية، كما تمتع بدرجة كبيرة من حرية البحث في مختلف العلوم والمعارف.

بينما كانت أوربا غارقة في ظلماتها، وتنتشر فيها محاكم التفتيش وحرق العلماء والمبدعين والفلاسفة والمفكرين بتهمة "الهرطقة"، والخروج على "ملكوت الرب"، أة على تعبير أحد مفكري الغرب المنصفين "إنه في الوقت الذي كان فيه الخلفاء المسلمون يجادلون الخوارج والنصاري واليهود والمجوس بالتي هي أحسن، ويعقدون معهم مجالس المناظرة، كان الذي يجرؤ عن تبيان فصل العقل، يربط على سارية مركوزة، على نار متأججة، أو تشر أطرافه على أربعة حياد، وينهال عليه- الموكلون به- ضربا بالسياط" وكما هو معروف هناك

العديد من المبدعين الذين قتلوا بسبب أفكارهم، منهم على سبيل المثال "برونو" الذي قتل حرفا عام 1600، لأنه قال بمثل ما قال بها " كوبرنيكرس" و"جاليلو" من أن الإض تدور، وأنها ليست مركزا للكون، فلقي كل من قال بهذ النظرية.

3- إن كثيرا من العلماء الغربيين الذين تبنوا "المنهج التجريبي"، من أمثال "روجز بيكون"(1219-1292م)و"فرنسيس بيكون "(1561- 1626م)، قد تأثروا في منهجيتهم التجريبية بالمفاهيم والأفكار العربية، بل كان "روجز" يجيد العربية، ويتخذ من علماء المسلمين مثل ابن الهيثم وابن سينا وغيرهما النموذج والمثال. وكان يشكو من تخلف العالم المسيحي عند مقارنته بالعالم الإسلامي، بسبب جهل "رجال الدين"، ومحاربتهم "ملكوت العقل" لمنافاته تعليم ومعتقدات "ملكوت الرب".

أما تأثير "ابن رشد" في العقلية الأوربية، فيعترف به الأوربيون قبل غيرهم، وأصبحت المدرسة الرشدية من أهم المدارس الفلسفية في الجامعات الأوربية ولقد استمد منه القديس الفيلسوف"توما الاكويني"(1225-1274)

4- ونقف هنا وقفه تأمل فيما قال فيلسوف القرن العشرين "بريزاند راسل" عن الإسلام والمسلمين وحضارتهم،ومواقفهم فى البلاد التى افتحوها، ففى ما قاله الرد المباشر على تلك الترهات التى قالها بابا الفاتيكان الحالى "بندكيتوس" فى حق الإسلام والمسلمين : عن جهل وتعصب مقيت افق لا يليق به كحبر أعظم المسيحي العالم ، على اى حال لنرى ماذا يقوله الفيلسوف البريطاني العظيم؟ انه يقول ـ فى كتابه حكمها الغرب،الجزء الاول ص 226م" انه بينما كانت تتهاوى ثقافه الغرب كانت حضاره الاسلام هى القوه الفتيه"ـوعندما اجتما الغرب برابره اعتنقوا المسيحيه فيما بعد، فان الامبراطوريه الشرقيه تهاوت بالتدريج امام هجمات المسلمين الذين لم يحاولوا، يقول راسل، ضم الشعوب المهزومه إلى دينهم.ويقول أيضا" انه يحسب للعصر الاسلامى منذ وقت الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة عام 622م وبعد وفات النبي محمد (ﷺ) عام 632م، انه استطاع بفتوحاته ان يغير وجه العالم كله فى اقل من ربع قرن من الزمان".

ويرد راسل على تلك الفرية التي يرمى بها الإسلام، ليس فقط من الغرب الاستعماري، وإنما من بعض المحسوبين علينا عربيا وإسلاميا، وهي فرية أن الإسلام قد فتح البلاد عربا وشرقا" بحد السيف"، ومن ثم يأتي اتهامه بالعنف والإرهاب والدموية، وهذا يقول راسل بكا وضح "إن دين الإسلام، وإن جعل الجهاد فريضة دينية إلا أنه في كل البلاد التي أفتتحها وقضائه على الإمبراطورية البيزنطية، وسقوط أخر معاقلها في القسطنطينية، واستيلاء العثمانيين عليها عام 1453 ولم يلحق بأهل الكتاب في هذه البلاد بل تركهم على دينهم، يمارسون بكل حرية طقوسهم ويتمسكون بتعاليم كتبهم الخاصة بعقيدتهم وكان الولاة المعينون من قبل خلفاء المسلمين على البلاد التي فتحوها يتركون إدارة الأقاليم ونظمها دون تدخل منهم وكان هؤلاء الولاة يتصفون بالعدل والسماحة وينبذون التطرف والتعصب ضد غيرهم من أهل الديانات يتصفون بالعدل والسماحة وينبذون التطرف والتعصب ضد غيرهم من أهل الديانات الأخرى(حكمة الغرب الجزء الأول ص282)

ويؤكد كلامه هذا بقوله "والواقع أ، الدوافع الدينية عند العرب الفاتحين كانت بعيدة تماما عن التطرف والتعصب واستخدام العنف، مما ساعدهم رغم قلة عددهم، على فتح مناطق شاسعة، كانت تسكنها شعوب العنف، مما ساعدهم رغم قلة عددهم، على فتح مناطق شاسعة، كانت تسكنها شعوب ذات حضارة أعرق، وعقائد مختلفة "(المرجع نفسه). ثم أخذ راسل يعدد بعد ذلك مناقب المسلمين الحضارية وفضلهم على الحضارة العربية.

هذه رؤية نماذج من مفكري الغرب المنصفين نطرحها للتذكرة والتذكير، ونقدمها للفلاه المتطرفين المنغلقين المتعصبين، وفي مقدمتهم الإرهابي الأكبر "بوش الصغير"، ، وتابعة"بلير"، ومن يسير وراءهم حذو الفعل بالفعل من أمثال من يطلقون عليه الحبر الأعظم بابا الفاتيكان الحالي، حفيد بابا وات صكوك الغفران ومحاكم التفتيش، وبقايا فكر الحروب التي اتخذت لها الصليب شعارا وهو منها براء.

<u>سابعاً</u>:"والحق أن الأمم لم تعرف دينا سمحاً مثل دينهم"

إنهم"العرب" ودينهم"الإسلام" والقائل هو العلامة الفرنسي الكبير، "جوستاف لوبون"، في كتابه"حضارة العرب". وفي الكتاب يعمل "لوبون" على بعث عصر العرب الذهبي من مرقدة، ليظهره للعالم في صورته الحقيقية،

ليخلص من كتابه، بحوثه ودراساته، ورحلاته للعالم الإسلامي بالحقيقة التاريخية الناصعة، وهي"أن العرب هم الذين نقلوا أوربا من عصور الظلام النهضة والتنوير، وهي الحقيقة التي شاركه في القول بها العديد من مفكري ومستشرقي الغرب المنصفين، من أمثال "زجريد هفكه" في سفرها الخالد "شمس العرب تشرق على الغرب".

ولن نطيل ونزيد في بيان محتوى الكتاب، فهو متاح للعامة والخاصة، والفضل في ذلك يرجع إلي المشروع القومي "مكتبة الأسرة"، ونكتفي هنا بتصدير المؤلف لكتابه، ففي كلمات قليلة طرح خلاصة هذا الكتاب، وما يرمي إليه، ومن ثم فيها الكفاية والغناء، حيث يقول أن القوة لم تكن عاملا في انتشار القرآن وإلا ما ترك العرب المغلوبين أحراراً في دينهم. أما اعتناق بعض الأقوام النصرانية الإسلام واتخاذ العربية لغة لهم، فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين بما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من سهولة لم يعرفوها من قبل".

أما الفرية الكبري، التي يتم ترددها من حين إلي حين، وهي أن الإسلام قد انتشر بالسيف، فيدحضها لوبون في كلمات بليغة واضحة مؤثرة، فيقول إن القرآن لم ينتشر بالسيف، وإنما بالدعوة وحدها اعتنقه الترك والمغول الذين قهروا فيما بعد العرب... ولقد أدرك خلفاء المسلمين ودعاة الإسلام أن الأديان ليست مما يفرض قرار، فعاملوا أهل كل قطر استولوا عليه بلطف عظيم، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم، غير فارضين عليهم سوي جزية في الغالب زهيدة، إذا ما قيست بما كانوا يدفعونه من قبل، وذلك مقابل حفظ الأمن بينهم". ويختم "لوبون" تصديره قائلا" والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا دينا سمحا مثل دينهم".

ونقول: إن هذه الكلمات الموجزة الجامعة المانعة التي يقولها العلامة "جوستاف لوبون"، شهادة حق نهديها إلي برابرة العصر وهمجية، الذين أصابهم غروةر ما وصلوا إليه من تقدم مادي، يحمل في طياته ما يهدم أكثر ما يبني، يخرب أكثر ما يعمر، ويسعى إلي تدمير قيم وأخلاقيات الحضارة الإنسانية، ليعودوا بذلك إلي ابق عهودهم من بربرية وهمجية وقبل أن تصل إلي شمس العرب،ونور الإسلام والظلال الوارفة لحضارة المسلمين. نهدينا إلي هؤلاء الذين ينظرون من تمل، واستهانة واستخفاف على من كانوا

أصحاب الفضل علهم، بل ويتهمونهم بالدموية والفاشية، وأن رسـولهم لم يـأت إلا بكـل مـا فيه شر، وأن دينهم انتشر ووصل إلي مشـارق الأرض ومغاربهـا بالسـيف، وتوغـل في أعـماق بلادهم وديارهم بالقوة وليس بالعدل والدعوة.

ولن نقول لهؤلاء المعاصرين أكثر ما قالـه جوسـتاف لوبـون منـذ أكـثر مـن قـرن مـن الزمان وكأنه وهو يضع كتابه كان يستقرئ المستقبل، ويوجد بقايا أباطرة وبابوبات العصـور الوسطي والحروب الصليبية. وإلا بماذا نفسر تلاقي أفكار ووجدانات إمبراطور الـعصر "بـوش الصغير"، مع الحبر الأعظم بابا الفتيكان حفيد الكاثوليـك الـذين قـادوا الحـروب الصـليبية ضد الإسلام والمسـلمين، وحرضـوا الأبـاطرة مقابـل مـنحهم صـكوك الغفـران، بقايـا محـاكم التفتيش، وإعـدام العلـماء والمفكـرين. وغيرهـا مـن الأفعـال التـي قـاموا بهـا تحـت شـعار "الصليبية، حيث أطلقوا عليها" حـروب الفرنجـة" تبرئـة للصـليب والمسـيحية السـمحاء مـن ارتكـاب هـذا الـدنس والخطيئـة الكـبري في حـق الآخـرين مهـما كـان اخـتلاف الأديـان والمعتقدات.

ولكن يبقي درس هـذه الحـروب العسـكرية والدينيـة، وهـو أن الإسـلام بـاق خالـد، والـلـه متم نوره ولو كره الكافرون، وأن المسلمين كتب لهم النصر في هـذه الحـروب عنـدما اتحدوا وتوحدوا ونبذوا الفرقة والتشرذم، وحافظوا على دينهم وإسلامهم: دين الحق والعدل لكل البشر.

فهل نعي الدرس؟ هذا ما نتمناه.

ثامناً: إنه إسـلام العقـل والعلـم.

لا نقولها عن شيفونية أو تعصب دينـي، وإنمـا هـي الحقيقـة التـي ينطـق بهـا قـرآن الإسلام، وتمثلها المسلمون في عصور قوتهم، عزتهم ومجدهم، فكانت عصارة التمثـل حضـارة إسلامية زاهرة مزدهرة- وكان لها الفضل في إيقاظ العقل الغربي، وبنـاء حضـارته، والـتخلص من عصوره المظلمة، وهذا ما يعترف به المنصفون من مفكري الغرب، من أمثال المسـتشرقة الألمانية زجرد هنكه في كتابها شمس العـرب تشرق عـلى الغـرب وول ديوارنـت، وموسـوعته قصة الحضارة والفيلسوف البريطاني برتراند راسل في كتابه حكمـة الغـرب وغـيرهم كـثر، ولا ينكر هذه الحقيقة سوي الجهلاء والمتعصـبين، وبقايـا بابـاوات الحـروب الصـليبية مخترعـي صكوك الغفران، ومحاكم التفتيش.

وهنا نتجاوز قيم العدل والتسامح الإسلامي من أهل الديانات الأخرى، وبالأخص النصاري، أقرب الناس مودة للمسلمين وفقا لخبر القرآن الحكيم قال تعالى: (.................وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ) (*) صدق الله العظيم.

نقول لتجاوز كل هذا، ربما لحديث آخر ونركز هنا على العلم و العقل اللذين بهما يفاخر الغرب، وأنهما به ألصق، وأحق وأجدر، أما نقيضهما فهو ألصق بالمسلمين ومن صفات وثقافة إسلامهم، بدليل ما هم فيه من تخلف، وما عليه الغرب من تقدم وتحضر وهذا ما اعتمد عليه بابا الفاتيكان المسمى بندكيتوس السادس عشر في محاضرته التي فيها هاجم الإسلام ورسوله الكريم، ونزع عنه صفة العقل، بل ووصفه بالشرير القاتل، وهكذا يفهم الخبر الأعظم رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام، أعظم مائة العظماء في تاريخ البشرية كما يرب أحد المفكرين الغربيين.

ولنبدأ حديثنا بالعقل في الإسلام وعنه نقول: إنه أنبل وأعظم وأجل مات في الصيغة الإسلامية،/ فهو مناط التكليف، وبه استحق أن يوصف الإنسان بإنسانيته، وأن يكون خليفة الله في أرضه وأن يكون قادرا على تحمل الأمانة، وأن يكون له حق الحرية في الاختيار، وبالتالي واجب الالتزام، فمن يمارس حريته لابد أن يكون عاقلا، ملتزما ومسئولا عن اختياراته وتأكيد لهذه الحقيقة فإن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يخاطبه الله سبحانه وتعالي في قرآنه بصيغة النهي لأن النهي يتضمن قدرة الفرد على فعل الشيء أو تركه، يعني حرية الاختيار والمسئولية عن هذا الاختيار. أما بقية الكائنات فيخاطبها القرآن بصيغة الأمر الذي يفرض فعلا واحدا لا اختيار فيه قال تعالى:(وَقِيلَ يَأَرْضُ ابْلَعِي مَآءَكِ وَيَسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَآءُ وَقُضِيَ الأمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيّ وَقِيلَ بُعْداً لّلْقَوْمِ الظّالِمِينَ) (1) ،(قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَمَا عَلَىَ إِبْرَاهِيمَ)(2) صدق الله العظيم. أما عن أهمية العقل ووظيفته والأمر باستخدامه في كل مجالات الدنيا والدين، فتحفل بها العديد من الآيات القرآنية

(*) [سورة: المائدة - الأية: 82]

(1) [سورة: هود - الأية: 44]

(2) [سورة: الأنبياء - الأية: 69]

والتي تنص على التفكير والتدبر، وغيرها من المفاهيم والمعاني العقلية. وصدق الـلـه العظيم حيث يقول تعالى: (فَاتَّقُواْ الـلـه يَأُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).[1]

ونأتي للعلم في القرآن، كما هو معروف يقوم العلم في الأساس على التجربة والاختيار، وهذا لا يأتي إلا بإتباع الشك في وجود الظاهرة من عدمه، وتحرير عقولنا من كل الأوهام الموروثة أو المكتسبة من البيئة، لذلك ينعي القرآن الكريم ويعيب على هؤلاء المتشبثين بأوهام الماضي قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ الـلـه قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ)[2] ويقول أهل العلم أن القرآن الكريم يضم بين دفتيه أكثر من سبعمائة آية "نسبية المعرفة"، لا كمالها، فالنسبية في المعرفة هي التي تدفع إلي البحث عنها باستمرار، وتظل دوما الحقيقة ناقصة ومن ثم نشجع العقل على البحث عنها.وهذا ما يعبر عنه بدقة قوله تعالي:(وَمَآ أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)[3] وبالتالي علينا البحث دوما عن العلم دون كلل أو ملل.

هذه بعض قيم العلم ومفاهيمه، والتي انتقلت للغرب من خلال جسور المد الحضاري في الأندلس وخلال الحروب الصليبية، وعرفها الغربية عن طريق فلاسفة المسلمين من أمثال ابن سينا، وابن رشد فأقاموا حضاراتهم بعد العيش في ظلمه العصور الوسطي، وتمثلها المسلمون في القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي فأقاموا حضارتهم الإسلامية الزاهرة. ولكن حدث بعد ذلك انقلاب من المواقف فالغرب استمر يبني ويتقدم، أما المسلمون فقد انغمسوا في عصور الضعف والوهن في الملذات والقصور والغواني، ومن بعد في الخرافات والخزعبلات، وتحول الإسلام علي أيديهم إلي ما يرفضه ويأباه من التكاسل والدروشة بدلا من أن يكون قوة دافعة للنهضة والتقدم.

بعبارة أخري هان الإسلام على المسلمين فهان وهانوا على غيرهم، فكانت الرسوم المسيئة، وكانت إساءة بابا الفاتيكان ولا حول ولا قوة إلا بالـلـه العلي العظيم.

---

(1) [سورة: المائدة - الأية: 100]

(2) [سورة: البقرة - الأية: 170]

(3) [سورة: الإسراء - الأية: 85]

الفصـــل الرابـع

الثقافة العربية في عصر العلم

لسنا بحاجة إلي بيان أو حلول في إثبات أننا نعيش عصر العلم والتكنولوجيا بكل ما ينطوي عليه من منظومات وابتكارات، وما يتطلبه من ثقافة علمية قادرة على التعامل مع انجازاته ومعطياته، فما فلسفة علم هذا العصر؟ وما ثقافته؟ وموقع ثقافتنا العربية منه؟ هذا ما نحاول الإجابة عنه في هذا الفصل؟

أولاً: فلسفة العلم في القرن العشرين(*)

تعتبر ظاهرة العلم أخطر الظواهر الإنسانية وأكثرها تمثيلا إيجابيا لحضور الإنسان في هذا الكون، وفي القرن العشرين تضاعفت مردودات العلم، حتى بات العامل الفاعل والحاسم في تشكيل العقل والواقع على السواء. بهذه الكلمات- المركزة المكثفة- تقدن د. يمني طريف الخولي لكتابها فلسفة القرن العشرين: الأصول، الحصاد، الآفاق المستقبلية الصادر ضمن سلسلة عالم المعرفة- الكويت ديسمبر2000م حيث تتناول في كتابها- بأسلوب محكم رصين، وتحليل عميق، ووعي ناقد، ورؤية صافية ضافية- البدايات الأولى لظهور العلم، كيف نما وتطور عبر الحضارات، حتى تسلمه القرن العشرين؟ وكيف سلمه للقرن الحادي والعشرين؟ وذلك بهدف تعميق الوعي بظاهرة العلم.

وفي السطور التالية نعرض- بإيجاز- بعض تجليات هذا المتميز، وصولا إلي بعض الأبعاد والدلالات ذات الأهمية في تعميق هذا الوعي ويتلخص ما نود طرحه في الآتي:

1- إن وجود ظاهرة العلم يوازي وجود الإنسان، حيث تمتد جذوره إلي البدايات الانثروبولوجية في المجتمعات البدائية، ثم نما وتطور عبر الحضارات ليخط لنفسه تاريخا متميزا، تاريخ تنامي البنية المعرفية

(*) مقال منشور بصحيفة الأهرام(صفحة ثقافة المجتمع) بتاريخ 2001/9/14.

وخدودها ومسلماتها وآفاقها، تاريخ الإنسان بإمكانياته العقلية، وموقفه من الطبيعة والعالم الذي يحيا فيه.

2- أن حركة العلم تسير- صعودا وهبوطا- في خط مواز لحركة الحضارات الإنسانية وفي الغالب الأعم يتقدم ويزدهر العلم بازدهار الحضارات في الثقافة والاقتصاد والثقافة. ولعل ما يفسره- ويفسر- انتقال العلم من مصر وبابل إلي الإغريق ثم من الإغريق إلي العرب والمسلمين ومنهم إلي ايطاليا، ومنها إلي فرنسا وهولندا حتى حط في انجلترا واسكتلندا إلي أن وصل إلي الولايات المتحدة وبعض بلدان جنوب شرق آسيا، مما يؤكد وجود ارتباط وثيق بين تقدم العلم، وتقدم الحضارات.

3- كما أن العلم ينمو ويتطور، يتقدم ويزدهر عندما يتحول إلي مؤسسة مستقلة بذاتها بمفاهيمها، ونواميسها، وقواعدها، ورجالاتها، وهذا ما يفسره- ويفسر- كما كان عليه العلم القديم من بطء شديد فغي حركته ومسيرته، بالمقارنة بحركة العلم الحديث.

4- إن فلسفة العلم هي تجريد وتجسيد لروح العصر الذي نعيش فيه من حيث منهجه وأسلوبه في البحث عن الحقيقة، ونظرته إلي الكون وإلي العالم من حوله.

5- إن المنهجية التجريبية المطورة بوعي وبصيرة قد تبلورت خلال القرن العشرين في تيارين أساسيين: الأداتية أو البراجماتية التي تتخذ فائدة الفكرة ونفعها معيارا للحكم على صدقها والوضيعة المنطقية أو التجريبية المنطقية التي تتخذ من التحليل واللغة والمعرفة طرائقها الرئيسية للوصول إلي الحقيقة. وكلا التيارين يعمل في إطار من منطق تبرير المعرفة العلمية أي تحديد مبررات وحيثيات تميزها ووثوقها وصدقها، ونجاحها في أداء المهام المنوطة بالعلم.

6- لكن من ذيوع وانتشار هذين التيارين، كان القرن العشرين- خاصة نصفه الثاني، وعلى الأخص ربعه الأخير- على موعد مع منهجيه تجريبية جديدة، تشكل- بكل المقاييس- فلسفة العلم المعاصر، قام بضع أصولها، ودعا إليها كار بوبر فيلسوف القرن العشرين، بلا منازع.

وفيما يلي بعض تجليات هذا الطرح:

(أ) إن الكشف العلمي والتقدم المطرد هو منطق فلسفة العلم المعاصر، من أجل فتح آفاق مستقبلية أرحب، فالعلم وفق هذا المنطق ذو طبيعة ثورية تصديقيه، لا تراكمية يقينية.

(ب) إن الموضوعية هي سمة المعرفة العلمية، التي تتشكل منكل الأفكار: نظرية كانت أم عملية، ومن كل المصادر: عقلية كانت أم حسية. وأن المحك الموضوعي للحكم على موضوعيتها هو الوجود الواقعي المستقل للعالم الخارجي.

(ج) أن معيار الحكم بالعملية على الاكتشاف أو النظرية إنما هي القابلية للاختبار المستمر والتنفيذ والدحض، والقابلية للتكذيب. وهنا أهمية النقد للنظرية العلمية، لأنه القادر على الكشف عن الكذب لاستبعاده، وعن الصدق لتعزيزه، والسير دوما في اتجاه التقدم للبحث عن المزيد من الصدق.

(د) إن البدء بتحديد المشكلة- لا بالملاحظة والتجريب- هي الخطوة الأولى في المنهجية العلمية ثم تليها خطوة طرح الحل أي الفرض، الذي يخضع للاختيار والنقد والتكذيب فإن استطاع الصمود بقى وتعزز، وإن لم يستطع استبعد للبحث على آخر قادر على التوصل إلي الحل.

وتنطبق هذه المنهجية على العلوم الإنسانية، ولكن بشروط وضوابط معينة.

7- إن فلسفة العلم المعاصر بتطلعاتها وآفاقها المستقبلية، واستيعابها للانجازات المرتبطة بظاهرة العلم ارتباط وثيقا، منها:

1- مفهوم المؤسسة العلمية. ولهذا المفهوم أهمية، خاصة في العمل العلمي، فلقد انتهت تقريبا صورة العالم الفرد المنعزل بأبحاثه وعبقريته العلمية وأصبح الوضع يتسم بطابع جمعي تعاوني بحكم تصاعد متوالية المعرفة، واتساع نطلق الأبحاث العلمية، وارتفاع تكاليفها ومن ثم فإنه لابد أن يعمل الجميع في إطار مؤسسي قادر على توفير متطلباته.

2- مفهوم النموذج القياسي الإرشادي، ويقصد به النظرية العامة التي يلتزم بها أعضاء المجتمع العلمي في مرحلة معينة، دون إخضاعها للمقايسة بغيرها. أي عدم الحكم عليها بالقياس إلي نظرية سابقة عليها، أو تالية بها، وإنما باعتبارها أفضل من كل النظريات المنافسة لها، ومن ثم يسلم

بكل مناهجها ومسلماتها وخلفياتها الميتافيزيقية، وبالتالي تعد النظرية بكل هذه الأبعاد بمثابة نموذج إرشادي يحدد مدلول التجريبية ومعايير الاختبار والتقويم، والتعديل إذا كان مطلوبا.

3- سوسيولوجيا العلم. والمنبثقة أساسا من مجال أعم وأشمل وهو سيوسيولجيا المعرفة من حيث الاهتمام ببحث العوامل الاجتماعية والحضارية، والإمكانيات المعنوية والمادية ذات التأثير على العلم بمختلف أبعاده وأشكاله وأنماطه واتجاهاته والعلم ظاهرة تعيش في سياق اجتماعي وحضاري معين، وبينه وبينها تفاعل وتأثير متبادل. بل إن هذا السياق يعد علة فاعلة وناجزة حتى في أبعد العلوم عن الواقع الاجتماعي.

4- النظر إلي العلم على أنه ظاهرة إنسانية، باعتباره إبداعا وانجازا إنسانيا، ومن ثم النظر إلي سائر العلوم في مختلف التخصصات على أنها علوم إنسانية وبهذه النظرة لا يمكن عزلها أو تعيين خصائصها بمعزل عن ميلاد الثقافة الإنسانية، والخبرة والاهتمامات بالاحتياجات الإنسانية، حتى العلوم الفيزيائية تعيش داخل باحثين من البشر المشبعين بالأبعاد الثقافية. كما أنه بهذه النظرة يمكن أن تعايش وتتداخل وتتكامل سائر العلوم والمعارف فكل منها تشكل رافدا وزادا للآخر.

<u>ثانياً</u>:- هل نتوجه نحو تحول جذري في قواعد الفكر الإنساني.

من المسلمات الموروثة- والمتوارثة.. في الفكر الإنساني: أن منهج التفكير الصحيح واحد في كل زمان ومكان، وأن قواعد المنطق واحدة، أينما كان البشر في الغرب أم الشرق، فهما تعددت وتنوعت الثقافات، وتباينت فأنهم يستدلون ويستقرئون وفق منهج واحد، وقواعد منطقية واحدة.

ولكن يبدو أننا نعيش عصر نهاية هذه القواعد، أو على الأقل، بات الفكر الإنساني يشهد بداية تحولات جذرية في قواعده ومناهجه، المتوارثة عبر القرون، والتوجه نحو منطق جديد، أو صياغة إبداعية للنظريات ومفاهيم جديدة- ضرورة أن تضم البشرية عنها ثوب التقليد، وأن تنضوي تحت راية التجديد، للتكيف- فكرا وعملاً- مع واقع متطور جديد، تصنعه الثورة الكونية في الفكر والثقافة والعلوم، بكل ما لها من آثار وتداعيات، وما تتميز به من

شمول واتساع، وما تحدثه من صراعات وتناقضات، وما تحمله من نهايات وما بعديات لعشرات المفاهيم والأفكار، التي عاشت بها وعليها البشرية طويلا.

لهذا ولغيرة، ومن وحي هذا الواقع الجديد طرح بعض المحللين والمفكرين، والمهتمين بدراسة هذا الواقع- عشرات الأسئلة التي تدور حول: طبيعة التفكير، وإلي حد تعبر عملياته عن معتقداتنا وموروثاتنا الثقافية، وتحديد مسئولية ثقافتنا الاجتماعية عن مفاهيمنا ومناهج تفكيرنا، وتفسيرنا لظواهر الواقع. وهل قواعد التفكير واحدة لدى بني البشر جميعا؟ أخر تختلف باختلاف الثقافات والموروثات؟ وهل هي قواعد كلية أم مجرد عادات تفكير تختلف باختلاف الزمان والمكان؟ وغيرها من التساؤلات التي يحاول بعض المحللين والمفكرين الإجابة عنها.

من هؤلاء ريتشارد نيسيت المفكر الأمريكي، وعالم النفس الثقافي، في كتابه القيم، الفريد في موضوعه ونتائجه جغرافية الفكر، الذي قام بترجمته، والتقديم له، القدير المتميز شوقي جلال،(إصدار عالم المعرفة، الكويت، فبراير 2005) فمن خلال دراسته النظرية والتجريبية، يتوصل المؤلف إلي بع الحقائق والنتائج الهامة، حول طبيعة التفكير وعملياته وقواعده في العديد من الثقافات في الغرب والشرق، وهي في مجموعها تشكل قواعد جديدة لرؤية نقدية بناءة لمنهجية التفكير في الثقافات المختلفة، وصولا إلي فهم عام مشترك، في عالم تلاشت فيه حدود الغربة والتباعد، وفيه يحاول الإنسان أن يحتفظ بوعيه وفكره، ويلوذ بنفسه وذاته المعرفية والتاريخية، تأكيدا لشعوره بكيانه، وحسه الزماني، والمكاني.

ويخلص المؤلف من تحليلاته النظرية، ودراساته التجريبية إلي أن أنماط التفكير وقواعده، وقوانينه هي حصاد تفاعل أيكولوجي بين الإنسان والمجتمع وبين البيئة، من أجل صناعة وجوده في بيئته الطبيعية والثقافية في المكان والزمان المعين، ومن ثم فإن هذه الأنماط والقواعد والقوانين وليست- كما كنا نعتقد لقرون طويلة- ثابتة كلية، وإنما نسبة نوعية تختلف باختلاف الثقافات والمجتمعات، إنها عادادت تفكير تكونت وترسخت في وجداننا من خلال هذا التفاعل، وأصبحت تشكل أنساقا فكرية نوعية خاصة متباينة محتوى ومنهجا من ثقافة لأخرى، ومن زمان ومكان لآخر.

ونقول: إن هذا التفسير يصب في الاتجاه الذي يقول بنسبية التقاليد والقواعد العلمية، ونهاية السرديات الكبرى، وغيرها من مقولات تيار ما بعد الحداثة الذي بدأ يفرض نفسه وبقوة في الآونة الأخيرة. وأيا كانت النقود الموجهة لهذا التيار، فإن ما يطرحه المؤلف هنا له أهميته التطبيقية والتربوية، فاعتبار قواعد التفكير وقوانينه مجرد عادادت يعطي إمكانية تغيير هذه العادادت وتطويرها، وبالتالي تغيير رؤية الناس للعالم، وصورته في الأذهان، وإعادة بناء المنظومة الذهنية، والعمليات المعرفية التي ترسخت في معتقدات المجتمعات والثقافات، وهذا يعطي للتربية والتعليم وعمليات التنشئة الفرص الذهبية لإعادة بناء وتشكيل العقول الناقدة، المرنة، المتفتحة، القادرة على فهم المشكلات، والوعي بالذات، وبمشروعية التنوع والاختلاف. باختصار قادرة على استيعاب الكون برحابته وفق عقلية دينامية نقدية.

إلي آخر هذه النتائج الهامة التي خلص إليها الكتاب الذي يصفه البعض بأنه يشكل دعوة إيقاظ للبشرية كي تصحو من سباتها الفكري والوعي بحقائق جديدة في الفكر البشري.

وهنا مقول- مع شوقي جلال- إن هذا الحصاد الفريد من الدراسة عن الفكر الإنساني في الغرب والشرق، دعوة لنا- نحن العرب- للقيام بدراسات علمية نقدية، نظرية وتجريبية حول تراثنا وواقعنا الثقافي، للكشف عن أنماط تفكيرنا، وكيف نري العالم؟ والبحث عن الجذور الثقافية للمعرفة العربية، والمنظومة الذهنية الحاكمة، المهيمنة المسيطرة، ومدى مرونتها، وقدرتها التفاعلية من المتناقضات التي تعيشها، وتحيط بها، وتحديد العوامل والظروف التي صاغت هذه المنظومة ومدى تأثيرها في حركة التطوير الحضاري؟ وأيضا تحديد الأسباب المفسرة لقبول أو رفض ثقافتنا العربية- عبر تاريخها الطويل- لفكر دون آخر؟ وعلاقة كل هذا بعمليات التنشئة ونوعية التربية، والأهداف التعليمية الموضوعة. وغيرها من القضايا الثقافية والمعرفية في واقعنا الثقافي العربي، والتي يجب أن تنهض بدراستها، بدلا من أن تدخل في دائرة الصمت، أو ينجزها غيرنا فنكون- على حد تعبير شوقي جلال- موضوعا، لا ذاتا فاعلة.

ثالثاً: نحـو علـم أكثـر أخلاقيـة.

تؤكد عشرات الدراسات والتحليلات، أن البشرية أحوج ما تكون الآن- وأكثر وقـت مضى- لأخلاقيات العلم، خاصـة بعـد اختراقـه ميـادين ومجـالات غـير مطروقـة، وبأسـاليب وتقنيات غاية في الدقة والتنوع، واستخدامه عشرات الوسائل التكنولوجية فائقـة التقـدم، في انتاج ونشر الأفكار والاختراعات والإبداعات، وبلا قيـود تحـول دون تـدفق طوفـان المعـارف التي يعاني منها عالمنا المعاصر في كل الميادين والمجالات، وعـلى كـل المسـتويات، وفي القلـب منها العلم الذي يحدث- كل لحظة- اختراق قيمه وأخلاقياته، ليس فقـط فـيما يحـدث مـن سرقات، وتزوير وتزييف للنتائج العلمية في مؤسسات لها سمعتها، وفي مجتمعات عريقـة في مجال البحث العلمي، وإنما امتدت لقضايا أشـد خطـورة تتعلـق بمصـير البشريـة ووجودهـا كالتجارب السرية على الكائنات البشرية، وتلك التي تتعلـق بالهندسـة الوراثيـة، واستنسـاح الأجنة بالانتهاكات والانحيازات وصراع المصالح، بين العلم والأعمال الحـرة والصـناعة، والتـي باتت تلقى بانعاكساتها الخطيرة على قيم العلم وأخلاقياته.

عشرات الظروف والعوامل التي وضعت اخلاقيات العلم في بـؤرة اهـتمام العديـد من المفكرين والدارسين المحللين، ومنهم يفيد ب. رزينك، في كتابـه القـيم أخلاقيـات العلـم ومن اصدرات سلسلة عالم المعرفة الكويت يونيو 2005 ترجمـة د. عبـد النـور عبـد المـنعم، وقامت بمراجعته والتصدير له المتميزة القديرة د. يمنى الخولي، ونظرا لأهمية هـذا الكتـاب، نحاول في إلقاء الضوء عليـه، وذلـك بالإشـارة إلي فصـوله التسـعة، التـي يتنـاول المؤلـف في الفصل الأول منها: مدى تشابك وتفاعل واقع البحث العلمي بالعديد من القضايا الأخلاقيـة العامة ذات الحساسية بالنسبة للبشرية، كـما يتنـاول المـبررات التـي تجعـل مـن أخلاقيـات البحث العلمي مبحثا هاما في الوقت الحاضر ؟أكثر من أي وقـت مضى- وفي الفصـلين الثـاني والثالث يحاول توظيف المناهج الفلسفية في بناء أطار نظري عام لمناقشة أخلاقيات البحـث العلمي.

وذلك من خلال تناوله لقضيتين هامتين: أحداهـما النظريـة الأخلاقيـة والتطبيقات العلمية، والأخرى قضية العلم من حيث هو مهنـة. وفي الفصـول من الرابع حتى السابع يتناول بعض المجالات التطبيقية لهذا الإطار. وتتمثـل

في أربع من القضايا الكبرى في مجال أخلاقيات العلـم، وهـي: الموضـوعية في البحـث، ونشر الأبحاث العلمية، والمسألة الأخلاقية في المختبرات العلمية.

ويتناول في الفصل الثامن علاقة العالم بالمجتمع على أتساعه ورحابتـه. أمـا الفصـل التاسع فإنه يتضمن دعوة المؤلفة أو بتعبير أدق رسالة الكتـاب التـي يريـد إيصـالها إلي كـل المشتغلين بالبحث العلمي والمستفيدين منـه. وتـتلخص هـذه الـدعوة أو الرسـالة في وجـود أهمية قصوى – بالنسبة للعلم والمجتمع على السواء- في أن يتبع العلماء معايير أخلاقيـة في سلوكهم العلمي، والوعي بهذه الأخلاقيات، وأن للعلـم نتائجـه وإثـارة في البنـاء الاجتماعـي والإنساني، وأن تجاهل المعايير الأخلاقية يفسد ثمار المعلم ونتائجه، ويضر بالجنس البشري.

وهنا يطرح المؤلف بعض الآليات ذات الأهمية في تعميق السلوك الأخلاقي للعـم، يأتي في مقدمتها التعليم حيث ينظر إليه المؤلف على أنه من أهم الضمانات لسـلامة العلـم، وتعميـق أخلاقياتـه والارتقـاء بسـلوكياته. ويتـأتي هـذا بإكسـاب التلاميـذ والطـلاب هـذه الأخلاقيات والسلوكيات من خـلال دراسـاتهم عـبر المراحـل التعليميـة المختلفـة، كـما يشـير المؤلف إلي بعض الضمانات الأخرى المؤسسية ذات الأهمية في هذا المجال، ويتأتي من خـلال تشكيل هيئات وتنظيمات تقوم بالحفاظ على الأخلاقيـات وتـدعيمها، وقيـام هـذه الهيئـات والمنظمات باتخاذ القرارات المناسبة في حالة الإخلال بأخلاقيـات العلـم وسـلوكياته. العديـد من القضايا والمسائل والآليات والإستراتيجيات التي طرحها المؤلف في كتابه القـيم: للوصـول إلي علم أكثر أخلاقية وما أحوجنا إلي هذا، خاصة في ظل ما نعرفه ومـا لا نعرفـه مـن إخـلال بقيم العلم وأخلاقياته وسلوكياته، والتي باتت تشكل تهديد خطيرا لمسيرتنا العلميـة، ولـدور العلم في البناء الاجتماعي والإنساني.

رابعاً:- الفجـوة الرقميـة والتنميـة المعلوماتيـة.

بـلا مقـدمات، تؤكـد معطيـات الـعصر وشـواهده أننـا فعـلاً نعـيش عصر العلـم والتكنولوجيا، ففيه تضاعفت مردودات العمل وعوائده بمعدلات متسـارعة، متصـاعدة، غـير مسبوقة، فكل يوم يسجل المزيد من الانتصارات، وعلى كل الجبهـات، وبالدرجـة التـي بـات فيها العامل الحاسم في تشكيل العقل والواقع، على حد سواء، والمستقبل بلا منازع.

أما التكنولوجيا فلقد استطاعت أن نقلب كل الموازيين والمعدلات، وبعد أن كانت تلهث وراء العلم، بات هو يلهث وراءها، فكل يوم تضيف جديدا، وتضيق بين المسافات في كل العلوم والفنون، بين ما هو مادي ولا مادي، بين ما هو واقعي وخيالي. كما استطاعت- خاصة تكنولوجيا المعلومات- غزو كل الميادين والمجالات، والانصهار في الكيان المجتمعي، والقيام بأدوار أكثر تعقيداً بفضل قدراتها الهائلة على مختلف الظواهر، مهما كان تعقيدها.

أما من عناصر هذه الثورة العلمية التكنولوجية، ومنظوماتها وآلياتها فحدث عنها ولا حرج، فقد وصلت قدراتها حداً يفوق الخيال، وفي تكاليفها أرقاناً فلكية، وكلها تؤكد أن التعامل معها: إنتاجا، واستخداماً وتوظيفاً وتكلفة، إنما هم كبار العصر، أنها على الهامش في كل هذه الأمور، مما يكشف عن وجود فجوة عميقة بين عليه الدول المتقدمة، والدول النامية. والهوة بينهما في النفاذ إلي مصادر المعرفة، والقدرة على استغلالها، وهي الهوة التي بات يعبر عنها في خطاب التنمية المعلوماتية بمصطلح الفجوة الرقمية والتي تشكل تحدياً خطيراً يواجه الدول النامية- ومنها الدول العربية- في الانتقال إلي مجتمع المعرفة.

وهنا بفرض التساؤل نفسه: ما مدى خطورة هذه الفجوة؟ وما أهم مظاهرها؟ ما الاستجابة القادرة على مواجهة هذا التحدي؟ للإجابة عن هذه التساؤلات تأتي تلك الدراسة القيمة المبدعة التي قام بها الخبير المعلوماتي العربي نبيل على، صاحب الأعمال المتميزة في مجال تكنولوجيا المعلومات، واللغة والثقافة من منظر معلوماتي، وبمشاركة خبيرة الحاسبات والالكترونيات نادية حجازي، صاحبة العديد من الدراسات في مجال اللغويات الحاسوبية، وهندسة الاتصالات والبرمجيات التعليمية.

ولنتجاوز الحديث عن منهجية الدراسة، وعمقها العلمي، والجهد المبذول، الذي تكشفه الرجوع إلي عشرات المصادر والدراسات، واقتفاء أثر أي معلومات وبيانات يمكن أن تفيد في تناول موضوعات متعددة، شديدة الاتساع والتباين، فضلاً عن إجراء العديد من اللقاءات والحوار مع كبار المفكرين والمتخصصين لإنجاز هذا العمل العلمي الهام. والذي يمكن إلقاء الضوء عليه من خلال الإشارة الموجزة لمحتواه.

فالدراسة تتكون من فضل تمهيدي شامل عن الفجوة الرقمية التي تم تناولها على مستويين يغطيان فصول الدراسة الستة:-

- المستوى الأول: المستوى التكنولوجي، الذي يغطيه نوعان من الفجوة، أحدهما فجوة المحتمى، والآخر فجوة الاتصالات. باعتبارها يشكلان الركنين الأساسيين لمجتمع المعلومات واقتصاد المعرفة.
- المستوى الآخر: المستوى الموضوعي، ويغطيه ثلاثة أنواع من الفجوات:- فجوة العقل(وتشمل فجوات الفكر والعلم والتكنولوجيا) وفجوة التعلم وفجوة اللغة، والتي تصب ثلاثيتها في فجوة اقتصاد المعرفة.

وفي تحليل كل فجوة من هذه الفجوات الست، يطرح المؤلفان أهم مظاهر هذه الفجوة وتحدياتها، وموقع الدول العربية منها، بما يحمله هذا الموقع من مؤشرات سلبية ينبغي مواجهتها، وأخرى إيجابية يجب تدعيمها، كما يطرحان عشرات الحلول والمقترحات استهدافاً لتكوين رؤية عربية لمجتمع المعرفة، وهما في ذلك لا يرون في هذا الطرح القول الفصل إنما استثارة الفكر معارضا كان أم مؤيدا فالحلول الواقعية- كما يقولان- لا يمكن التوصل إليها إلا من خلال استنفار العقول، الدعوة للحوار، والاشتباك معهما، بالنقاش والجدل والنقد ونقد النقد، لأن هذا هو القادر على تكوين الرؤية المستهدفة، ودخول أمتنا بمجتمع المعرفة، وهي بها أحق وأقدر، ولديها من الإمكانيات الإيجابية ما يجعلها وباقتدار اجتياز تلك الفجوة، ولا خيار لنا في ذلك، في عصر لا يعترف بالضعفاء وإنما الأقوياء، وهم فقط، وليس غيرهم، والمعرفة قوة.

<u>خامساً</u>:- من أنماط التفكير غير العلمي في حياتنا العربية.

من الحقائق التي تؤكدها وقائع الماضي، وشواهد الحاضر أن نهضة الأمم وتدمها يتوقف- بدرجة كبيرة- على نوعية التفكير السائد فيها، وعلى منطق الأفكار التي تتبناها، وتعمل بمقتضاها في مسيرتها وعبر تطورها، وأنه بالعلم، والتفكير العلمي، تمكنت المجتمعات المتقدمة أن تضرب بسهم وافر في مضمار التمدن والتحضر، وأن تقطع شوطا كبيرا في عمليات البناء والتحديث، حتى وصلت إلي ما عليه الآن من تقدم مذهل في مختلف الميادين والمجالات. وفي المقابل هناك مجتمعات لم تصل بعد إلي الدرجات الدنيا، لغياب العم، وتغييب العقل، وسيادة العديد من أنماط التفكير غير العلمية، بل

وغلبة هذه الأنماط وشيوعها في الثقافة السائدة، بين الأفراد والجامعات، وفي العديد من المؤسسات. ومنها مجتمعاتنا العربية التي تعاني ثقافتها الراهنة العديد من أوجه التشوه والقصور، وتسودها عشرات الأنماط غير العلمي، مما يزيد من مشكلاتها، ويعوق انطلاقاتها نحو النهضة والتقدم.

ولقد طرحت العديد من التحليلات والدراسات الكثير من أنماط هذا التفكير، التي هي في الكثير منها من مخلفات الماضي، وبعضها بفعل التغيرات والتطورات المجتمعية التي تعيشها هذه الثقافة. من هذه الأنماط- كما تطرح دراسة حامد عمار- التفكير من خلال: الخرافة: أو الأسطورة، والخوارق التي لا تخضع لنواميس الطبيعة، أو قدرات البشر العادية، أو من خلال البطل من منطلق الاعتقاد بامتلاكه قدرات تفوق الآخرين، ومن خلال السلطة بمفهومها الواسع الشامل: فكرا كانت أم بشرا، تراثا أم معاصرة، حاكما كان أم عالما، فردا أم جماعة، تكنوقراطية أم ثيوقراطية، فكلها تشكل سلطة تعوق حركة العلم والفكر، وتعطل عمليات الإبداع والتغيير والتجديد. ومن الأنماط أيضا التفكير من خلال المنفعة الخاصة المباشرة أو غير المباشرة، على حساب المنفعة العامة، وحقوق الجماعة، ومن خلال الإسقاط على الآخر تبريرا للعجز، وتهربا من تحمل المسئولية، والتفكير من خلال الزمن ترحيلا للمشكلات وهربا من المواجهة، تاركين للزمن حلها وحسمها. إلي آخر هذه الأنماط وتجلياتها في بعض المجتمعات المتقدمة، غير أنها تشكل الاستثناء على عكس ما عليه الوضع في مجتمعاتنا العربية، والدول الأقل نموا، أو التي يطلق عليها بالدول المتخلفة.

غير أن هناك نمطا من التفكير غير العلمي أصبح المسيطر والمهيمن على العامة والخاصة، وعلى مختلف الطبقات: الحضرية والقروية، الأغنياء والفقراء، المتعلم والجاهل، المثقف والعادي، حتى العاملين في المعامل، والقائمين بالتجارب، تجد بينهم من يفكر من خلال هذا النمط، والذي نعني به التفكير من خلال الحظ أو البخت، أو النصيب، أو ما يشبهها من ألفاظ تصب في هذا النمط من التفكير غير العلمي المكرس لثقافة الخرافة التي تعني الاعتقاد في وجود قوى وأسباب غير منظورة، أو غير خاضعة لمنطق أو للطبيعة وراء حدوث الظاهرة، أو حل المشكلة، أو الحصول على نتائج معينة، وهذه القوى والأسباب لا يستطيع من يعتقد بقدرتها في تحديدها، أو التحكم

فيها. ومن ثم يمكن القول: إن الاعتقاد في الحظ- شأنه كل تفكير خرافي- يقوم على أساس من العلية غير المنطقية أو الطبيعة في الربط بين الأسباب والنتائج، دون الوعي بالشروط الموضوعية المرتبطة بها منطقيا والتي أدت إلي حدوثها، أو عدمه. ويأتي هذا الربط غير الموضوعي بين الأسباب والنتائج استنادا إلي الخبرات والرغبات الخاصة بالمعتقد فيها، بأو الصدف العارضة التي أحاطت بها. وهذا يختلف عن التفكير العلمي الذي يستند إلي العلية الطبيعية أو المنطقية، والربط بين النتائج والأسباب ربطا موضوعيا لا غيبيا ميتافيزيقيا.

ويلجأ معظم العامة والخاصة إلي هذا النمط من التفكير لأنه يحقق لديهم نوعا من الراحة النفسية والطمأنينة عند اعجز في مواجهة بعض المواقف، أو حل بعض المشكلات، فالفرد عندما يواجه خطرا أو مشكلة أو موقعا معينا، ويعجز عن تفسيره التفسير المنطقي أو الواقعي السليم، أو عن امتلاك امكانيات وقدؤات المواجهة والحل، فإن هذا قد يسبب له توترا نفسيا، أو حرجا اجتماعيا، ومن ثم فإنه – لتخفيف حدة التوتر أو الحرج- يلجأ إلي تفسير البسيط أو الحل السهل، إنه الحظ والبخت وغيرهما من التفسيرات الغيبية، البعيدة عن المنطق والواقع.

ولا شك أن وراء انتشار مثل هذه الأنماط من التفكير، والاعتقاد فيها العدد من الظروف والعوامل، منها:

- ما تحمله الثقافة العامة السائدة، والثقافات الفرعية من بقايا تفكير الماضي، التي قد تلبس أردية جديدة، لكننا إذا أزحنا الرداء الجديد وجدناها هي بذاتها بقايا خرافات الماضي السحيق.
- المحيط الاجتماعي المحيط بالفرد،والذي يلعب دورا رئيسا في تشكيل اتجاهاته وأفكاره، وإدراكه وتوقعاته.
- تعقد ظروف الحياة وصعوبتها، وتزايد الأخطار التي تهدد كيان الفرد أو الجماعة، مع الشعور بالعجز والضعف في توفير الأساليب والإمكانيات والقدرات المناسبة للمواجهة أو الحل.
- وجود قوى الردة والتخلف التي تسعى إلي ترسيخ ثقافة الخرافة تحقيقا لصالح أيديولوجية معينة.

عشرات الأسباب والظروف وراء انتشار ثقافة الخرافة ويبقى السؤال الهام كيف يمكن التغلب على هذه المفضلة الثقافية المتمثلة في شيوع أنماط التفكير غير العلمي في ثقافتنا العربية السائدة؟ ونجيب- وعلى الفور- إن الحل في مراجعة الأفكار والمعتقدات، وتخليص العقول من الرواسب الفكرية البالية، وتقبل المعارف والاتجاهات الفكرية الجديدة المتجددة. ومن قبل ومن بعد نشر ثقافة العلم: منهجا وإنتاجا، نقلا ونشرا، توظيفا، واعتباره جزءا لا يتجزأ من الرصيد الثقافي العام، وهذا يمكن أن يتحقق من خلال التعاون وترسيخه في كافة المنظومات والمؤسسات، وتتطلب- كما يقول حامد عمار- تحليل القواعد المعرفية ومنهاجه، ومقاومة غير العلمي منها، وتفسير جوانب التخلف فيه، واعتباره من عوامل الجمود في حياة المجتمع، وفي الوقت نفسه إثارة الوعي بدور العلم، والعقلية في نهضة المجتمع وتقدمه، وفي تحقيق الانجازات في مختلف الميادين والمجالات.

باختصار: إن إرساء ثقافة العلم ومناهجه، وتوظيفه للحد من هذه الأفكار والمعتقدات غير العلمية، لا يتأتي من خلال مؤسسة بعينها، وإنما هي مسئولية مشتركة بين مختلف الهيئات والمؤسسات. خاصة تلك التي يقع على عاتقها عمليات التنشئة وتشكيل العقل، وتكوين المعتقدات والاتجاهات. ويأتي في مقدمتها: الأسرة، والمدرسة، ووسائل الإعلام والتثقيف والتنوير، لما يمكن أن تقوم هذه المؤسسات من ترسيخ للعلم بقيمه ومناهجه والتفكير العلمي بمهاراته ومتطلباته واعتباره الأساس في كل الأنشطة والممارسات، على كل الأصعدة والمستويات، وفي مختلف الميادين والمجالات، مما يعمق من علمية الثقافة، ويحد من انتشار ثقافة الخرافة، فالقضية جد خطيرة، وتحتاج إلي المواجهة، كما تحتاج إلي المزيد من الحوارات والعديد من الدراسات.

سادساً:- النهضة العربية لا تتحقق إلا بالعلم(*)

تتواصل اجتماعات القادة والزعماء العرب في الجزائر.. ندعو الله أن يوفقهم في الخروج بمواقف عربية موحدة تجاه قضايانا المصرية خاصة السياسية التي تواجه فيها الكثير من التحديات.

(*) مقال منشور بجريدة الأهرام 2002/9/20

وإذا كانـت القضـايا الاجتماعيـة والثقافيـة والعلميـة لا تحظـي بـالاهتمام الكـافي عـلى مستوى اجتماعات القمة، فإن هـذا لا يحـول دون اهـتمام الأجهـزة المعينـة المختصـة عـلى مستوى الجامعة العربية ومؤسساتها ومنظماتها والإعلام العـربي لتنـال نصـيبا مـن الاهـتمام خاصة وأنه من الحقائق التي تكدها وقائع الماضي وشواهد الحاضر أن نهضة الأمم وتقدمها يتوقف- بدرجة كبيرة- على نوعية التفكير السائد فيها وعـلى منطلـق الأفكـار التـي تتبناهـا وتعمل بمقتضاها في مسيرتها وعبر تطورها وأنه بـــ العلـم، والتفكـير العلمـي، تمكنـت بعـض المجتمعات أن تضرب بسهم وافـر في مضـمار التمـدن والـتحضر وأن تقطـع شـوطاً كبـيراً في عمليات البناء والتحديث، حتى وصلت إلي ما هو عليـه الآن مـن تقـدم مـذهل في مختلـف الميادين والمجالات. وفي المقابل هناك مجتمعات لم تصل بعد إلي الدرجات الدنيا مما وصلت إليه غيرها من رقي وتقدم، لغياب العلم وتعقيب العقل، وسيادة العديد من أنماط التفكـير غير العلمية بل وغلبة هذه الأنماط وشيوعها في الثقافة السائدة بين الأفراد والجماعـات، وفي العديد من المؤسسات وهذا ما يصدق- وإلي حد كبير- على مجتماعتنا العربية، حيث تعـاني ثقافتها العربية، حيث تعاني ثقافتها الراهنة العديد مـن أوجـه التشـوه والقصـور وتسـودها عشرات الأنماط من التفكير غير العلمي.

مما يزيد من مشكلاتها ويضاعف منهـا، خاصـة إذا وضـعنا في الاعتبـار مـا تعانيـه مـن مخلفات الماضي، وأزمات الحاضر وتحديات المستقبل.

ولقد طرح العديد من التحليلات والدراسات الكثير من أنماط هـذا التفكـير، غـير العلمي، السائدة في ثقافتنا العربية، الراهنة، والتي هي في الكثير منهـا مـن مخلفـات الماضي، وبعضها بفعل التغيرات والتطورات المجتمعية التي تعيشها هذه الثقافـة مـن هذه الأنماط التفكير من خلال: الخرافـة: أو الأسـطورة والفروسـية ممثلـة في تضـخيم الذات والمغامرة غير المحسوبة، ومن منطلق الاعتقاد بامتلاكه قدرات تفوق الآخرين. والتفكير من خلال السلطة بمفهومها الواسع الشامل لكل أنواعها: فكراً كانت أم بشراً، تراثا أم معاصرة حاكماً كان أم عالماً، فرداً أم جماعة، تكنوقراطية أم ثيوقراطية، فكلهـا يمكن أن تشكل سلطة تعرق حركة العلم والفكـر، وتعطـل عمليـات الإبـداع والتغيـير والتجديد. ومـن الانمـاط أيضـاً التفكـير مـن خـلال المنفعـة الخاصـة المبـاشرة أو غـير

المباشرة، على حساب المنفعة العامة. وحقوق الجماعة، ومن خلال الإسقاط على الآخر تبريرا للعجز، وتهربا من تحمل المسئولية، ومن خلال الرومانسية زهوا وفخرا بإنجازات ماضية، حقيقية ومتوهمة، ومن خلال الهرب بمعناه الواسع الشامل لكل أنواعه: من خلال الزمن ترحيلا للمشكلات وهرباً من المواجهة تاركين للزمن حلها وحسمها. إلي أخر هذه الأنماط من التفكير غير العلمي، السائدة في ثقافتنا العربية.

إن التقدم الاجتماعي والثقافي والعلمي يعمل ولا شك على الحد من مثل هذه الأنماط من التفكير والاعتقادات، أو على الأقل تقليصها صحيح أنها التقدم لكن يمكن مواجهة هذه العقبة من خلال عمليات التنوير وإثارة الوعي، ومراجعة الأفكار والمعتقدات، وتخليص العقول من الرواسب الفكرية البالية، وتقبل المعارف والاتجاهات الفكرية الجديدة المتجددة باختصار لابد من إحداث تغيير وتجديد في المنظومة المجتمعية والثقافية وإحداث هذا التغيير- كما يؤكد العديد من الدراسات- لا يتأتي إلا عن طريق العلم: منهجا وإنتاجاً. ونقلا ونشراً، وتوظيفاً، واعتباره جزءا لا يتجزأ من الرصيد الثقافي العام.

وهذا يمكن أن يتحقق من خلال التعاون وترسيخه في كافة المنظومات والمؤسسات العربية وتتطلب تحليل القواعد المعرفية ومناهجها السائدة في ثقافتنا بهدف تعزيز ما يلتزم منه بقواعد العلم ومناهجه، ومقاومة غير العلمي منها، وتفسير جوانب التخلف فيه، واعتباره من عوامل الجمود في حياة المجتمع وفي الوقت نفسه إثارة الوعي بدور العلم، والعقلية اعلمية في نهضة المجتمع وتقدمه وفي تحقيق الإنجازات في مختلف الميادين والمجالات.

باختصار: إن إرساء قواعد العلم ومناهجه، وتوظيفه للحد من هذه الأفكار والمعتقدات غير العلمية، لا يتأتي من خلال مؤسسة بعينها، وإنما هي مسئولية تلك التي تقع على عاتقها عمليات التنشئة وتشكيل العقل، وتكوين المعتقدات والاتجاهات خاصة وسائل الإعلام والتثقيف والتنوير، لما يمكن أن تقوم به هذه المؤسسات من ترسيخ للعلم بقيمه ومناهجه والتفكير العلمي بمهاراته ومتطلباته واعتباره الأساس في كل الأنشطة والممارسات على كل الأصعدة والمستويات، وفي مختلف الميادين والمجالات.

فالقضية جد خطيرة وتحتاج إلي المواجهة.

سابعاً:- ثقافة اللحاق بركب عصر العلم والتكنولوجيا(*)

تؤكد معطيات الواقع وشواهده، أننا نعيش بالفعل عصر "العلم" ففيه- تقول يمني طريف الخولي- تضاعف مردوداته وحصائله، بمعدلات متصاعدة غير مسبوقة، وبالدرجة التي جعلت منه العامل الحاسم في تشكيل العقل والواقع على السواء ولم لا؟

والعلم – يقول نبيل على- يسجل المزيد من الانتصارات وعلى كل الجبهات، نراه يسحق المكان. ويفتت الزمان، ويخترق فضاء المجرات الكونية، ويحيط باللام عما يكمن داخل الذرة والخليقة، ويغوص منقباً عن دخائل النفس البشرية، وخفايا البني الاجتماعية، غير هياب لما يحدثه من صدمات المتدينين، ومن تدميرات بيئية وحيوانية، بل وبشرية، لا يعاني منها- في الغالب الأعم- إلا ملايين الفقراء العوزين في تلك الدول المسماة بدول الجنوب.

كما أننا نعيش عصر التكنولوجيا وفي القلب منها تكنولوجيا المعلومات والاتصالات ولم لا – وقد استطاعت- يقول نبيل على أيضاً- أن تقلب الموازين والمعادلات، بما تحمله من أرقام ورموز وشفرات، وبعد أن كانت تلهث وراء العلم تجسد أفكاره، وتطبق اكتشافاته، بات العلم نفسه يلهث وراءها، ويعدل من قوانينه ونظرياته، وفقاً لما تزوده من بيانات ومعلومات، وبعد أن رأها تضيف كل يوم جديداً، وتضيف من المسافات بين ما هو فيزيائي وبيولوجي، وما هو مادي ولا مادي، وما هو واقعي وخيالي، حتى أصبح للخيال هندسة وعوالمه الرمزية، وكائناته الرقمية، وكتبت النهاية لعشرات المفاهيم والمؤسسات، بات الحديث يعلو عن نهاية امكان والزمان، المدرسة والجامعة، الكتاب والمؤلف والمطبعة، العمال والسماسرة. كما طرحت عشرات الماعديات على مثال ما بعد الصناعة، ما بعد الحداثة، حتى ما بعد الإنسانية، بات شعارا مطروحاً- وأكثر منها طرحاً العديد من المنفيات بلا على شاكله مصانع بلا عمال، تعليم بلا معلمين، كتابة بلا أقلام، مدارس بلا أسوار، وغيرها من ثلاثية المنفيات والنهايات والمابعديات التي تشير في مجملها إلي إعلان القطعية مع ما هعو ثابت، وما مضى مفضلة عليه الدخول في ظلمة آت مجهول، يجنبها الرجوع إلي سالف معروف، أو حاضر سرعان ما يتحول إلي

(*) مقال منشور عى حلقتين بجريدة روزاليوسف اليومية بتاريخ 11، 2006/6/14

ماض قبل أن ينتهي نهاره، ولم لا؟ وفيه تتقادم الأشياء قبل استخدامها، بفعل التسارع المتزايد في مجال إنتاج تكنولوجيا المعلومات والاتصالات إذ نحن نعيش عصرا أقل ما يوصف به أنه عصر التحديات الذي لا مكان فيه إلا للأقوياء القادرين على المشاركة في صنعة وتوجيه.

في الاتجاه الذي يرغبون فيه ومن ثم لا خيار لنا إلا اللحاق بركبه، ليس فقط عن طريق التوظيف والإستخدام الأمثل لعناصره وتقنياته، دائماً أيضاً عن طريق الانتاج لعناصر وتقنيات أخرى، قادرة على التعامل مع ما يقرضه العصر من تحديات.

ومع التسليم بضرورة توافر عشرات الآليات، الخطط والاستراتجيات، الهيئات والمؤسسات إلا أننا نري أنه يصعب على كل العناصر تحقيق مهامها دون بنية ثقافية توفر المناخ المناسب للقيام بعملها، وتوظيف أفكارها.

أن وجود هذه البنية الثقافية تفرضه العديد من الاعتبارات التي تشكل في مجملها أبعاداً ثقافية بالمفهوم العام للثقافة من هذه الاعتبارات:-

1- إن المعرفة الحقة القادرة على التغيير والتطور والانتاج التكنولوجي هي في المقام الأول منتج ثقافي: فهما وإدراكا، اجراء وإنتاجا، تطبيقاً وتوظيفاً وهي بهذا تختلف عن المعلومات صحيح أن المعلومات تعبر عن الأساسيات التي تعتمد على المعرفة، لكنها ليست هي المعرفة بمتطلباتها وإجراءاتها، التي تتلخص- فيما يطلق عليه نبيل على- الدورة الكاملة لاكتساب المعرفة" من حيث النفاذ إلي مصادرها واستخلاصها وتنظيمها، وهذا يشير إلي أن توافر المعلومات وحشدها لا يعني بالضرورة توافر المعرفة بمعناها الحقيقي الذي يؤهل البشر لمواجهة عالم الواقع، شديد التعقيد سريع التغير.

2- إنتاج هذه المعرفة واكتسابها لا يمكن تحقيقه إلا من خلال العلم" محتوى، ومنهجاً موضوعا وطريقة تفكيره.

ولا يمكن الاعتداد بنتائجه وتطبيقاته وحدها، وإنما أيضاً بما يتركه من تفكير وعقلية علمية منظمة في كل الممارسات والمجالات، العامة منها والخاصة، بحيث تكون مشاعاً بين كل الناس، وتظهر في سلوكياتهم وتصرفاتهم وأعمالهم وحياتهم. إنها باختصار ثقافة العلم بكل

ما يفرضه من منهجية منظمة متحررة من كل القيود والخرافات، وتقبل العلم والتعامل مع إنجازاته ومعطياته، وهي الثقافة التي ينبغي أن تغلغل في النسيج الثقافي، وتنفذ إلي كل عناصره ومكوناته فالنهضة والتقدم- يقول عابد الجابري- هي العلم حين يصبح ثقافة، أو هي الثقافة حين يؤسسها العلم، وبدون هذا يبقي العلم كالجسم الغريب في محيط لا يؤسسه ولا يقاس عليه.

3- إن نتائج عشرات التحليلات والدراسات وشواهد الواقع ومعطياته تؤكد أن عالمنا العربي يعاني العديد من المعوقات والعقبات ذات الصبغة الثقافية التي تضف عقبة في طريق الأخذ بالعلم،وشيوع التعصب وضيق الأفق، وهيمنة فكر "السلطة" بكل أشكالها وصورها، ثقافية وسياسية واجتماعية.

- سيادة التربية التلقينية على حساب الإبداع ومهارات التفكير النقدي.

- عدم توافر الظروف المناسبة لاستهلاك المعرفة وتوليدها وإنتاجها، ومن ثم ضعف الطلب عليها.

وغيرها من المعوقات التي تشكل إنكارا لقدرات العقل، وعدم الثقة فيه، وهي معوقات لا يختص بها عامة الناس، وإنما توجد- بشكل أو بآخر- لدى اتنمية الخاصة مما يعمل على الحد من قدراتنا على التفكير العلمي في أمور حياتنا، ومن انطلاقة الفكر والثقة في العقل، وتقبل العلم.

ناهيك عن عشرات المعوقات التي تاتي من الخارج، وتحول دون الحصول على المعرفة ذات القيمة الحقيقية، بسبب القيود التي تفرضها الدول الأكثر تقدماً عن الدول الأفقر والأضعف، والعمل على توجيه مسار هذه المعرفة وجهة بعيدة عن متناول هذه الدول المغلوب على أمرها. ويؤكد نبيل على هذا الأمر بما ورد في تقرير التنمية الإنسانية الصادر عن برنامج الأمم المتحدة من أن مساهمات الدول النامية في البحث العلمي قد تقلصت من 6% في الثمانينات إلي 4% في التسعينيات في القرن العشرين، ويتوقع التناقص ف السنوات الأخيرة بفعل عبث قوي الهيمنة بمقدرات الشعوب، وعمليات القهر الذي تقدم به في مختلف الميادين والمجالات.

وهنا نقول أن هذا الوضع المأزوم والخطير الذي تعاني منه الأمة العربية، لا يعني الاستسلام، أو ترك الساحة، لأن هذا معناه التهميش

والاستبعاد، وهو أمر يتنافي مع دورها الحضاري، وعمقه التاريخي، والتطلع إلي مستقبل أفضل. بالإضافة إلي أن الأمة العربية، تعيش لحظة فارقة في تاريخها في ظل محاولات الهيمنة والسيطرة التي تتعرض لها المنطقة من قبل الغرب الأمريكي، والعدو الصهيوني، ومن ثم لاخيار لنا إلا التفكير جدياً في وضع الآليات القادرة على مواجهة هذه التحديات، وهو أمر يمكن تحقيق، خاصة وأن لدينا من الإمكانيات البشرية والمادية مما يساعدنا على تحقيق هذا الأمر.

وفي كل الأحوال نرى أنه من المهم في هذا المجال، توافر:-

- البنية الثقافية الداعمة للعلم ومناهجه وطرائقه، وترسيخ العقلية العلمية، وهنا يأتي دور المؤسسات الثقافية والتربوية والتعليمية في دعم هذه الثقافة، وتكوين هذه البنية.

- البنية المعرفية التكنولوجية التي تستهدف تفعيل البحث العلمي وتطويره وتوظيفه، وتكوين الكوادر العلمية المتميزة، وهذه مسئولية المؤسسات العلمية والبحثية، الجامعية منها وغير الجامعية.

- اعتبار الإنسان أي عمل تنموي، ومن ثم لابد من القيام بعمليات تنمية بشرية حقيقية، من خلال مفاهيم وآليات قادرة على إعداد هذا الإنسان للتعامل مع عصر العلم والتكنولوجيا ليس فقط من خلال الاستخدام والتوظيف، وإنما أيضاً من خلال الإبداع والإنتاج للمعرفة العلمية والتطبيقات التكنولوجية.

ثامناً:- المحددات والشروط الموضوعية للدخول في عصر المعلومات[*]

كان متوقعا أن يشارك الرئيس مبارك- بنفسه- في مؤتمر جنيف للمعلومات، لا باعتبار المؤتمر أكبر تجمع دولي يعقد بهذا الخصوص حسب، وإنما ليضفي على هذه المناسبة أهمية خاصة تتعلق بمصر ودورها الهام في صياغة مجتمع المعلومات، وانظر إليها كمحور ارتكاز أساسي في وضع هذه الصياغة موضع التطبيق على المستويين المحلي والإقليمي، وإمكانية المشاركة في هذه الصياغة على المستوى العالمي. وقد تخضع ما طرحه الرئيس مبارك من رؤى وتصورات للتحليل من قبل بعض أهل

(*) مقال منشور بجريدة الأهرام الاقتصادي بتاريخ 2004/1/26

الاختصاص، وإن كنا إلي المزيد منه لأهمية الطرح، وأهمية موضوعه، وما يفرضه من شروط وظروف موضوعية ضرورية لتوفير المناخ المناسب للدخول في هذا العصر، وتحويل إنجازاته إلي واقع ممارس في مختلف الميادين والمجالات، ليس فقط عن طريق التوظيف والاستخدام الأمثل لعناصره وتقنياته، وإنما أيضا عن طريق الإنتاج لعناصر وتقنيات أخرى قادرة على التعامل مع ما يفرضه العصر من تحديات.

وفي هذا المقال نحاول طرح بعض المحددات والشروط الموضوعية للدخول في هذا العصر، مع التركيز قدر الإمكان على المحددات والشروط الثقافية، والتي تشكل في مجملها بنية تحتية ثقافية من الضروري توافرها في هذا المجال، ويأخذ المقال منحنى منهجيا معينا، يتلخص في الطرح العام لهذه المحددات والشروط، وما عليه الوضع بالنسبة لنا، وما يفرضه هذا الوضع من تحديات ينبغي مواجهتها. وفيما يلي ما نود طرحه، وفقا لهذه المنهجية.

أولا: الطرح العام للمحددات والشروط، ويتلخص في الآتي:

أ- إن من أهم ما تتميز به تكنولوجيا العصر، اعتمادها على العلم والمعرفة، وهي بذلك تختلف عن تكنولوجيا الماضي، حيث كانت تعتمد قبل ظهور العلم على الخبرة، وممارسات الحياة اليومية. بل لم تكتسب هذا المفهوم إلا بعد ظهور العلم، حيث كان له الفضل في تطويرها وتعقيدها. وبات الأساس لكل تطور تكنولوجي، وفي الوقت نفه يدين العلم لما توفره من تقنيات باتت أساسية وضرورية للتقدم العلمي، وإنتاج المعرفة العلمية. وتأتي تكنولوجيا المعلومات لتزيد من عمق هذه العلاقة، بل- وكما يقول نبيل على- تحدث تغيرا جذريا في خريطة توزيع المعرفة الإنسانية، فقد هدمت الحواجز الفاصلة بين المعارف الإنسانية المختلفة، ولتكون قاسما مشتركا بين جميع الأنشطة الإنسانية، المادية منها وغير المادية، فانصهرت تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في كيان المجتمع الإنساني. وأيا كان الأمر فإن العلاقة الجدلية بين العلم والتكنولوجيا، والمزاوجة بينهما باتت من أهم سمات العصر، والمصدر الأول لقدرة إنسان هذا العصر.ب- إن هناك فروقا جوهرية بين ما هو معرفي، وما هو معلوماتي. صحيح أن المعلومات باتت من الأساسيات التي لا يمكن الاستغناء عنها في تحليل العمليات المعرفية، لكنها ليست المعرفة بمتطلباتها وإجراءاتها، التي تتلخص- فيما يطلق عليه نبيل

علـى- بالـدورة الكاملـة لاكتسـاب المعرفـة، مـن حيـث النفـاذ إلي مصـادرها واسـتيعابها واستخلاصها، وتنظيمها، وإهلاك القديم منها وإجلال الجديد محلها. وهذا كلـه يشـير إلي أن توافر المعلومات وحشدها لا يعني بالضرورة توافر المعرفـة بمعناهـا الحقيقـي الـذي يؤهـل البشر لمواجهة عالم الواقع، شديد التعقيد، سريع التغير، وهو المعني الذي جعل منهـا أوسـع وأعم، لتشمل كل المعارف الإنسانية دون الاقتصار على مجال معين.

ج- أن إنتاج هذه المعرفة واكتسابها يشكل الأساس للتعامل مع عصر تكنولوجيا المعلومـات والاتصـالات، وكلاهـما لا يمكـن تحقيقـه إلا مـن خـلال العلـم: محتـوى، ومنهجـا، موضـوعا وطريقة؛ فلا يمكن الفصل بين العلم كحقائق ونظريات، مفـاهيم وافتراضـات، وبـين منهجـه وطريقة تفكيره، فالعلم ليس فقط بنتائجه وتطبيقاته وتوظيفـه، وإنمـا أيضـا بمـا يتركـه مـن تفكير، ومنهجية، وعقلية علمية منظمـة مبثوثـة في كـل المجـالات والممارسـات، بـين العامـة والخاصة فالعقلية العلمية لا تقتصر على العلماء وأهل الاختصـاص، وإنمـا ينبغـي أن تكـون مشاعا بين جميع الناس، وتظهر في سلوكياتهم وتفكيرهم، وأعمالهم، وحياتهم. إنها باختصـار التفكير المنظم المتحرر من القيود والخرافات ومن ثم تقبـل العلـم، والتعامـل مـع إنجازاتـه ومعطياته.

وفي هذا الصدد نقول: إننا لسنا بحاجة إلي التأكيد على أهمية الأخذ بالعلم، وتمثل مناهجه، وشيوع العقلية العلمية، وبالتالي ضرورة تغلغله في النسيج الثقافي، ونفـاذه إلي كـل عناصرها ومكوناتها، فالنهضة والتقدم والتنمية الحقة- كما يقول عابد الجابري- هـي العلـم حين يصبح ثقافة، والتخلف هو العلم حين ينفصل عن الثقافة حين لا يؤسسها العلـم، حتـى ولو كان موجودا- بإنجازاته ومعطياته- لأنه سيبقى كالجسم الغريـب في محـيط لا يؤسسـه ولا يتأسس به.د- إن تغلغل العلم وشيوع العقلية العلمية في جسـم الثقافـة يتطلـب تـوافر مناخ وظروف أخرى مناسبة، يأتي في مقـدمتها: الحريـة بمعناهـا الواسـع، فـالعلم إبـداع، ولا إبداع بدون حرية تتيح الفرد اقتحام آفاق المجهول، وسير أغوار مختلـف جوانـب الحيـاة، دون حـدود أو قيـود، الالتزامـات باتـت ضروريـة في ظـل الطوفـان الهـادر مـن المعـارف والمعلومات، وظهور معارف وتكنولوجيا جديدة اخترقت الحجب والأستار، مما دفع الـبعض إلي الاعتقاد بأن قيم العلم وأخلاقياته مهددة بالاندثار.

هـ- إنه مع كل الأهمية المعطاه لتكنولوجيا العصر، ودورها في النهضة والتقدم، فإن هذه الأهمية تتوقف على مدى وعي من يتعامل معها، وكيفية استخدامها وتوظيفها، والاستفادة منها. فامتلاكها ليس غاية في حد ذاته، وإنما هي وسيلة، وسلاح ذو حدين، تتوقف أهميته واستخدامه على نوعية وكفاءة المستخدم له. وهنا يأتي دور الإنسان في التوظيف والاستخدام، فمهما كانت درجة تعقيدها فإنها تظل دوما طيعة في يد صانعها، ومستخدمها، ولعل في مقولة نوربرت فينر(مكشف اليبرنطيقيا) أعط للإنسان ما للإنسان، وما للعقل الالكتروني للعقل الالكتروني. ما يؤكد هذه الحقيقة.

ثانياً:- بالنسبة لما عليه الوضع العربي، فيمكن تلخيصه في الآتي:

أ- إن هناك العديد من المعوقات والعقبات الداخلية- ذات الصبغة الثقافية- التي تقف في طريق الأخذ بالعلم، وشيوع العقلية ، يأتي في مقدمتها:

1- انتشار الخرافات بكل أساليبها وأنواعها. وهيمنة فكر السلطة بكافة أشكالها وصورها، وإنكار قدرة العقل، وعدم الثقة فيه، وشيوع التعصب، وضيق الأفق، وغيرها من المعوقات التي لا يختص بها عامة الناس، وإنما- بدرجة أو بأخرى- توجد على مستوى الخاصة والنخبة، مما يعمل على الحد من قدرتنا على التفكير في أمور حياتنا ومجتمعاتنا، ويعوق انطلاقه الفكر والثقة في العقل، وتقبل العلم.

والأخطر من هذا وذاك هو ربط هذه المعوقات والعقبات بالدين- خاصة ما يتعلق منها بالخرافة- وهو منها براء ولسنا بحاجة إلي تأكيد هذه البراءة، ويكفي أن العقل هو مناط التكليف، وأن هناك عشرات الآيات الكريمة التي تحث على التفكير والتدبير، وليس فقط على العلم، وإنما على الراسخ منه.

2- كما أن هناك معوقات وعقبات أخرى داخلية تحول دون اكتساب المعرفة يلخصها لنا نبيل على في:

- عدم قدرة السياق المؤسسي الحالي على امتصاص المعرفة، وعلى الذكاء روح البحث عنها، وتنمية الدوافع لتوظيفها.
- سيادة التربية التلقينية على حساب مهارات التفكير الأساسية.
- عدم توافر الظروف المناسبة لاستهلاك المعرفة وتوليدها وإنتاجها.
- ضعف الطلب على المعرفة من قبل الحكومات، ومؤسسات الإنتاج.

- اعتماد المعرفة- في عصر المعلومات- على التكنولوجيا المتقدمة، مما يجعل من إنتاجها وتوظيفها رهنا بمستوى التقدم التكنولوجي، وهذا يقلل من إسهامات مؤسسات البحث والتطوير. يضاف إلي ذلك أن كثيرا من قطاعات الإنتاج والخدمات لم تصل بعد إلي مستوى النضج التكنولوجي الذي يجعلها قادر على إنتاج المعرفة الجديدة.

ب- وجود بعض المعوقات والعقبات الخارجية التي تحول دون الحصول على المعرفة ذات القيمة الحقيقية وذلك بسبب القيود التي تفرضها الدول الأكثر تقدما على الدول الأفقر والأضعف،(وهي في معظمها بلدان العالم النامي)، والعمل على توجيه مسار هذه المعرفة، بعيدا عن متناول هذه الدول إلي حد ينذر باستبعادها تماما من المساهمة الفعالة في التطور العلمي التكنولوجي. ويؤكد نبيل على هذا الأمر بما ورد في تقرير التنمية الإنسانية الذي أصدره برنامج الأمم المتحدة أن مساهمات الدول النامية في البحث العلمي قد تقلصت من 6% في الثمانينيات إلي 4% في تسعينيات القرن العشرين.

وهذا يشير إلي أن عمليات التنمية المعلوماتية في هذه الدول النامية تنطوي على تحديات جسام، وأخطار يصعب التنبؤ بها. وعلى مستوى الوطن العربي فإن الوضع أشد خطرا لما يعانيه من أزمات حادة تتمثل في انخفاض معدل الأداء الاقتصادي، وتراجع مؤشرات التنمية الاجتماعية مقارنة بالدول النامية الأخري، مع تفاقم المديونية الخارجية وأعبائها، يضاف إلي ذلك أن المنطقة العربية، لا تقع في مجال التأثير المباشر للمراكز المتقدمة في مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، على خلاف الوضع بالنسبة للدول الأخرى المجاورة لهذه المراكز، عشرات العقبات والمعوقات الداخلية والخارجية التي تزيد من حدة الأزمة التي تواجه الوطن العربي، وتحول دون انطلاقه معرفيا وتكنولوجيا، أو الدخول في عصر المعلومات.

ثالثاً: إن هذا الوضع المأزوم الذي يعاني منه وطننا العربي

لا يعني الاستسلام أو ترك الساحة، لأن هذا معناه التهميش والاستبعاد. وهو أمر يتنافى دوره الحضاري، وعمقه التاريخي، والتطلع إلي المستقبل، خاصة وأن الأمة العربية تعيش لحظة تاريخية فارقة في ظل محاولات الهيمنة والسيطرة التي تتعرض لها المنطقة من قبل الغرب

الأمريكي، والكيان الصهيوني، ومن ثم لا خيار لنا إلا التفكير جديا في وضع الآليات القادرة على مواجهة هذه التحديات، والدخول في عصر تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، وهو أمر يمكن تحقيقه، خاصة وأن لدينا من الإمكانيات الثقافية والبشرية والمادية ما يساعدنا على تحقيق هذا الأمر.

وفي كل الأحوال نرى أنه من المهم في هذا المجال توافر:

- بنية تحتية ثقافية داعمة للمعلم ومناهجه وطرائقه، وترسيخ العقلية العلمية، ومهارات التعامل مع تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، وهنا يأتي دور المؤسسات الثقافية والتعليمية والتربوية في دعم هذه الثقافة، وتكوين هذه البنية.

- بنية تحتية معرفية وتكنولوجية تستهدف تفعيل البحث العلمي وتطويره، وتوظيفه وتكوين الكوادر العلمية المتميزة وهذه مسئولية الأجهزة والمؤسسات العلمية والبحثية، وفي مقدمتها الجامعات ومؤسسات البحث العلمي في الوطن العربي.

- عملية تنمية تكنولوجية ومعلوماتية تتم في إطار التنمية المجتمعية الشاملة والمستديمة.

- تنمية بشرية أساسها الإنسان وسيلة وغاية، على أن تتم وفق مفاهيم وآليات قادرة على إعداده لمواجهة عصر المعلومات عشرات الشروط والظروف، الآليات والإجراءات التي يمكن طرحها في هذا الصدد، واختيار مدى فاعليتها وجدواها للدخول في عصر المعلومات، وهذا يحتاج إلي المزيد من الجدل والحوار.

<u>تاسعاً</u>:- علمية الثقافة والثقافة العلمية(*)

فى أطار ما يدور من حوار حول "الثقافة العلمية" يأتى هذا المقال. وبداية نقول: إننا- وبالتأكيد- لسنا بحاجة إلى طول فى إثبات أننا نعيش عصر العلم والتكنولوجيا، حيث تضاعفت فى هذا العصر مردودات العلم وحصائله وعوائده بمعدلات متصاعدة غير مسبوقة، وبدرجة بات العلم فيها- كما تقول يمنى الخولى- العامل الحاسم فى تشكيل العقل والواقع على السواء. كما بات الفاعل المؤثر- وبلا منازع- فى تشكيل ثقافة المستقبل، ولم لا؟ ويتساءل نبيل على- والعلم يسجل لنا كل يوم العديد والمزيد من الانتصارات، وعلى كل

(*) مقال منشور بجريدة الأهرام 2003/12/5

الجبهات، نراه يسحق المكان ويفتت الزمان، ويخترق فضاء المجرات الكونية، ويحيط باللثام عما يكمن داخل الذرة والخلية، ويغوص منقبا عن دخائل النفس البشرية وخفايا البنى الاجتماعية، غير ميال أو هياب لما يحدثه من صدمات لمشاعر المؤمنين المتدينين، ومن تدمير بيئيا وحيوانيا، بل وبشريا، لا يعاني منها في الغالب الأعم إلا ملايين الفقراء المعوزين في تلك الدول المسماة بدول الجنوب.

أما عن التكنولوجيا- أوالثقافة- خاصة تكنولوجيا المعلومات- فحدث ولا حرج، فقد غزت كل الميادين والمجالات، وتأثرها واضح على كل الجبهات، وعلى مختلف الأصعدة والمستويات، وأخذه- مع التزايد المستمر- في الانتشار والانصهار في الكيان المجتمعي، والقيام بأدوار أكثر أهمية وتعقيدا، خاصة- كما يقول نبيل على- على جبهة الثقافة، وذلك بفضل قدراتها على احتواء اللكم الهائل من البيانات الأزمة للتعامل مع الظواهر المعقدة، ودورها في التكامل المعرفي بتضييق الفجوة بين العلوم والفنون والمعارف والخبرات، وأيضا دورها في صناعة الثقافة، بعد أن أصبحت الشغل الشاغل للجميع.

باختصار: بالثقافة والثقافة بات يتشكل عالم اليوم، وبهما أيضا تتم الهيمنة والسيطرة: اليوم وغدا.

وفي كل الأحوال لا مناص لنا من التعامل مع معطيات العصر، وانجازاته العلمية والتكنولوجية، لا من باب الاستمتاع والاتباع، وإنما من باب الإبداع والمشاركة الفاعلة في هذا الإنجاز.

من هنا تأتي أهمية الحديث عن الثقافة العلمية وعن علمية الثقافة باعتبار هذه وتلك من الشروط الضرورة لانبات العلم، ونموه، إثماره وازدهاره، وتوفير المناخ الملائم لتوظيف تكنولوجيا العصر، واستخدامها في كل المجالات والميادين.

فالثقافة العلمية باتت من ضرورات العصر ولا تقتصر- كما يرى اسامة الخولي- وكما هو شائع على أمور تبسيط العلوم والإلمام بأخر انجازات العلم والتكنولوجيا، وإنمات تعني تثقيف غير العلميين علميا، وتوعية المعلميين ثقافيا، بل وعلميا أيضا، فعلماؤنا- كما يقول نبيل على- بحاجة إلي تثقيف علمي يحررهم من اسر تخصصهم الضيق، ويسير فجوات الفراغ

الفكري لديهم، ويجنبهم الانغلاق في ثقافة احادية الابعاد،أو اختزال العالم ومشكلاته في عدد محدود من المقالات والمسلمات أو الوقوع في فخ شبه العلم والسطحية العلمية.

أما بالنسبة لعلمية الثقافة فأن غاية ما نقصده هو تفليح الثقافة العربية تقيم العلم وأخلاقياته، وأن ينبث التفكير العلمي في كل جنباتها، وينسل في ك شرايين المجتمع ويصبح موجها لسلوكيات أفراده وجماعاته، هيئاته ومؤسساته ليصبح هذا التفكير- في النهاية- نمطا سلوكيا ممارسا على مستوى الحياة اليومية.

فالتفكير العلمي- كما يقول شيخنا حامد عمار- لا يتوافر لدينا ولم يصبح بعد ذهنية عادة شائعة، أما عكسه فهو الشائع واسع الانتشار.: وهذا العكس الشائع يتمثل في العديد من الأنماط غير العلمية كالتفكير من خلال تضخيم الذات، أو الخوارق التي لا تخضع لنواميس الطبيعة، أو قدرات البشر العادية، أو انساق الحياة المألوفة، أو من خلال المنفعة والمصالح الشخصية، أو الاسقاط على الخارج، أو تحميل الواقع، أو الأحداث تبعه الأفعال والأعمال إلي آخر هذه الانماط التي باتت تغلف حياتنا على مستوى العامة والخاصة مع وجود استثناءات قليلة.

أما نبيل على- فيري أن فكرنا العربي- على مختلف الجبهات، فكر نقليدي، سطحي، دوجماتيقي استسلامي دمجي، رجعي هرومي، توفيقي، فردي،احداي، سرمدي، جزئيى، ينزع إلي الخطبة المفرطة، وفقدان المنهجية القادرة على التعامل مع العناصر، والعلاقات المتعددة، ومهارات التفكير الشبكب، والمسارات التي تربط بين المدخلات والمخرجات.كما أن ينزع إلي التخصصية الضيقة التي لا تحاول عبور الحواجز بين نوعيات المعرفة المختلفة، وإلي القاطع المحدد المحكم، ويفزع من مواجهة الزائع والمحتمل والمتداخل والمتشابه وينحاز إلي الثابت على حساب المتغير، والسائد على حساب المتجدد، ويلح على الإجماع والاتباع وينفر من الاختلاف والابداع. كما يفزع من التعامل من ظواهر"السلب" ونزع إلي الموجب ومن ثم يفزع من لا وينزع إلي نعم.

إلي آخ هذه القائمة من الصفات المهيمنة المسيطرة على فكرنا وثقافتنا، والتي تبعدنا كثيرا عن المنهجية العلمية اللازمة لا نتاج فكر يسهم

في اثراء المعرفة، مما يؤكد حاجتنا إلي علمية الثقافة بمفهومها الواسع الشامل لمختلف جوانب الحياة: المادية والمعنوية. حتى يستطيع التعامل والتفاعل مع عصر العلم والتكنولوجيا. وهذه مسئولية كل المؤسسات العلمية والثقافية، ومؤسسات التنشئة الاجتماعية، وفي القلب منها التربية مدرسية كانت أم غير مدرسية.

عاشراً:- قضية المدرسة العلمية المصرية(*)

تأتي مناسبة طرح هذا التساؤل في إطار ما أثير على هذه الصفحة من مناقشات حول المدرسة العلمية المصرية سواء أكان نقاشا حول أسباب ضعفها، أم كان نفيا لوجودها بالمرة، لأسباب لا تتعلق بالظروف والشروط الموضوعية المعوقة، وإنما لتبعية فكرنا للعلم الغربي، أو على حد تعبير الباحث المجتهد د. يوسف سيد محمود في مقال له على هذه الصفحة لوقوع مفكرينا وأدبائنا وعلمائنا وجامعاتنا في الخطيئة التي حالت دون فاعلية الفكر، ودون وجود مدرسة علمية مصرية وتتمثل هذه الخطيئة فيما يراه. من تبني للعلم الغربي أو اعتباره العلم الأوحد، بمفاهيمه وأخلاقياته وقيمه التي تتنافي مع مسلماتنا العقائدية.

ومن ثم فإنه ينبغي علينا البحث عن بديل لهذا العلم ينطلق من ثوابتنا وتراثنا الثقافي كما فعلت شعوب أخرى كالصين والهند.

وحول ما أثير من مناقشات على هذه الصفحة نطرح بعض الملاحظات التي قد تلقى الضوء على الإجابة عن السؤال موضوع المقال: من هذه الملاحظات:

1- إن تبني فكرا أو وجهة نظر معينة لا تعني إصدار أحكام عامة تقلل من شأن الاتجاهات أو المواقف الأخرى فمن غير الموضوعي الحكم على أدبائنا ومفكرينا وعلمائنا وجامعاتنا بالإخفاق والفشل بل وارتكاب الخطيئة لاعتمادهم على العلم الغربي.

فمن المعروف أن الرواد الأول، ومن سار على دربهم في الجامعة أو خارجها قد استطاعوا- بالرغم من كل الظروف المعوقة- بالعديد من الإنجازات التي وضعت مصر على خريطة العالم الحديث، ونقلت المجتمع

(*) مقال منشور بجريدة الأهرام بتاريخ 2002/3/29 تحت عنوان قضية المدرسة العلمية المصرية..... والتنمية عن بديل للعلم الغربي.

المصري والغربي من عصور الظلام والجهالة إلي عصور النهضة والحداثة.

صحيح أن هذه الإنجازات لم تصل إلي مستوى مكانة وتاريخ مصر، ولم تشكل مدرسة علمية يمكن الاعتداد بها كما هو موجود في العالم العربي.ولكن الإنجازات واقعة، وقائمة، ولا يمكن إنكارها أو تجاهلها.

2- أن الأسباب الحقيقية لضعف المدرسة العلمية المصرية ليس بسبب نقلها العلم الغربي وإنما لظروف ومعوقات اجتماعية وثقافية وسياسية واقتصادية وعمليات التنشئة العلمية، وغيرها من الأسباب المعرفوة، والتي لا تحتاج إلي بيان أو طول إثبات.

3- إن المشكل الحقيقي- من وجهة نظرنا- ليس في تبني هذا العلم أو ذاك وإنما في توظيفه وكيفية الاستفادة منه وصبغة بالصبغة القومية، وهذا ما فعلته اليابان منذ بداية عمليات التحديث في أواخر القرن التاسع عشر، حيث اتجهت للغرب، اتجاه التلميذ للأستاذ ونقلت عنه وترجمت وظيفته في عمليات التحديث، كما وظفت تراثها لهذه العمليات، ومن ثم انتقت لديها إشكالية التراث والمعاصرة التي ما زلنا نعاني منها حتى اليوم.

4- إننا يجب أن نعترف- دون أدنى حساسية- بأن الغرب هو موطن العلم ويجب إلا يحول دون هذا الاعتراف نظرتنا- المحقة- في اعتبار الغرب بشكل قوي الهيمنة والسيطرة، وأننا عانينا منه- وما زلنا من استعماره، وعدائه السياسي لنا- بل إنه من خلال علمه وثقافته يقوم- على حد تعبير أحد الباحثين بعملية غزو مدبر تتمثل في همليات التهريب لكثير من بلدان العالم الثالث، وغزو غير مدبر باعتبار حضارة الغرب هي حضارة العصر شئتا أم أبينا، ولا مقر من الإفادة منها.

وعلينا أن نستفيد من علومها الطبيعية وما تنتجه من تكنولوجيا. فالعلم لا وطن له وقد سبق أن قدمنا منه شيئا للعالم باعتراف الغربيين أنفسهم.

ويخطئ من يتصور أن هناك علما خارج الغرب حتى اليابان معجزة العصر التكنولوجية، فهي لم تدع يوما أن لديها علما كالعلم الغربي بمعنى النظريات العلمية الكبرى ولكن كل ما لديها هو توظيف هذا العلم في إنتاج التكنولوجيا، وتفوقها في هذا المجال.

5- تأسيسا على هذا القول: إن مفكرينا وأدباءنا وعلماءنا وجامعاتنا لم يركبول خطيئة عندما اتجهوا للعلم الغربي، وإنما كانوا في حاجة إلي هذا العلم المتقدم، ولم يكن بإمكانهم انتظار عشرات السنين للبحث عن علم في التراث، يمكن أن يكون فيه بالفعل بعض الإنجازات العلمية التي قام بها المسلمون وقت ازدهار حضارتهم ويمكن أن تدرس كتاريخ علم لا كنظريات علمية كبرى كالتي حدثت في الغرب الحديث والمعاصر.

6- إننا نعترف أن العلم في الغب ليس نقيا شفافا، خاصة في العلوم الاجتماعية والإنسانيات بل في بعض التطبيقات التكنولوجية. ووظيفتنا هنا أن نقوم بنقد هذا العلم بمفاهيمه وقيمه وأخلاقياته مما يساعدنا على تنمية فهمنا حول تنبيه الظروف الموضوعية المحيطة بالنظريات العلمية وقبول أو رفض القيم التي تنطوي عليها، والحكم على كذب أو صدق تعميماتها في الواقع التجريبي، وبالتالي يمكن تنقية هذه النظرية أو تلك من الأيديولوجيات الكامنة ورائها، فالعلم الغربي ليس عصبا على النقد بل إن هناك العديد من الكتابات النقدية في الغرب نفسه تنقد هذا العلم في محاولة أكثر إنسانية وأخلاقية.

7- أن القول بالاعتقاد المطلق في العلم التجريبي الاستقرائي كطريق وحيد للمعرفة لم يعد بالحجة المستساغة في رفض العلم الغربي، فلسفة العلم المعاصر قد تجاوزت بكثير مثل هذه المناهج، وأصبحت هناك مناهج ومفاهيم جديدة ينبغي التعامل معها وتفاعسنا عن اللحاق بها لا يبرر رفضنا للعلم ومحاولة البحث عنه في التراث الذي بالتأكيد- لن يسعغنا في اللحاق بالتطورات العلمية الهائلة التي يشهدها عالمنا المعاصر.

8- إن الموقف من العلم الغربي والدعوة إلي الرجوع إلي البحث عنه في التراث يذكرنا ويعود بنا إلي ما أثير منذ قرنين من الزمان، وبالتحديد عندما التقي العقل المصري بالعقل الغربي.

ما إل الرفض أو القبول الكلي للغرب ومع تطور الحياة ظهر الاتجاه التوفيقي. وما زلنا حتى اليوم نعاني من هذه الانقسامات تظهر عادة تحت ضغوط معينة أو على حد تعبير أحد الباحثين عندما تتضافر الظروف الداخلية والخارجية وألوان الاحباطات على تغليب اتجاه على آخر.

9- أن الدعوة إلي رفض العلم الغربي والبحث عن بديل في التراث، وإن بات بشكل اتجاها في حياتنا الفكرية، وهناك العديد من الكتابات التي تقوم بهذه المحاولة، فإنها في الغالب الأعم تحاول تجنب التساؤل الأكثر إلحاحا وهو: كيف : وإذا ما حاولت الإجابة عنه فإنها تأتي إما في صياغة فضفاضة ذات طابع إنشائي، أو في كليات وعموميات بلا تفصيلات أو نماذج نظرية يمكن تطبيقها.

10- إن محاولة البحث عن بديل في التراث أو استخدام المفاهيم والمعتقدات الدينية لبناء النظريات العلمية لا يوجد علما، ولا يستقيم مع مفهوم النظرية العلمية، لأن لكل من المعتقدات والعلم مناهجه ومنطوقة النظري الخاص به.

فمنهج البحث في المعتقدات يقوم على اليقين أما منهج العلم فيقوم على: الشك والنظرية العلمية الحقة هي تلك القابلة للحكم عليها بالخطأ. وهذا يتعارض مع منطوق البحث الديني، لذلك فإن الخلط بينهما يؤدي إلي نتائج خطيرة، ويضر بكل من العلم والدين في الوقت نفسه.

باختصار: علينا أن ننفتح على العلم من منطلق أنه لا وطن له، لكن لابد أن يكون الانفتاح محسوبا خاضعاً للنقد، وعلينا أن نفكر في كيفية توظيفه، وصبغة بالصبغة الوطنية، ، وتوفير الشروط الموضوعية التي تمكنا من المشاركة في بناء العلم وإثراء المعرفة الإنسانية، بدلا من ضياع الجهد في البحث من نقطة الصفر، فالعلم ذو خاصية تراكمية إنسانية حضارية، وكل حضارة أسهمت وتسهم فيه بالقدر الذي توفره ظروف وإمكانيات هذه الحضارة.

حادي عشر:- نعم.... ليس بالعلم الغربي وحده تتكون المدرسة العلمية المصرية[*]

رائع جدا أن تستمر هذه الصفحة المتميزة في فتح الحوار حول المدرسة العلمية المصرية. وأن يشارك فيه أهل الاختصاص في فلسفة العلم وتاريخه، إلي جانب المهمومين بالقضية من أمثالنا، نحن التربويين. وهذا يدل على صدق الحس الوطني والعلمي لدى كل الأطراف على اختلاف التخصصات والتوجهات.

(*) مقال منشور بجريدة الأهرام بتاريخ 2002/9/20

وبالرغم من أن للقضية أهلها ورجالها في فلسفة العلم وتاريخه، وهم بالكلام عنها أحق وأجدر، إلا أننا نحاول- من باب الاهتمام- الإدلاء فيها بدلونا. وما نطرحه قد يكون منقوصا من وجهة نظر أهل الاختصاص. لكن يبقي لنا في النهاية أجر الاجتهاد.

ونستهل ما نود طرحه بتسجيل ملاحظة- قد تكون مشروعة- وهي أننا نخشى أن ينحرف بنا الحوار عن صلب القضية تكوين المدرسة العلمية المصرية، والدخول في مفاهيم ومصطلحات ومناقشات قد تستعصى- ليس فقط على القارئ العادي- وإنما على الآخرين لديهم من العلم نصيب.

والخشية نفسها وإرادة بالنسبة للقائلين بضرورة البحث في تراثنا وموروثاتنا الدينية عن بديل للعلم الغربي، واعتبار الميتافيزيقا ركنا أصيلا من أركان العلم، وتوجيه الفكر، ومن ثم لابد أن تكون لها الأولوية في تكوين علم لنا يضارع ويصارع علم الغرب بل ويتغلب عليه، ومن خلاله يمكن تكوين المدرسة العلمية المصرية أو العربية والإسلامية.

إن مثل هذه المقولات- وإن كانت لا تستقيم مع منطق العلم ومنهجه القائم في الأساس على الشك المنهجي، والذي يتعارض مع المقولات الدينية القائمة على اليقين- إلا أنها قد تصل بنا إلي أفكار ومفاهيم معوقة لما ننشده من تكوين هذه المدرسة، الذي بات وجودها حتميا في عصر التحديات. بل قد نصل من وراء البحث في هذه المقولات إلي طريق مسدود، تضيع معه الجهود في التفكير والحوار العلمي الهادف حول قضيتنا المحورية: تكوينا وتنظيما وتفعيلا. وبدلا من توظيف واستثمار ما بأيدينا، وما قد يتاح لنا من معارف وعلوم، والعمل على توطينها، وغرسها في النسيج الاجتماعي والثقافي، والبحث عن الكيفيات والآليات المحققة لهذا الهدف- يحاول البعض البحث عن بديل لا لعيب موضوعي فيما هو قائم- وإنما لأن هذا القائم هو للآخر، ومن ثم لابد- من وجهة نظرهم- من إقصائه واستبعاده، ومثل هذا التفكير –للأسف- بات شائعا- بين جمهرة من المثقفين، حيث لا ترى هذه الجمهرة- كما يقول عابد الجابري- نهضة عربية أو إسلامية إلا في غيبة الآخر أو إلغائه.

إن مثل هذا الخطاب السلفي- كما يقول أحد الباحثين- غالبا ما يرتمي في تاريخ العلم العربي، ومناهج البحث العلمي عند المسلمين: تفريطا

وتمجيدا، إلي حد الجزم بموافقة الاختراعات والنظريات العلمية العصرية لما قال به علماء المسلمين في عصرهم الذهبي. وهذا- على حد ما جاء في التقرير العام لإستراتيجية تطوير العلوم والثقافة في الوطن العربي- موقف خطير، لأنه يلغي التاريخ من الحساب، ويفقد العلم كل بعد تاريخي، ولا يوالي عناية لتحليل البنية المعرفية للمفاهيم العلمية في إطار هذا البعد.

زنقد هذا الخطاب لا يعني بحال من الأحوال تقديس العلم الغربي أو اعتباره منزها عن النقد. وهذه قضية باتت محسومة، ولا تحتاج إلي بيان، أو طول في الإثبات، ولم نحسمها نحن بل حسمها المفكرون الغربيون أنفسهم- قديما وحديثا- بنقدهم المستمر لعلمهم الغربي، بنظرياته وقوانينه وتوجيهاته ومعطياته، خاصة تلك التي تبناها العلماء في مطلع القرن السابع عشر، واستمرت إلي العقود الأولى من القرن العشرين، والتي شكلت- ما يطلق عليه روبرت أجورس، وجورج ستانسيو- بالنظرة العلمية القديمة في مقابلة النظرة العلمية الجديدة التي أخذت تتبلور في مطلع القرن العشرين، بفضل علمي الفيزياء والكوزمولوجيا الحديثة، بمفاهيمها الجديدة للزمان والمكان ولنشأة الكون وتطوره، وغيرها من العناصر التي كان لها الفضل في إرساء دعائم النظرة الجيدة وتوطيد أركانها كنظرة بديلة عن المادية. ومن عد جاء بوبر ليحدث ثورة فكرية في فلسفة العلم المعاصر.

ومع ذلك فإن معظم باحثينا عندما يتوجهون إلي نقد العلم الغربي، إنما يتوجهون إليه في نظرته القديمة، التي نضجت بحثا حتى احترقت- كما يقولون- ليس منا وإنما من الغربيين أنفسهم، بل باتت هذه النظرة الآن تراثا في العلم الغربي.

والحقيقة أن الثقة المستمر للعلم- وللتجربة الغربية بصفة عامة- من جانب الغربيين أنفسهم هو سر تقدم الغرب، واستمرارية تراكم خبراته ومعارفه، وهو الذي أسهم بشكل واضح في أن تكون الحضارة الغربية هي الحضارة الرائدة، في عالمنا المعاصر. لكنها لن تكون نهاية الحضارات، ويمكن لأي أمة قادرة على امتلاك مقوماتها، أن تكون لها حضارتها الرائدة التي يمكن أن تنازع الحضارة الغربية، بل وتنتصر عليها، لتحل محلها. ولكن كيف؟ هذا هو التحدي الحقيقي الذي يواجه الشعوب والأمم غير الغربية، وأن

بدت البوادر هناك على شواطئ الباسفيك، في الأمة اليابانية العظيمة، ونحن لسنا أقل منها عراقة وأصالة.

على أي حال ما نود التأكيد عليه أن العلم الغربي ليس مقدسا، ولا ممتنعا عن النقد، بل لابد من نقده، على أن يخطو النقد خطوات أبعد، وينصب على نظرياته ومفاهيمه الجديدة، لا نظرته القديمة وبهدف التعرف على جوانب الإفادة منه، وكيفية توظيفه واستثماره وتوطينه بما يتناسب وظروفنا وواقعنا والتحديات التي تواجهنا.

كما تؤكد على أنه ليس بالعلم الغربي وحده تتكون المدرسة العلمية المصرية، وإنما هناك شروط وظروف موضوعية لابد من توافرها لتكوين هذه المدرسة، وإلا وقعنا فريسة للتبعية، وحل التقليد والإتباع محل الابتكار والإبداع. ويأتي في مقدمة هذه الشرط والظروف:

1- العلم الغربي نفسه، باعتباره العلم الأكثر عصرية وتقدما، ومن ثم تأتي أهمية الإفادة من المعارف الإنسانية المتراكمة لدى الغرب، والعمل على تطويرها وتوظيفها كخطوة أساسية وضرورية لتكوين أي مدرسة علمية وطنية. وهذا ليست دعوة لأتباع النموذج الغربي، وإنما دعوة لاستيعاب المعرفة، فالنماذج تختلف، لكن المعرفة واحدة تراكمية، قابلة للتطور، وكل علم يمكن أن يستفيد ما سبقه في عملية إنسانية تراكمية. لكن هذه الاستفادة مرهونة بعمليات التحليل والنقد والانتقاء المرتبط ارتباط وثيقا بحاجات مجتمعية ذاتية، مما يجعل العلاقة بيننا، وبين علم الآخر علاقة تناغم لا علاقة تنافر أو تنابذ، أو أنه شئ زرع في جسد غريب.

2- التعامل مع العلم باعتباره مشروعا تاريخيا حضاريا، بمعنييه الاتمولوجي والسوسيولوجي، المرتبطان معا في وحدة عضوية لا تنفصم عراها. أو بتعبير أكثر دقة وشمولا: التعامل معه من خلال فلسفته المعاصرة التي باتت تمتد لتشمل كافة جوانبه الداخلية والخارجية- أو علي حد تعبير يمني طريف الخولي- البوتقة الضامة التي تتكشف فيها كل الجهود الرامية إلي تفسير الظاهرة العلمية: ابستمولوجيا، وانطولوجيا، وأكسيولوجيا، وسيكولوجيا، وسوسيولوجيا، وأيدولوجيا، وسياسيا، واقتصاديا، وثقنيا، وتخطيطا، وإداريا، وبيئيا، وغيرها من العوامل والجهود التي تتداخل، وتتفاعل مع بعضها البعض،وأصبحت تشكل ما

يعرف الآن علم العلم SCIEHTOLOGY، الذي يضم- كما يقول- شوقي جلال، ويمنى الحولي- كل فروع الدراسات التي تؤدي إلي الإحاطة بظاهرة العلم.

3- تشبع المجتمع وتمثله* خاصة العلمي منه- لقيم العلم المعرفية والثقافية، المتصلة بروحه الوثابة، ومنهجي النقدي لكل المسلمات والآراء السائدة في الثقافة الاجتماعية، فالثقافة المواكبة للتاريخ- على حد تعبير أحد الباحثين- هي التي تجعل من نفسها صدى للعلم، واستجابة له، واستيعاب الاستثارات النقدية التي تنشأ مع تحولاته وتقدمه، وتفسح المجال للعقلانية والتعامل مع الإنتاج الإنساني، على أنه تراكم فكري لا يخص حضارة بعينها، أو جنسا بعينه. كما أنه ليس ترسيخا للمسلمات، ولا منتجا للبديهات أو الحقائق الواقعة المعروفة، وإنما هو في حالة نفي متواصل لهذه المسائل، وعامل خلخة لها، بل واجتثائها من أساسها. ولن يتحقق كل هذا إلا من خلال شيوع المنهج العلمي النقدي، واستخدامه على كل الأصعدة والمستويات، وفي مختلف الميادين والمجالات، باعتباره أساس الثقافة العلمية والمعاصرة، ومن أولويات قدراتها على الابتكار والإبداع، ومن ثم توفير المناخ المناسب لازدهار العلم، وتكوين المدارس العلمية الوطنية.

4- ويرتبط بهذا تهيئة المجتمع كله للعطاء العلمي، وتوافر سياسات تكنولوجية وثقافية ديمقراطية إبداعية ترعي الإنسان باعتباره غاية في حد ذاته، فتتعهد ملكاته وطاقاته، وقدراته في الخلق والإبداع، فكلما يقول أحد الباحثين: إن دور العلوم في النهوض بالمجتمع لا يقل أهمية عن دور المجتمع في تطوير العلوم والتقنيات.

وهذا يؤكد على ضرورة توافق مكونات النشاط العلمي مع البيئة المحيطة به، حتى يكون مفيدا مجديا، لا ها مشيا مغتربا. وهذا التوافق ليس جهد عالم أو باحث فرد وإنما يتعلق بالنسق العلمي العام خاصة التنظيمات والهيئات والمؤسسات الرسمية وغير الرسمية، وعلى التماسك والاستقرار الاجتماعي، وقيم الثقافة السائدة، وما يوفره كل هذا من حوافز علمية لعلمائه وباحثة، تتمثل في الحاجة المجتمعية للمعارف العلمية، وعمليات الإبداع، فالحافز لابد

أن يكون عضويا نابعا من النسيج الاجتماعـي، ولـيس مفروضـا عليـه مـن سـلطة أو جهـات أخرى.

باختصـار لابـد مـن تـوافر الشروط والظـروف الموضـوعية لتكـوين أي مدرسـة علميـة وطنية، ومنها ولا شك العلم الغربي الأكثر تقدما وعصريـة، ولكنـه لـيس وحـده بقـادر عـلى تكوين هذه المدرسة في غياب هذه الشروط والظروف.

ونختم هذا المقال بخاتمة مقـال- كـان لنـا عـلى هـذه الصـفحة المتميـزة، وحـول ذات الحوار- وتتلخص في أن علينا أن ننفتح على العلم، ولكن عـلى أن يكـون الانفتـاح محسـوبا، خاضعا للنقد والانتقاء، والعمل على توظيفه وتوطينه، وصبغة بالصبغة القومية، التي تمكننا من الإفادة منه، والمشاركة في بنائه وإثراء المعرفة الإنسانية، بدلا من ضياع الجهد في البحـث من نقطة الصفر، وإذا لم نفعل هذا فإننا سنكون أسوأ حالا من سيزيف في صراعه ومعركتـه ضد آلهة اليونان.

الباب الثاني

التربية والتحديات

التى تواجه الثقافة العربية

- الفصل الخامس:

التحديات التي تواجه الثقافة العربية.

- الفصل السادس:

دور التربية في مواجهة التحديات التي تواجه الثقافة العربية.

يغطى هذا الباب دراسة قمنا بها تحت عنوان" التربية والثقافة العربية فى عصر التحديات" ، وقدمت إلى مؤتمر"الثقافة والقيم" الذى عقدته جامعة السلطان القابوس – سلطنة عمان – فى الفترة من 21-2001/10/22، وفى هذه الدراسة طرحنا رؤية تحليلية نقدية حول قضية التربية والثقافة العربية فى عصر زاخر بالتغيرات والتطورات،ذات التأثير العميق على كل القطاعات والمجالات، ومختلف الأصعدة والمستويات، وبالدرجة التى تبرز لنا أن نطلق عليه – وبحق – عصر التحديات.

وقد لا نكون بحاجة إلى تبيان العلاقة الجدلية بين التربية والثقافة؛ فالعلاقة بينهما باتت واضحة ومعروفة، وتضرب بجذورها التاريخية في أعماق الفكر الاجتماعي والإنساني، ومن حقائق العلم في هذا الميدان. فالثقافة بالنسبة للتربية الإطار العام المحدد لتحركاتها وتوجهاتها، وعلى ضوئها تصوغ فلسفتها، وتستمد غاياتها وأهدافها. والتربية بالنسبة للثقافة؛ إحدى عناصرها ومكوناتها ومقوماتها، والشرط الضروري لحفظها، واستمراريتها، ونقلها للأجيال، والعامل الفاعل في تطويرها، وتجديدها، وانتقاء عناصرها ذات الأهمية في بناء المجتمع، ونهوضه وتقدمه، والحفاظ على تماسكه ووحدته، وهويته وذاته القومية، فالتربية وإن كانت إحدى عناصر الثقافة، ومنظومة من منظومتها إلى أنها بمثابة القلب الذي تتحرك حوله مختلف العناصر والمنظومات الأخرى، فمن التربية تستمد مقومات استمراريتها، وتطويرها، والإضافة إليها، ومساعدتها على تحقيق أهدافها ووظائفها.

باختصار : العلاقة بين التربية والثقافة علاقة تفاعل، وتأثير متبادل، وهي من الترابط والتلاحم بما لا يمكن تصور وجود إحداها دون الأخرى.

غير أن الجدير بالإشارة إليه أن هذه العلاقة ازدادت وثوقا وتلاحما في الوقت الحاضر، في ظل عصر التحديات. وهذا ما سوف يتبين لنا بوضوح من خلال الدراسة الحالية.

هذا الباب الذى يغطيه فصلان الأول منهما نتناول فيه التحديات التى تواجه الثقافة العربية، وفى الأخر نطرح دور التربية فى مواجهة هذه التحديات و فيمايلى هذان الفصلان" الخامس والسادس من الكتاب"

التحديات التي تواجه الثقافة العربية.

فى هذا الفصل نتناول أولاً: مفهوم الثقافة وأهميتها فى عصر التغيرات والتطـورات، وأهم خصائص هذا العصر، وما ينطوى عليه من تحديات ثقافية وتقنية تواجه الثقافة العربية، وفيمايلى ما قد يكشف عن هذه القضايا.

أولا: الثقافة مفهومها وأهميتها.

يتلخص ما نود طرحه بخصوص هذا " المتغير " في الآتي :-

إن الثقافة – كما هو معروف –ظاهرة بشرية ، وصناعة إنسانية، فهي من إنتاج الإنسان وحصيلة نضاله وكفاحه مع الظواهر المحيطة به، ونتاج تفاعل منظوماته، وتنظيماته ومؤسساته، وما تفرزه من تراكمات وخبرات. وبها يتم التواصل بين الأجيال ، والتفاعل مع الحاضر، والتطلع إلى المستقبل [1].

ومن المعروف أيضا أن لكل مجتمع ثقافته الخاصة به، التي تنظم حركته، وتحدد مواقفه وإيديولوجياته، وتنتظم فيها مؤسساته، ونظمه وتنظيماته، قيمه ومعتقداته، إبداعاته وإنجازاته، علاقاته وتفاعلاته، ولاءات وانتماءات أفراده وجماعاته.

كما انه من المعروف أيضا أن لثقافة المجتمع بمعناها الواسع تتشكل وتعبر عن نفسها من خلال مجموعة العديد الأنساق والمنظومات يأتي في مقدمتها الجوانب:

- الاجتماعية: ممثلة في القيم والمعتقدات، التقاليد والعادات، الفنون والإبداعات الشعبية، أنماط المعيشة ، وممارسات الحياة الاجتماعية.
- الثقافية ممثلة في اللغة والتراث الثقافي، والفنون والإبداعات الثقافية.
- العلمية والمعرفية ممثلة في موقف المجتمع من العلم والمعرفة، و ما يسوده من أخلاقيات العلم وقيمه.
- التربوية والإعلامية،غايات وأهدافا، محتوى ومضمونا،شكلا وموضوعاً.
- الاقتصادية ممثلة في علاقات الإنتاج وأنماط وأساليب توزيع الثروة.
- السياسية، من حيث فلسفة الحكم والعلاقات السياسية السائدة.

- الأيديولوجية الحاكمة والمحددة للرؤى والمواقف داخل المجتمع.

- أدوات الاتصال والتواصل، وأنماط العلاقات ونقل المعاني والخبرات للأجيال.

- الحصاد المتجدد داخل المجتمع، واعادة إنتاجه، وأنماط استهلاكه، وكيفية التعامل مع هذا الحصاد وإدماجه في مسار الحياة اليومية.

- الولاءات والانتماءات اعتزازا بالثقافة القومية وحفاظا على الهوية والخصوصيات الثقافية [2].

بهذا المفهوم الواسع والشامل للثقافة أدرك العالم المعاصر -وبوعي- الدور الهام الذي يمكن أن تقوم به في مسيرة التنمية بعد ما ظهر للعيان ما فعله الاقتصاد بهذه المسيرة في غيبة الثقافة . بل أصبحت الثقافة في موقع القلب من مختلف القطاعات والمجالات ، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية والإعلامية، والعلمية، والتكنولوجية،و في مجال الفكر والفن والإبداع، والتنمية المجتمعية المتعلقة بالتراث ومنظومة القيم والمعتقدات[3]

إن هذه الأدوار والمهام التي يمكن أن تقوم بها الثقافة في مسيرة التنمية يعطيها الفرصة للتحاور والالتقاء مع أهم إنجازات العصر، خاصة تكنولوجية المعلومات التي أثبتت جدارتها في كل الميادين بلا استثناء، الزراعة والصناعة والطب والتعليم والنقل و المواصلات، ويتنامي حاليا دورها في خدمة منظومة القيم والمعتقدات والمحافظة على التراث [4]

ويرى عابد الجابرى أنه أصبح للثقافة الآن الدور البارز في التحركات الاجتماعية والسياسية في تنظيم أقطار العالم، بل باتت تقدم نفسها - في بعض الأقطار كفاعل وحيد لحركة المجتمع [5]، مما يؤكد على حدوث ترتيب في العلاقة بين الأدوار لما هو اجتماعي وسياسي وثقافي ، ففي الماضي، وحتى منتصف القرن العشرين، كان البعد الاجتماعي، ثم السياسي يحتل المرتبة الأولى، ويشكل القاعدة لحركات الشعوب، تحت الشعارات الأيديولوجية، كالاشتراكية والصراع الطبقي، وغيرها من الشعارات، أما البعد الثقافي فكان غائبا أو مغيبا، ولكن حدث اليوم - بعد تراجع هذه الشعارات، وانهيار القوى الداعمة لها - انقلاب في الترتيب من حيث الأهمية بين هذه الأبعاد لصالح البعد الثقافي[6]

وهذا الانقلاب في العلاقة - كما يقول الجابري - لا ينظر إليه في عالم اليوم على أنه حدث طارئ عارض، سرعان ما ينتهي، وإنما أصبح موضوعا يفرض نفسه دراسة وتحليلاً، تحت عناوين ثقافية كثيرة يموج بها العالم في الشرق والغرب، وفي عالمنا العربي والإسلامي، وما الدعوة إلا عودة المقدس في الغرب، والصحوة الإسلامية في العالم العربي والإسلامي إلا علامات على الطريق [7].

ولا يعني هذا بحال من الأحوال الإقلال من أهمية الأبعاد الأخرى، الاجتماعية والسياسية والاقتصادية كمحركات واقعة لعالم اليوم. وإنما الجديد في الأمر ، والجدير بالتأكيد عليه أن الثقافة احتلت مكانة لائقة غير مسبوقة، بل إن الأبعاد الأخرى - المشار إليها - باتت تأخذ صبغة ثقافية، وتعمل على توظيف الثقافة في تحقيق أغراضها وأهدافها، ومن ثم أصبحت - وبوضوح - تزاحم هذه الأبعاد، وتحتل دراسة وتحليلا، صناعة وإنتاجا، واستثماراً وتصديراً، وإكسابها القدرة والفاعلية للتعامل مع معطيات العصر وتحدياته والمشاركة الإيجابية في بناء الحضارة الإنسانية.

ثانيا: الثقافة العربية وأهمية دراستها

بخصوص هذا " المتغير" يهمنا الإشارة إلى ما يلي :-

1- إن الثقافة العربية التي نقصدها هي ثقافة الوطن العربي الذي يمتد تاريخيا وحضاريا وجغرافيا من المحيط إلى الخليج . كما نقصدها بالمفهوم الواسع - السابق الإشارة إليه آنفا عند الحديث عن مفهوم الثقافة - حيث تتشكل وتعبر عن نفسها من خلال مجموعة التنظيمات والمؤسسات والمنظومات ، والأنساق الاجتماعية، بقيمها ومعتقداتها ، وتقاليدها وعاداتها، إبداعاتها وفنونها الشعبية، والثقافية بلغتها وتراثها وإبداعها الفكري والفني والأدبي، والعلمية والمعرفية والتربوية والإعلامية ، والاقتصادية والسياسية، والأيديولوجية، وأنماط الاتصال والتواصل، ونقل الخبرات للأجيال ، وعلاقات التفاعل ، وانتماءات الأفراد والجماعات، وغيرها من العناصر والمكونات، التي تشكل في مجموعها حصيلة تاريخ ونضال مشترك،وثمرة عوامل ومؤثرات حضارية وثقافية مشتركة، وواقع وآمال مشتركة، وغيرها من العوامل والمؤثرات التي

كان لها فضل وجود " ثقافة عربية قومية " بها يتميز وطننا العربي على امتداده الجغرافي والحضاري.

2- إن للثقافة العربية القومية بهذا المفهوم أهميتها بالنسبة لوحدتنا ، وتماسكنا العربي، فهي دائما ذات وظيفة " توحيدية " للأمة العربية عبر تاريخها الطويل، ومن ثم لا وحدة مرجوة الآن أو في المستقبل ، إلا بالثقافة بل لا وجود لها إلا بها [8]

كما أن لها أهميتها في تكوين " الشخصية العربية "، وتتميز بقيمها الحضارية الإنسانية ، فالثقافة العربية – كما يقول عبد السلام المسدى – كانت وستبقى دائما مناط الشخصية العربية ، ومستودع قيمها الأصيلة، ووعاء حكمتها، وحقيقة هويتها الحضارية، إنها ثقافة إنسانية أصيلة شاملة لكل المظاهر المادية والروحية،و ذات عراقة تاريخية ،و تتميز بقيم عالية، قوامها الحق والعدل والمساواة، وهي ثقافة قادرة على تمثل الثقافات الأخرى دون تصادم، ودون إذابة أو ذوبان، وتنفرد بجهاز لغوي ليس له مثيل في السعة والمرونة [9]

ولا يقل حامد عمار – عن المسدى – في اعتزازه بالثقافة العربية، خاصة منظومة القيم الثقافية كما حملتها الحضارة العربية الإسلامية، ففي قلبها تحتل كرامة الإنسان – أي إنسان – قيمة عليا، واحترام الديانات السماوية الأخرى ، والتأكيد على العلاقات المتينة بين المؤمن والمؤمن، وعلى أن قوام الحياة الاجتماعية هو التواد والتكافل والترابط، والمساواة المطلقة دون تميز بين البشر. وعلى قيم المسئولية والعدالة الاجتماعية ، والعلاقات الطيبة بين الدول ، وإشاعة المحبة بين الناس، وإرساء قاعدة الحوار، وأقرار مبدأ الشورى والمشاركة في اتخاذ القرار.. .....وغيرها من القيم التي تزخر بها حضارتنا العربية الإسلامية [10]

بالطبع من حقهما – ونحن معهما – أن نعتز ونفخر بالثقافة العربية، لأن الاعتزاز بالثقافات من الشروط الضرورية لتكوين الهوية، والحفاظ على التراث و القومية، لكن يبقى الاعتزاز سلوكا طوباويا مجردا غير مؤثر، إن لم يقترن بالفعل الذي يعمل على تجديدها وتطويرها مع الحفاظ على هويتها واستمرارية وجودها في الوعي كمؤثر محرك نحو الأفضل.

3- وما دمنا في مجال الحديث عن وحدة الثقافة العربية، والاعتزاز بها فأنه لا بد أن نشير إلى أمرين لهما أهميتها في هذا الصدد:-

الأمر الأول : إن القول بضرورة وحدة الثقافة العربية، لا يعني على الإطلاق رفض " التنوع الثقافي " داخل البلدان العربية، أو خشية الحديث عنه، على أساس أن هذا قد يخدش وحدة الوطنية العربية،[11] ،وليس ثمة مبرر لهذا الخوف عليها، أو الخوف منها لدى من يحرص على خصوصياتها الثقافية.

ونقول للخائفين عليها ، أو منها : إن التنوع الثقافي داخل الثقافة العربية الواحدة عنصر إثراء وقوة، بل عليها استيعاب واحتواء هذا التنوع إخصابا للثقافة " الأم " إن جاز التعبير. ولقد أدرك غيرنا أهمية التنوع الثقافي في تقوية نسيجه الاجتماعي، وفي دعم صناعة الثقافة، وزيادة القدرة على إقامة حوار ثقافي مع الغير. وبالنسبة لنا ينبغي ألا يكون ثمة فرقة أو تفرقة بين " الوحدة " و " التنوع " ، فما أكثر القواسم المشتركة التي بقدرتها أن تصهر هذا التنوع في بوتقة واحدة، هي بوتقة الثقافة العربية القومية [12].

وهذا لن يتحقق إلا بتوسيع دائرة هذه الثقافة كي تضم الثقافات " الأقوامية " على حد تعبير الجابري [13] ولن يتحقق هذا إلا بالتواصل ، و" المثاقفة" في جو من الحرية والديمقراطية، مما يفسح المجال للاحتفاظ بصورة طبيعية لجليلة بالعناصر الحية في التنوع والتعددية، وتجاوزها في آن واحد لصالح ثقافة عربية قومية أكثر وحدة ، وأكثر انصهارا و أكثر خصوبة [14].

الأمر الآخر : إنه عندما نؤكد على ضرورة الاعتزاز والتفاخر بالثقافة العربية، باعتباره من الشروط الضرورية للحفاظ على الهوية والذات العربية – فإن هذا لا يعني بحال من الأحوال التشرنق أو التقوقع داخل هذه الثقافة بدعوى " الأصالة " أو الحفاظ على التراث ، لأن الأصالة سمة تطبع كل عمل فيه خصوصية وإبداع للأمة في الثقافة، وفي غيرها من المجالات وليس هذا وقفا على فترة تاريخية معينة، لا في التاريخ العربي، ولا في تاريخ أي شعب من الشعوب [15] . ولا تعني المطالبة بالحفاظ عليه رفض " الآخر " لأنه لا بد من التعامل معه. ولم ترفض الحضارة العربية والإسلامية في عصور ازدهارها " الآخر " وانما تعاملت وتفاعلت معه فازدادت ثراء

وخصوبة، ومن ثم يجب علينا أن نعمل على بعث " الحياة " في تراثنا وتوظيفه في حركتنا نحو الرقي والتقدم [16] .

وكما لا نقبل التشبث بالتراث لمجرد أنه تراث، لا نقبل أيضا تطويع هذا التراث ليلائم ويناسب "ثقافة الآخر" بدعوى الحداثة والعصرنة، لأن في هذا فقدانا للهوية والذات القومية، وطريق الذوبان في ثقافة هذا الآخر، وبالتالي ينبغي علينا التعامل سواء مع التراث أو مع الآخر وفق رؤيتنا نحن، وبما يحقق مشروعنا نحو الرقي والتقدم. ولنأخذ من اليابان الدرس والعبرة، حيث استطاعت توظيف تراثها في عمليات تحديثها وانطلاقها، حتى وصلت اليوم إلى مصاف الدول المتقدمة.[17]

إن التراث– على حد تعبير نبيل علي- ليس ركازا ولا قطعة في متحف، ولا هو برج القبور، بل ماء للحياة، وإكسير لا حياء العقول والنفوس، فلنضف إلى، هذا التراث مضامين من حاضرنا. إنه يكون أكثر ثراء وخصوبة، حيوية ووظيفية، يوم أن نتوجه إليه بفكر ناقد نافذ يخترق مسام الجلود، وصولاً إلى نخاع ثقافتنا، مرورا بأحشاء نظمنا الاجتماعية.[18]

باختصار، نقول: إن التراث بلا تغيرات تبعث فيه الحياة وتعمل على تجديده تراث أجوف، والمعاصرة بلا تراث تنطلق منه، وتعتمد عليه، معاصرة حمقاء سرعان ما تضل الطريق. ومن ثم علينا التوجه إلى التراث لنحافظ على ثوابته ، ونعمل على تنقيته واستجلائه، وتطويره وتجديده والإضافة إليه ، حتى يكون الركيزة الصلبة، والمنطلق الأساس لتوجهنا نحو الرقي والتقدم، ويمكن لثقافتنا العربية الأصيلة مواجهة عصر التحديات

ثالثا: أهم خصائص واتجاهات التغيرات والتطورات المعاصرة.

تؤكد العديد من التحليلات و الدراسات،على أننا نعيش عالما مذهلا وعصرا زاخرا بالمتناقضات والتحديات، كأنه يحمل مخا ض مستقبل أشد ذهولا وتناقضا.ولا أدل على هذا من تلك الصفا ت التي يوصف بها، وتصل ـ في بعض الأحيان ـ حد التناقض في ا لحكم عليه، أوله ومن جملة ما يوصف به على سبيل المثال، لا الحصر ـ:

1- انه عصر "العلم"، فيه تضاعفت مردودا ته، وحصائله، وعوائده ، بمعدلات متصاعدة غير مسبوقة، وبدرجة بات العلم فيها العامل الحاسم

في تشكيل العقل والواقع على السواء[19]، كما بات الفاعل المؤثر – وبلا منازع – في تشكيل ثقافة المستقبل[20] . كما دفع بالعلم لأن يكون أشد وثوقا بنفسه ، وازديادا في غروره وصلفه – ولم لا ؟ والعلم يسجل لنا كل يوم العديد والمزيد من الانتصارات ، وعلى كل الجبهات. نراه يسحق المكان ، ويفتت الزمان ، ويخترق فضاء المجرات الكونية، ويميط باللثام عما يكمن داخل الذرة والخلية، ويغوص منقبا عن دخائل النفس البشرية، وخفايا البنى الاجتماعية، غير مبال أوهياب لما يحدثه من صدمات لمشاعر المؤمنين المتدينين ، ومن تدميرات بيئية وحيوانية، بل وبشرية، لا يعاني منها – في الغالب الأعم – الا ملايين الفقراء المعوزين ، في تلك الدول المسماة بدول الجنوب [21]

2- إنه عصر تكنولوجيا المعلومات التي استطاعت أن تقلب الموازين والمعادلات بما تحمله من أرقام ورموز وشفرات، وبعد ما كانت تلهث وراء العلم ، تجسد أفكاره ، وتطبق اكتشافاته، بات العلم نفسه يلهث وراءها، ويعدل من نظرياته وقوانينه وفقا لما تزوده من بيانات ومعلومات، وبعد أن رآها تضيف كل يوم جديداً ، وتضيق من المسافات، بين ما هو فيزيائي، وبيولوجي، وهو مادي، ولا مادي، وما هو واقعي وخيالي، حتى أصبح للخيال هندسته، وعوالمه الرمزية، وكائناته الرقمية.[22]

3- إنه عصر النهايات والمابعديات والمنفيات، فبفضل تكنولوجيا المعلومات بات الحديث يعلو عن. " النهايات " نهاية المكان والزمان، التاريخ والجغرافيا، الدولة القومية، المدينة والقرية، المدرسة والجامعة، الكتاب والمؤلف، الورق والمطبعة، المتحف والمكتبة، الأيديولوجيا والفيزيقا، العمال ، الطبقة المتوسطة، الوسطاء والسماسرة، بل نهاية الذاكرة . وغيرها مما تمتلئ به قائمة " النهايات " التي يأتي الحديث عنها – كما يقول نبيل علي – إما بدافع فكر متطرف متسرع تشابهت عليه الظواهر المؤقتة، وكأنها قاربت غاياتها أو استنفدت أغراضها ، وإما بدائع الحسرة على ما كدنا نفقده أو نودعه خزائن النسيان.

- المابعديات : ما بعد الصناعة ، ما بعد الحداثة، ما بعد السياسة، ما بعد الإنسانية، وغيرها من المابعديات التي تشير في مجملها إلى إعلان

القطيعة على " ما قبل " مفضلة عليه ظلمة " آت " مجهول ، يجنبها الرجوع إلى " سالف معروف "، يعاني العديد من أوجه التناقض والقصور.

- "المنفيات بلا": مصانع بلا عمال، أفلام بلا ممثلين، تعليم بلا معلمين، كتابة بلا أقلام، أقلام بلا أحبار، تلاميذ بلا مدارس، مدارس بلا أسوار، مكتبات بلا جدران، موظفون بلا مكاتب، سياسة بلا نواب، ترحال بلا انتقال، حضور بلا وجود، إلى آخر قائمة "المنفيات بلا"، والتي يأخذ القائلون بها موقفا وسطا بين "النهايات والمابعديات"، مكتفين في نفيها باستقطاع عناصر أساسية من الظواهر والأشياء ، على أن يقوم بالمهمة بدلاً منها " الذكاء الاصطناعي " الذي تهبه تكنولوجيا المعلومات لغير العاقل من الكائنات.

على أي حال ومهما كانت مبررات الحديث عن هذه " الثلاثية " فإنها تشكل – في النهاية – أعلانا لبدايات جديدة يتميز بها العصر الذي نعيشه، بفضل تكنولوجيا المعلومات التي ما تكاد تغلق بابا حتى تفتح بابا آخر أكثر رحابه واتساعا ، فلديها من البدائل ما يساعدها على طرح المفاهيم وبناء النظم وإعادة صياغة العلاقات وإقامة المنظومات. [23]

4- إنه عصر اختلاط وتداخل الأضداد، وذلك بسبب تزايد وسرعة الإنجازات والمردودات العلمية، وما يترتب عليها من آثار وتداعيات غير مسبوقة، ففيه تتعلم الأجيال اللاحقة من السابقة، مثلما تتعلم السابقة من اللاحقة، بعد أن أصبحت معرفة من سبق تتهالك بمعدل يفوق في سرعته معدل اكتسابها، مما دفع بمشيل فوكو إلى الزعم بأن الماضي لا يؤدي إلى الحاضر، وإنما الحاضر هو الذي يهب الماضي معناه وجدواه. وفي طرحه يعلن جان بودليار، إننا نعيش عصر " نهاية الأضداد " الجمال والقيم في الفن، اليمين واليسار في السياسة، الصادق والزائف في الإعلام، الموضوعي والذاتي في العلم، بل ونهاية تضاد "هنا وهناك"، بعد أن كاد طابع المكان أن يتعرض للإنقراض، عندما سلبته عمارة الحداثة تميزه وخصوصياته، كما دان العالم، لسيطرة " الصغير " متناهى الصغر من جسيمات الذرة، وجزيئات البيولوجيا الجزئية، بل دان لثنائية "الصفر

والواحد" التي قامت بها – على حد تعبير نبيل علي- تلك التكنولوجيا الساحقة الماحقة، تكنولوجيا المعلومات. [24]

5- إنه عصر التناقضات والمتناقضات، ففيه يزداد عدد أغنيائه وأثريائه مع تزايد أعداد معدميه وفقرائه [25]. وفيه يتوازى سعي "كباره" لتكتل دولهم، مع سعيهم لتفتيت دول صغاره، ولا حرج لدى هؤلاء الكبار من الحديث عن الوئام والسلام، مع حديثهم عن المائة والخمسين حربا التي نشبت منذ الحرب العالمية الثانية. [26]

كما لا حرج لديهم من المطالبة بإخلاء منطقة الشرق الأوسط من أسلحة الدمار الشامل، مع سعيهم الحثيث لتشييد حوائط الصواريخ، وترسانات الأسلحة المدمرة وغض الطرف عن الحليف الصهيوني المسمى باسرائيل، ولا حرج أيضا لديهم في الحديث عن "عولمة" الثقافة تحت شعار الكونية والقرية الواحدة، مع الحديث عن " ثقافة الأقليات " تحت شعار الحريات.

وهكذا يعمل " كبار العصر " على تقوية " الأنا " وأضعاف الغير" من صغار العالم، وممن يعتبرونهم من " المارقين "، بل ويصدرون للصغار صراعاتهم وأزماتهم، ويشعلونها حروبا أهلية ودينية، ونزاعات إقليمية، وصراعات عرقية وصدامات ثقافية، كما يصدرونها -وللأغلبية- بطالة وتغريبا، تهميشا واستعبادا. [27]

وهل هناك من تناقض أكثر من أن شركة الاتصالات العالمية ترفع الشعار " ثلاثي الأيات" (جمع أي)، (أي معلومات في أي وقت في أي مكان) في الوقت الذي يعلن فيه نيلسون مانديلا في إحدى خطبه من أن ثلث سكان العالم لم يجر كلمة هاتفية واحدة طوال حياته ؟ وأن نصف أطفال كوكبنا لم يعرف طريقه بعد إلى المدرسة؟!! أليس هذا عصر الجمع بين المتناقضات ، ممثلا في خلط الآمال بالأوهام؟!! [28] .

وأخيرا – وليس آخرا – هل هناك تناقضا أكثر من أن يكون حجم معاملات التبادل في العملات للأوراق المالية يقدر بحوالي 1.2 تريليون دولار يومياً، وتبلغ نسبة ما يخص مضاربات البورصة منها 95% [29]، في الوقت الذي يتضوع فيه أكثر من نصف أطفال أفريقيا جوعاً، ولا يقل عن النسبة إلا قليلا في معظم بلدان العالم الثالث، ويضرب الحصار الاقتصادي

على كثير من أقطاره، ولا تجد بعض الأقطار المأوى دائما(أفغانستان على سبيل المثال) ، إنه حقا عالم غريب عجيب يلتهم فيه كباره صغاره .[30]

6- إنه عصر اللاعقلانية واللانسانية، ففيه يوجد من يسعى إلى أنسنة " الربوت " ويهبونه ذكاء اصطناعيا يحاكي ذكاء الإنسان، بل يسعى هؤلاء أنفسهم إلى " روبتة " الإنسان بتحليل قدراته وإمكانياته إلى مهارات متناهية في الصغر ، جاعلين منه ترساً في آلة ضخمة، تحيط به من كل الجوانب جوقة من الصناديق السوداء التي لا تدري عما بداخلها شيئا [31] .

إلى آخر هذه اللامعقوليات واللاإنسانيات التي أثارت قلق العديد من المفكرين من أمثال كارل يوبر فيلسوف العلم المعاصر عندما يقول : إن العقلانية والإنسانية لم تعد من الأفكار العصرية [32] .

7- إنه عصر مجهول المستقبل، لا يمكن التنبؤ بما سوف يكون عليه، بل بات اليقين ضربا من الخيال. وخير ما يعبر عن هذا المجهول، إيليا بريجوجين - الحائز على جائزة نوبل، وشاعر الديناميكية الحرارية كما يطلقون عليه - عندما يقول " إن القرن العشرين قد حول كوكبنا بأكمله من عالم متناه من الحقائق اليقينية إلى عالم متناه من الشكوك [33] .

وهو على حق في مقولته، لأننا - كما يؤكد العديد من المحللين والدارسين - نعيش عالماً قادراً على أن يفاجئنا دوما بأمور غير متوقعة، وذلك بفضل نظمه وتقنياته بأفعالها، وردود أفعالها غير المتوقعة، وبشره بإبداعهم الوثاب الذي، لا يمل اختراق المجهول. إلى آخر هذه الأفعال والأعمال التي تجعلنا نقول - وبحق - إننا نعيش عصراً أصبح التنبؤ الصادق والوحيد فيه هو استحالة التنبؤ.

فمهما تعملقت آلات لإحصاء ، وتعقدت نماذج المحاكاة، وتنوعت السيناريوهات فإن التنبؤ بالمستقبل يظل مطلبا صعب المنال. فلقد ولت - وإلى الأبد - عهود البساطة، ومنطق الحتميات ، وسلامة المسارات ، واقتفاء الآثار بناء على المسببات أو استنباط النتائج من المقدمات، أو تتبع الأمور في هياكل هرمية ترقى بنا من الفروع إلى الأصول، ومن البسيط إلى المركب،

ومن الأبسط إلى الأعقد، ومن الجزئي إلى الكلي. وبات علينا – كما يقول نبيل علي - أن ندرك أن كثيرا مما كنا نؤمن به، ونعتقد فيه من مثل قانون " العلة والمعلول " ، وتلك البني المعرفية من هرميات وتراتيبات، وأسس منطقية، وما شابهها، ما هي إلا أمور من صنع عقولنا ، وقد تشابهت علينا، من فرط استخدامنا لها ، ورسوخها، حتى تراءت لنا أزلية مطلقة، وهي ليست كذلك ، ولن تكون [34] .

إننا بالفعل نعيش عالما عجيبا مثيرا ، فيه يلهث قادمه، ويكاد يلحق بسابقه، وتتهاوى فيه النظم والأفكار، وهي على مرأى من بدايتها، وتتقادم فيه الأشياء، وهي في أوج حدتها، وفيه تتآلف الأشياء مع أضدادها، فالمعرفة أصبحت قوة، لكن القوة أيضا أصبحت معرفه تعززها هذه القوة، لخدمة أغراضها، وتبرير ممارساتها، وتمرير قراراتها، كما أصبح لهذه المعرفة رفيق اقتصادي، فالمعلومات غدت مالا وموردا تنمويا يفوق في أهميته الموارد المالية، بل – وبفضلها – أوشك المال أن يكون مجرد معلومات ، نبضات وإرشارات وشفرات تتبادلها البنوك، في تعاملاتها مع عملائها، ومع غيرها [35] .

عشرات الخصائص والصفات التي يوصف بها العصر الذي نعيشه اليوم، وكلها تؤيد وبوضوح، على أننا نعيش بالفعل عصراً مغايراً تماماً لما سبقه من عصور، ويشكل لحظة تاريخية حاسمة وفارقة في تاريخ البشرية. ويصعب أن نتوقع ما سوف يكون، عليه في المستقبل- ومن ثم لنا أن نتصور مدى حجم ونوع التحديات التي يمكن أن تواجهها الثقافات العريقة، وفي القلب منها الثقافة العربية.

رابعا: أهم التحديات التي تواجه الثقافة العربية.

إذا كانت الأمة العربية تواجه تحديات جسيمة على معظم الجبهات، وفي معظم الميادين والمجالات، فإنها – وبالرغم من شدتها وقسوتها – تبقى دون مستوى تلك التي تواجهها على " جبهة الثقافة، فما يحدث على هذه الجبهة ليس – في الحقيقة – مجرد تحديات ، وإنما " معضلات " بكل ما تعنيه الكلمة من معنى. على أي حال، ومن باب إثارة الحماس للعمل والإنجاز، نطرح بعض التحديات التي تواجه ثقافتنا العربية، ولسان حالنا يردد " أيها الراقدون نياما أفيقوا قبل وقوع الكارثة ".وسنكتفي في طرحنا لهذه

التحديات على ما يتعلق منها "بالتقانة" باعتبارها لغة العصر،" والثقافة" باعتبارها أكثر القضايا ارتباطا بهذه اللغة وتأثرا بها. وهذا بالطبع لا يقلل من أهمية التحديات الأخرى ، السياسية والاقتصادية بالنسبة للثقافة. لكن نرى أن تناولنا للتقانة والثقافة يرتبط ارتباطا وثيقا بموضوع الدراسة، ويعطي التربية مساحة أكبر للقيام بدور هام في التحديات التي تواجه الثقافة العربية، فضلا عن أنهما- كما أشرنا- يشكلان الآن المحرك الرئيسي لكل المجالات، التي باتت بدورها تصب في الثقافة. غير أنه من المهم جداً الإشارة إلى أننا في عرضنا لهذه التحديات، لن نعرضها على أنها تشكل "تهديدات" للثقافة العربية فحسب، ومن ثم يجب اجتنابها، وإنما لأن بها أيضاً من "الفرص" ما يجب اغتنامه، وتوظيفه، في الحفاظ على ثوابتها ، واستمرارية وجودها، وتفعيل دورها المجتمعي، وفي الوقت نفسه العمل على تنقيتها من الشوائب التي لحقت وتلحق بها، وإثرائها والإضافة إليها وتجديدها وتطويرها. على هذا الأساس نتناول ما نود طرحه من تحديات على الوجه التالي:-

أ- تحديات التقانة ذات الارتباط المباشر بالثقافة.

لسنا بحاجة إلى التأكيد على أن التقانة - خاصة تكنولوجيا المعلومات- قد غزت كل الميادين والمجالات ، وبات تأثيرها واضحا على كل الجبهات، كما أنها أخذت في الانتشار والانصهار في الكيان المجتمعي، وهي – في هذا الاتجاه- أخذ في التزايد المستمر، والقيام بأدوار أكثر أهمية وتعقيداً ، خاصة على جبهة الثقافة، من حيث دورها في :- مواجهة ظاهرة التعقد المجتمعي، وذلك بفضل قدرتها على احتواء الكم الهائل من البيانات اللازمة للتعامل مع الظواهر المعقدة، ودورها في الحفاظ على توازن المجتمع لكشفها – عن طريق البيانات والمعلومات- الانحرافات عن الأهداف المرسومة ودورها في التكامل المعرفي بتضيقها الفجوة بين العلوم والفنون، المعارف والخبرات، وأيضا دورها في التنظير الثقافي، وصناعة الثقافة، بعد أن أصبحت الشغل الشاغل للجميع .[(36)]

كما تلعب "التقانة" دورها الهم بالنسبة للعناصر والمكونات الثقافية الأساسية ممثلة في اللغة والتراث والقيم والمعتقدات والابداع والتربية والأعلام .

فهي بالنسبة للغة بمثابة المخلص لها من الشرنقة التي تعيش داخلها من حيث تعلمها ، واكتسابها، وانتشارها، وتطويرها، وتواصلها مع المعارف والعلوم الأخرى. كما أن اللغة أصبحت أهم العلوم المغذية لتكنولوجيا المعلومات ، ورابطة العقد – بلا منازع – بين جميع أنساق الرموز الأخرى التي تسري في كيان المجتمع.

وبالنسبة للتراث فإن التقانة بما تمتلكه من قدرات وإمكانيات هائلة تلعب دورا هاما في حفظ التراث، وتصنيفه وتحليله، واستخراج مكنوناته ولؤلؤه، ونشره على أوسع نطاق ، والعمل على تطويره وتواصله بالمعارف والعلوم الأخرى، التي تشكل في مجملها سنداً قوياً لهذا التراث ، تفسيراً، وتجديدا وتطويرا.

أما بالنسبة للدين والمعتقدات، لها دورها الهام، حواراً وتحاوراً، وتعميقاً في النفوس، فبعوالمها الخيالية وباستعلائها الرمزي تستطيع إثارة العقل الإنساني، في التدبر في ملكوت الله، مما يزيد إيمانه خصوبة وعمقاً.

وللتقانة دورها الهام بالنسبة للقيم والأخلاق، واكتسابا، وتعميقا، واعطاء للإنسان فرصة معرفة الحقوق والواجبات من خلال ما يتاح له من معلومات وبيانات ، فأخلاقيات عصر المعلومات لا تقوم على مبدأ الإكراه، والإلزام بالقوانين بقدر ما تقوم على أساس أن ضمير الفرد هو سلطته الأخلاقية الأولي

أما بالنسبة للتربية والأعلام فقد لا نكون بحاجة إلى بيان الدور الهام الذي يمكن أن تقوم به التقانة في هذين المجالين ، على وجه الخصوص، باعتبارهما من أهم المنظومات التي تعمل على تشكيل الفرد وتكوينه، وتعتمد على الاتصال والتواصل في القيام بهذه العمليات. وعن تكنولوجيا المعلومات في هذه المجالات . حدث ولا حرج ، من حيث الإمكانيات والقدرات الهائلة في عمليات الاتصال والتواصل.

كما توفر التقانة – خاصة - تكنولوجيا المعلومات - العديد من وسائل الدعم للإبداع الفني والأدبي. وتمثل الإنترنت معمل تجارب مثالي لاختبار نتاج هذا الإبداع.

إلى آخر هذه الأدوار الثقافية الهامة التي يمكن أن تقوم بها "االتقانة"من خلال ما تزخر به من نماذج معلوماتية ، باتت تشكل منظومات كبيرة لها

فنياتها وثقافتها وتكاليفها وعوائدها التي تقدر بالمليارات، والتريليونات من الدولارات.[37]

والآن، يجدر بنا أن نشير، ولو بإيجاز – إلى بعض منظومات التقانة ذات العلاقة الوثيقة بالثقافة مع بيان مضامينها ودلالاتها الثقافية وما يمكن أن تحمله من تحديات تواجه الثقافة العربية، ولعل في مقدمة هذه المنظومات:-

1- شبكة الإنترنت: التي يقول عنها نبيل علي - واحد من أبرز المتخصصين العرب في مجال تكنولوجيا المعلومات - إنها شبكة الشبكات ، ذات الفضاء المعلوماتي اللامتناهي المتنامي دائم الاتساع والانتشار ، والذي يقدر عدد رواده بما يزيد عن 800 مليون نسمة بحلول عام 2004م . إنها الغابة الكثيفة من مراكز تبادل المعلومات التي تختزن وتستقبل وتبث جميع أنواع المعلومات في شتى فروع المعرفة، وفي مختلف جوانب الحياة ، من قضايا الفلسفة وأمور العقيدة إلى الأحداث الرياضية والمعاملات التجارية، ومن مؤسسات غزو الفضاء وصناعة السلاح إلى معارض الفن، ونوادي تذوق الموسيقى ، ومن الهندسة الوراثية إلى الحرف اليدوية ، ومن البريد الإلكتروني إلى البث الإعلامي ، ومن المؤتمرات العلمية إلى مقاهي الدردشة وحلقات السمر عن بعد، ومن صفقات بورصة نيويورك إلى مآسي المجاعات والأوبئة في القارة السوداء.

أما عن علاقة هذه الشبكة أو المنظومة بالثقافة فحدث ولا حرج . ويكفي أنها باتت تشكو من الاختناقات ، وفوضى المعلومات، وتلوثها، إلى حد الوصف، "بالقمامة والزبالة" ولنا أن نتصور – كما يقول نبيل علي – ما سوف يكون عليه الوضع بعد ظهور جيلها الثاني – الذي أوشك على الظهور – من السرعة والتدفق في المعلومات والبيانات من خلال الألياف الضوئية ذات السعة الهائلة . إنه سوف يكون أعظم فيضان معلوماتي لم تشهد له البشرية من قبل مثيلا فمن خلاله تنتقل إلى الفرد نبضات الحياة اليومية في أي بقعة من العالم، فتجعل الفرد ينتقل إليها، فيحضر – دون حضور حقيقي - المؤتمرات والندوات والمحاضرات. إن الإنترنت باتت بالفعل الفضاء الرمزي الجديد، فضاء المعلومات الذي تقطنه الجماعات ،

وتقام فيه المؤسسات، وتعقد فيه الصفقات والتحالفات، وتحاك المؤامرات ، وترتكب من خلاله أيضا جرائم المافيا، وسرقات الأموال والأفكار، والمعلومات .ومن خلاله ترتكب أيضاً الفضائح، وتشويه سمعة الأبرياء وقبل وبعد كل هذا تشويه القيم والأخلاقيات. لكن وفي الوقت نفسه إعطائها فرصة الدفاع عنها، والعمل على انتشارها في كل بقاع العالم.

باختصار أصبحت الانترنت نافذة الانسان التي يواجه من خلالها العالم على اتساعه بحيويته المتدفقة ،وديناميانه الهادرة، وإشكالياته المتجددة المتشابكة المتراكمة. إنها تعيد صياغة علاقته بالعالم، وبمجتمعه، وثقافته وثقافة غيره. كما أصبحت وبكل المقاييس ساحة ثقافية صاخبة، ووسيطاً اعلامياً جديداً، ومجالاا للرأي العام ، مغايراً كلا المغايرة، لما كان عليه في الماضي[38] . مما يكشف عن مدى قدراتها وقوتها وأيضا خطورتها على الثقافة، ففيها الغث والسمين ، والشر والخير ، والتهديدات والفرص. والعبرة بمن يستطيع توظيفها ، والمشاركة في احتلال أكبر مساحة من أمبراطويتها التي لا تغيب عنها شمس نهار، أم ظلمة ليل.

1- طريق المعلومات فائقة السرعة Information Super high way أحد صياغات آل جور (نائب الرئيس الامريكي السابق) في إطار دعوته لاقامة بنية اساسية معلوماتية ينعم بها – على حد دعوته – سواء بسواء الاغنياء والفقراء لرفع مستوى الخدمات الصحية والتعليمية ، وحالة المعيشة لكل المواطنين في العالم، في إطار "الاقتصاد الحر والديموقراطية".وغيرها من الادعاءات التى تخفى حقيقة ما تشكله هذه التقنية الفائقة من تحديات خطيره تواجه كل الثقافات ، حيث أنها لن تكون في خدمة البشرية كما يدعي، آل جور، وإنما في خدمة الولايات المتحدة تحت شعار خدمة البشرية والانسانية . إن آل جور ينظر إلى هذا الطريق على أنه بمنزلة النظير العصري لسلفة طريق السيارات السريع "فكما كان السالف شريان نقل البضائع الأمريكية ، سيكون اللاحق شريان لنقل الثقافة الأمريكية [39] .

ويكشف جون شراثون هذه الخدعة فيما أسماه "سندوتسش آل جور" حيث وضع أحلام البشرية في التنمية بين شطري " الاقتصاد الحر والديموقراطية " . مسفرا بذلك عن أن أيديولوجيا النموذج الرأسمالي الذي

يسعى القطب الأمريكي لتعميمه من خلال، وبدعم من المنظمات، العالمية، لإضفاء الشرعية الدولية على ممارسات العولمة الأمريكية بدليل أن الاتحاد ، الدولي للاتصالات "أي تي يو" بدأ يلبي النداء، ويعلن عن استراتيجية لإقامة هذه البنية التحتية المعلوماتية العالمية، ويسير على الدرب الأمريكي، من حيث تأكيده الصريح على قوانين السوق الحرة .مما يشير الى أن المنظمات الدولية سوف تستخدم السلاح في يد القوى الأعظم لفرض هيمنتها وسيطرتها ، وتأمين مصالحها في إطار الظاهرة المسماة بالعولمة التي تجوب الديار، معتمدة في ذلك على وصيفتها " الشركات متعدية الجنسيات، والمنظمة الدولية [40]

إن هذا ولاشك سوف يزيد من هيمنة وسيطرة الولايات المتحدة على العالم، ويجعل من ظاهرة العولمة ظاهرة أمريكية أو بتعبير أدق اختزال هذه الظاهرة فى النموذج الغربي للرأسمالية في صياغته الأمريكية.

وهذا يشير بجلاء إلى أنه في ظل العولمة سوف يكون هناك اغترابا خطيرا يعاني منه معظم البشر (وبالطبع وفي المقدمة معظم دول العالم المنكوب، دول الجنوب إلى جانب بعض دول الشمال) نتيجة الكلفة الفائقة لإنشاء هذه البنية التحتية التي تقدر بتريليونات الدولارات .

على أي حال فإن هذا الطريق افائق السرعة، والكلفه يمكن أن يعكس لنا مدى ما سيكون عليه من قوة ثقافية "دينا صورية" تفوق الخيال يؤكد على أننا نعيش بالفعل "عالم الخيال" ، أو على حد تعبير نبيل علي نعيش "موسم الهجرة إلى الخيال"، وذلك من خلال ما يطلق عليه.

2- الخائلية Virtual Reality . ويعني به كل ما يحاكي الواقع، أو يناظره إلى درجة يخيل لنا معها أنه واقع ، ويعني أيضا ما يتجاوز هذا الواقع، لكن وبالرغم من تجاوزه فإنه يؤخذ مأخذ الواقعي، ويتم التعامل معه على أنه في حكم الفعلي القائم ومن تطبيقاتها الفعلية التدريب على قيادة المركبات أو إجراء التجارب في المعامل "الخائلية" ، أو إقامة عوالم ميكروبية أو تسمى أحيانا "حضانات المعرفه" التي يمارس فيها الطالب حرية التعلم بالاكتشاف، ومن خلال التجربة والخطأ . ومنها أيضا خلق عوالم من صنع الخيال ، تحاكي أو تعيد ما ليس له مقابل في عالم الواقع. كما يمكن أن يمدنا الواقع الخائلي بما يعزز حواسنا وقدراتنا

الجسمانية، مثل إمدادنا بعيون نرى بها الأشعة تحت الحمراء أو فوق البنفسجية، وبأذن تلتقط ما هو خارج نطاق الذبذبات المسموعة... وهلم جرا من الأمثلة والتطبيقات الخائلية التي يمارس فيها الإنسان قهر الطبيعة، ويحلم بإرادة لا تتحقق له في دنيا الواقع [41].

ولنا ان نتساءل : ماذا تريد ان تعمل تكنولوجيا المعلومات عن طريق " الخائلية" هل تريد ان تضيق الخناق على "بساط الريح" ، وتزاحم "في عالم الخيال علاء الدين وفانوسه السحري"؟!أم أنها سوف تصنع لنا "ألف و ليلة أخرى" تكون فيها "شهرزاد" تحكى للأمريكي "شهريار" غرائبها وعجائبها، وتبعث في قلبه الأمن والطمأنينة على هيمنته وسيطرته على الأرض وما تحتها، حتى الفضاء، يمكن ان يكون له فيه "بيتا أبيض" ، يهيمن به على كائنات هذا العالم الفضائي الذي لم يعد مجهولاً إلا على المجهولين المهمشين "صغار دول" عصر التحديات أبناء العالم الثالث.

على أي حال، ومهما كانت آثار وتداعيات تكنولوجيا "الخائلية" فهي – وبكل المعايير – تشكل إنجازا عصرياً هائلاً له مغزاه ومضمونه الثقافي، حيث إنها تعمل على تعميق معرفتنا بحواسنا، وبذاتنا وبتعبيرنا، وبعالمنا ، وتساهم في سبر أغوار المخ البشري، و على تنمية قدراتنا الذهنية، وسرعة اكتساب الخبرات ، وتكسر احتكار "الصفوة" للثقافة العلمية حيث تصبح من خلال "تكنولوجيا الخائلية" متاحة للجميع، مما يعني أنها، تعمل على "دمرقطة" المعرفة المعقدة وتجعل ظواهرها في متناول العامة، [42]

إلى آخر هذه الفوائد ذات المغزى الثقافي والتربوي التي يمكن أن نقوم بها تكنولوجيا الخائلية. ويتوقف بالطبع أمر الاستفادة منها على مدى القدرة على امتلاك أدواتها، وكيفية توظيفها، مما يجعل منها تحديا للعقل الإنساني .

وهنا نتساءل : ما وضع الثقافة العربية في وطننا العربي الكبير من كل ما سبق، أو بتعبير أكثر تحديدا ، ما وضع التقانة بالنسبة للثقافة العربية، من حيث الأدوار والمهام، ومن حيث النماذج والمنظومات التقنية السابق الإشارة إليها؟ وماذا تحمله من تهديدات يجب مواجهتها وفرص يجب اقتناصها بإيجاز يمكن الإجابة عن هذا التساؤل على الوجه التالي:-

1- إنه بالنسبة لدور التقانة في الثقافة العربية، من حيث كونها أداة لمواجهة التعقد المجتمعي وللتكامل المعرفي، وصناعة الثقافة ، وكأداة للتنظير الثقافي – فإنه على وجه الإجمال يمكن القول- :-

- إننا ما زلنا نفتقد الآليات الكافية لمواجهة تعقد عصر المعلومات سواء على مستوى القضايا العامة أو المسائل المتخصصة.

- إن خريطة الفكر العربي ما تزال تعاني من التشتت والجزر المنعزلة، المليئة بالفجوات والمناطق المجهولة، ولا حل لهذا التشرذم والتشتت إلا باللجوء إلى المعلومات كأداة مثلى للإسراع في عملية التكامل المعرفي.

- إننا ما زلنا ننظر إلى تكنلوجا المعلومات نظرة فنية مما يفقدنا القدرة على التعامل معها. وبالتالي فإنه لا بد أن تتغير نظرتنا إليها بحيث تشمل أيضا دورها في الجوانب الثقافية الاجتماعية والتنظيمية ، وإقتناء التكنولوجيا وتطبيقها وتطويرها .

- إننا ما زلنا نعاني قصورا في مجال التنظير الثقافي كإحدى النتائج لضعف إنتاجنا الفكري وضعف نشاط مؤسساتنا في مختلف الميادين والمجالات. (43)

2- إنه بالنسبة لوضع الثقافة العربية من نماذج ومنظومات التقانة ، السابق الإشارة إليها، فإنه بخصوص شبكة الانترنت ، فإن صورة الثقافة العربية عليها بخصوص تعاني العديد من أوجه القصور، يلخصها لنا نبيل علي في الآتي:-

- غياب عنصر التنسيق بين المشاركين الأساسين في تشكيل هذه الصورة على الانترنت من المؤسسات والهيئات والأفراد ، داخل وخارج البلدان العربية والاسلامية.
- غياب الكثير من ابداعات ثقافتنا وحضارتنا كالموسيقى والشعر والسينما والمسرح واللغة والتراث الشعبي والحرف وغيرها من العناصر الاساسية للثقافة العربية.
- التركيز في تناول اسهاماتنا الثقافية والحضارية على الماضي والاغفال شبه التام لحاضرنا الثقافي أو ما سيكون عليها فى المستقبل.
- البدائية في أسلوب عرض خطابنا الثقافي، دون الاستفادة من الامكانيات الهائلة التي تتيحها ثقافة الانترنت.

- طغيان طابع رد الفعل والانفعالية على خطابنا الثقافى بصفة عامه، وغياب مهارات الحوار ومناورات التفاوض، فضلا عن تجاهل نوعية المتلقي المستهدف فضلا عما يقوم به البعض منا من نقل خلافاتنا الداخلية – على هذه الشبكه العالمية - حول الكثير من القضايا وما يكمن وراءها من دوافع .

- سوء الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية لما يعرض من جوانب الثقافة العربية على الانترنت، لأن من يقومون بالترجمة (ومعظمهم غير مقيم بالدول العربية)غير مدركين لعقلية المتلقي العربي، من ناحية ، و من ناحية أخرى أن غالبية المفكرين العرب ما تزال صلتهم بالانترنت ووسائل الاتصال الحديثة شبه معدومة [44].

باختصار تكشف صورة الثقافة العربية على الانترنت عن تواضع بل قتامة هذه الصورة للاسباب المشار اليها والتى ترجع فى الاساس الى ضعف البني التحتية الثقافية القادرة على انتاجها ومداومة تحديثها، ورصد وتحليل ما يقوم به الآخر، المعادي والموالي، المتقدم والنامي ، العالمي والاقليمي. ومع ذلك و بالرغم من ضعف هذه البنية التحتية للثقافة العربية، فإن ما هو متوافر منها يمكن أن يعمل – لو أحسن طرحه واستغلاله – على تحسين الصورة، وبشكل جذري [45].

3- إنه بالنسبة لموقف ثقافتنا العربية من الطريق الأمريكي للمعلومات فائقة السرعة، فإننا – وفي ظل ما عليه وضعنا – سوف نعاني من طبقية اتصالية ينعم في اطارها القادرون على التفاعل الايجابي أخذا وعطاء، مع مراكز خدمات المعلومات في حين نظل نحن تحت رحمة التلقي السلبي لما تقذفنا به وتلقيه علينا أقمارهم الصناعية. وهذا كله أمر وارد، لأنه يصعب علينا لقلة مواردنا التي تتآكل أو يتم تأكلها عن إقامة البني التحتية لطريق المعلومات فائقة السرعة، والعلاج يتوقف على مدى التكامل والتكتل العربي من أجل توفير الامكانيات التي تجعلنا قادرين على التعامل مع هذا الانجاز العصري الضخم – أما التعامل القطرى معه فلن يصل بنا الا الى مزيد من الضعف وبالتالي الوقوع تحت هيمنة وسيطرة ثقافة القطب الأوحد والمزيد من التبعية لتكنولوجيا المعلومات ، واستخدامها كمجال للتجارة الالكترونية دون

توظيفها في عمليات التنمية. وخير مثال على هذا ما يحدث من بعض دولنا العربية من تبني أستراتيجية الولايات المتحدة فيما يخص الانترنت وطريق المعلومات فائقة السرعة، وهي الاستراتيجية التي تعطي الاولوية للتجارة الالكترونية لا أمور التنمية الأكثر أهمية، في الوقت الذي أبدت فيه الكثير من الدول الأوروبية تحفظها الشديد على هذه الاستراتيجية التجارية، ومن ثم تعطي الأولوية للاعتبارات الاجتماعية والثقافية في تعاملها مع هذه التكنلوجيا [46]

4- أما فيما يتعلق "بتكنولوجيا الخائلية" بالنسبة لثقافتنا العربية، فإننا لم نصل بعد فى عالمنا العربي إلى هذه التكنولوجيا التي تتقدم بخطى واسعة، ولها أهميتها في المجال الثقافي ، فكرا أو تعليما وإعلاما وترفيها وتراثا. وكم من المؤلم والقاسي أن تقوم الولايات المتحدة بأول تجربة عملية شهدها العالم لتكنولوجيا الواقع الخائلي – على الأرض العربية في حرب الخليج [47] وإن إسرائيل تسعى حاليا إلى بناء نماذج خيالية لمدينة القدس العربية – وأن جامعة كارنيجي ميلون ومتحف اللوفر يجريان تجاربهم الخائلية على كنوز مصر الفرعونية. ومن ثم علينا أن نلحق بها في بدايتها ، ولا يطول انتظارنا، فما أخطر طول الانتظار، فربما تحولنا بعد ذلك لنكون في النهاية "فئران" تجارب لمغامراتهم الخائلية، أو سوقا مستهدفة لبضاعة "الجنس" الخائلي، بعد أن أغرقوا أسواقنا بعري أفلامهم الخليعة الماجنة، وأحاديث الغواية المدفوعة الاجر عبر الخدمات الهاتفية.

لكن ينبغي ألا يصرفنا كل هذا عن أهمية "تكنلوجيا الخائلية" فما أحوج مدارسنا العربية إلى مثل هذه التككنلوجيا ممثلة في إقامة معامل "خائلية" لتعويض النقص الذي تعاني منه معاملنا الحقيقية ، وما احوج أثارنا وما أعظمها – إلى بيئة خيالية تعرضها في سياق تاريخي ومعرفي أكثر اتساعا وعمقا، مما يكشف عن اسرارها، ويبعث فيها الحياة، ويجعل من التاريخ مادة حية تساعد على صنع حاضرنا ومستقبلنا، بدلاً من أن يقوم الآخرون بالمهمة في إطار مخططاتهم لصناعة خائلية موازية لساحة الواقع [48]. وفى هذا الصدد ومن باب " اعرف عدوك" – وبالطبع لا عدو لنا الا الصهاينة ومن ورائهم الامبرياليه الأمريكية – نشير بإيجاز إلى ما يقوم به العدو الصهيوني

في مجال "تكنولوجيا الخائلية" وما يقوم به في مجال الثقافة من خلال التقانة وتكنولوجيا المعلومات على وجه الخصوص، لأن ما يقوم به في هذا المجال يشكل تحدياً خطيرا وجسيما يواجه الثقافة العربية،

وفى البداية نقول : إن التقانة والثقافة تحتل مكانة رفيعة وهامة في "العقل اليهودي الصهيوني" سياسة وعلما وتخطيطا وتوجيها، يؤكد على هذا مقولة، "شيمون بيرز" ، "إن المعلومات أقوى من المدافع" وبلغ به الكرب مداه، وهو يتسلم جائزة نوبل للسلام من أنه سيعمل على تعميم تجربة ادخال الكمبيوتر في المدن الاسرائيلية على كل البلدان العربية. ويتباهى نتنياهو بعظمة "وادي السليكون" الاسرائيلي الذي يربط بين مراكز البحث والتطوير المعلوماتي في مثلث "تل أبيب – القدس – حيفا" ، والذي لا يفوقه على حد زعمه إلا وادي السيكلون الأمريكي.

والآن يراود الكيان الصهيوني حلم الخروج من دائرة الاقتصاد المعتمد على التمويل الأجنبي والمساعدات الخارجية إلى دائرة الاعتماد على مخطط الشرق أوسطية، وهو المخطط الذي يكفل لإسرائيل استمرارية تفوقها العلمي التكنولوجي على العرب، حيث اختص هذا المخطط بصناعات التكنولوجيا المتقدمة، تاركا للعرب الصناعات التقليدية ، كصناعة الأسمنت والأسمدة، والكيماويات، وغيرها. مما يطلق عليها "بالصناعات القذرة" لارتفاع نسبة التلوث التي تنجم عنها

ومن عجب أنه بالرغم من تعثر هذا المخطط – حتى الآن – على المستوى الرسمى إلا أن اسرائيل شرعت بالفعل – ومن جانب واحد – في تنفيذه، حيث بدأت تستغني تدريجيا عن صناعاتها التقليدية لتقيم بدلاً منها قاعدة من الصناعات ذات المستوى التكنولوجي الرفيع ، التي لا تحتاج إلا توافر نسبة لعمالة محدودة جداً، وذلك بفضل الكوادر المؤهلة تأهيلاً عالميا [(49)] بل ويداعب اسرائيل اليوم حلم أن تطول يدها للنفط العربي والأيدي العاملة العربية والمياه التركية، وتضم إليها رؤوس الأموال العربية التي يمكن أن تصل إليها من خلال وسيط أمريكي أو أوروبي أو أفريقي، يساعدها على ذلك نشاطها الكبير في سوق المعاملات المالية. ناهيك – على حد تعبير نادر فرجاني – عن عملاء الداخل من أعضاء الطابور الخامس لتطبيع اسرائيل الصامت [(50)]

وبأسلوب أخر ومن منطلق الترابط الوثيق بين التقانة والثقافة، ويهدف دق الاجراس، عسى أن تفيق من سباتنا العميق، نشير إلى أن العدواليهودي الصهيوني، يمتلك قاعدة علمية تكنلوجية ضخمة ، بفضل الدعم اللامحدود من الغرب، وفي المقدمة حليفها الاول الولايات المتحدة الأمريكية، وبفضل البحوث المتقدمة التي يقوم بها معهدا ويزمان وتيكنون، وتغطى معظم فروع العلم والتكنلوجيا، بما فيها التكنلوجيا النووية، والحيوية والبيلوجيا الجزئية، والمعلومات والاتصالات ، والذكاء الاصطناعي، وبحوث الطاقة، وزراعة الصحراء، واللسانيات ، والطب والدواء .[51]

- ويبلغ معدل النشر العلمي للمراكز البحثية في إسرائيل عشرة أضعاف المتوسط العالمي.
- وتعد الجامعات الإسرائيلية من أعلى الجامعات في معدلات تسجيل براءات الاختراع.
- الارتباط الوثيق والمتفرد بين مراكز البحوث حربية كانت أم مدنية.
- يأتي هذا الكيان في المرتبة الثانية بعد اليابان من حيث نسبة عدد العلماء والفنيين إلى إجمالي عدد السكان . ويزيد من هذه البنية تلك الإعداد الكبيرة المهاجرة إليها من الاتحاد السوفيتي بعد انهياره، وكثير منهم من العلماء والمهندسين ، وبالطبع لم يأت معظم هؤلاء خالي الوفاض وإنما بالتأكيد حمل لبنى عقيدته الهدية "المعتبرة" من حصاد المعرفة والخبرة، وسر المهنة في الكثير من العلوم الحساسة والدقيقة. بمجرد وصولهم إلى أرض الميعاد تتولاهم المراكز- البحثية، صقلا وتدريبا، وإزالة، لما لحق بهم من غبار الاقتصاد المركزى من خلال ادخالهم "حضانات الاعمال"business incubators المنتشرة في المدن الفلسطينية المسماه - اغتصابا - بالاسرئيلية.

ويعد الكيان الصهيوني من أكثر الدول نشاطاَ، في إقامة العلاقات العلمية واتفاقيات التبادل الأكاديمي، ومشاريع التعاون البحثي خاصة مع ما الولايات المتحدة [52] .

هذا قليل من كثير مما لدى العدو من امكانيات علمية تكنولوجية وفقط على المستوى الرسمي، والتي - بالتأكيد - تتضاءل في أهميتها إذا ما

قورنت بتلك غير الرسمية، عبر الشتات، والمنتشرين في الجامعات ومراكز البحوث الأمريكية والأوروبية [53] .

أما فيما يخص عناصر التقانة ذات الارتباط الوثيق بالثقافة- وبالأرخص تلك التي سبق أن أشرنا إلى أهميتها وخطورتها الثقافية - فإن الكيان الصهيوني قد نجح في تأسيس مواقع له في معظم فروع تكنولوجيا المعلومات ،التكنولوجيا سواء في مجال العتاد أو البرمجيات أو الاتصالات.

وتكتفي هنا، وبالأسلوب بالإشارة إلى ما حققه العدو من نجاحات ملحوظة في هذا المجال، حيث عمل على :-

- تطوير ميكروكومبيوتر للأغراض العسكرية.
- تطوير مجال الألياف الضوئية ذات الأهمية الخاصة في إقامة شبكات طرق المعلومات فائقة السرعة.
- اطلاق أول قمر صناعي للاتصالات عام 1996 ليغطي الشرق الأوسط ووسط أوروبا.
- تنوع وشمول برمجياتها خاصة التعليمية والسياسية [54].

وعلى شبكة الانترنت تأتي اسرائيل رغم قلة عدد سكانها في المرتبة العشرين على المستوى العالمي، ويزيد عدد مواقعها على إجمالي مواقع الدول العربية مجتمعة [55] .

الاهتمام الشديد بتطبيقات المعالجة الآلية للغات الإنسانية - وعلى رأسها العربية - بواسطة الكمبيوتر . ويأتي على قمة هذه التطبيقات نظم الترجمة الآلية، والتي وصلت فيها إسرائيل حدا دفعها إلى التقدم لمنظمة الوحدة الأوروبية برغبتها في تطوير نظم الترجمة الآلية للغات دول السوق المشتركة إلى اللغة العربية (لا العبرية..!!) وبالطبع يمكن لإسرائيل أن تستغل في تنفيذ هذا المخطط الطموح بعرب فلسطين في الأرض المحتله عام 1948 [56] .

وتسعى إسرائيل جاهدة - ولم توفق حتى الآن ونأمل هذا - إلى إقامة مشاريع تطوير مشتركة في مجالات نظم المعلومات مع الأردن. كما حاولت اختراق نشاط تطوير البرمجيات في مصر بصورة مستترة، تجتذبها إلى ذلك العمالة المصرية الرخيصة في تخصصات الكمبيوتر.

ومن الجهود أيضا سعيها الدؤوب مع الشركات العالمية لتعريب نظمها وبرامجها حتى تتأهل لدخول الاسواق العربية ، أو في هذا الاطار تقوم استراتيجية مايكروسوفت الشرق أوسطية على ضم اللغتين العربية والعبرية تحت ادارة واحدة، مما يعني اعطاء الحق للمنظمين اليهود في هذه الادارة للنفاذ المباشر للتفاصيل الفنية الدقيقة لتعريب نظم المعلومات.

وهنا نتساءل بحسرة، هل يعقل أن تقوم اسرائيل نيابة عنا – نحن العرب – بمهمة معالجة اللغة العربية آليا؟!! ، أليس في هذا بداية الطريق لأن تحل بنا كارثة ثقافية كبرى؟!! .

لكن، وإمعانا في دق نواقيس الخطر لما يقوم به العدو في حرب المتابعه على جبهة الثقافة، نخصص بعض السطور لبيان كيف يعرض صورة ثقافته اليهودية الصهيونية على أروع تكنولوجيا العصر، ناقلة وصافته ومنتجه الثقافة، ونعني بها "شبكة الانترنت"، التي كانت حلما يداعب الخيال منذ عشر سنوات فقط، فأصبح الآن واقعا يملأ أبصار وأسماع الدنيا، كلها، وبات ضمن برامج الأحزاب لسياسية في كل من أركان العالم، من واشنطن، حتى ساحل العاج [57] فكيف يعرض العدو الصهيوني ثقافته على هذه الشبكة؟

لقد سبق أن أشرنا إلى أن العدو الصهيوني يحتل المرتبة العشرين على هذه الشبكة بالرغم من قلة عدد سكانه. وهنا نقول : إن المشكلة ليست في "كم" وعدد المواقع، وإنما في كيفية ونوعية الطرح الصهيوني لثقافته على هذه الشبكة، بالمقارنة لصورتنا نحن العرب، والتي سبقت الإشارة إليها ، حيث إن الطرح الصهيوني يتم وفق استراتيجية محكمة ، يلخصها لنا متخصص تكنولوجيا المعلومات نبيل علي في الآتي :-

– مساهمة أكبر عدد ممكن من الأفراد والجماعات والهيئات والمؤسسات في كل الميادين والمجالات ، ومن داخل الكيان وخارجه في تشكيل صورة الثقافة اليهودية على شبكة الإنترنت.

– تغطية الخطاب الثقافي اليهودي لمعظم عناصر منظومتي الثقافة والحضارة (ابتداء من مجازر السفاح القاتل يشوع بن نون في التاريخ اليهود القديم من التاريخ إلى مجازر السفاح القاتل المعاصر شارون وابتداء من وصايا التلمود التي تضخ وحشية إلى وصايا المرأة العربية

لأبنتها عند الزواج) ومن أشعارهم وخرافاتهم وأساطيرهم إلى شعر عنترة العبسي، (ومن النواح والبكاء حول حائط المبكي إلى حفلات الديسكو التي تقام بالقرب من المسجد الأقصى) كل شيء لهم ، ولغيرهم على شبكات الإنترنت، ولكن برؤية يهودية صهيونية.

– الاهتمام الشديد في الطرح الصهيوني لثقافته ، بكل الفئات العمرية، ومشكلات كل فئة ابتداء من السكر وضغط الدم عند الكبار الى مشكلات الجنس عند الشباب، ومن العاب الفيديو والكرتون للصغار، إلى المطالب التربوية لطفل الحضانة. كل شيء ، ميسر ومتاح ومعروض وبإبهار وبشكل جذاب.

– التنسيق الشديد بين كل مواقع البث وتبادل معلومات الثقافة اليهودية عبر الإنترنت.

– تجنب الدخول في محاورات نارية حادة سافرة مع نظيره المسيحي، بل يسعى إلى التنسيق والتحالف معه ضد الإسلام والمسلمين.

– حشد التأييد العالمي وبكل الوسائل للشعب اليهودي، وقضاياه، وفي الوقت نفسه قيام اللوبي الصهيوني الثقافي بحشد كل العداء العالمي للإسلام والمسلمين واعتبار الإسلام وراء كل مشاكل العصر .

– إظهار صورة الثقافة اليهودية في شكل ليبرالي قادر على استيعاب كل الناس وكل الأفكار وكل الثقافات واللغات، وإيهام العالم بأن إسرائيل تجمع بين القديم والجديد ، القدس وتل أبيب، بين صحراء النقب والوادي الخصيب، بين روحانيات الشرق ، وثقافة الغرب. بل إنها – على حد زعمهم وما يوهمون به العالم – مهد الحضارات وصاحبة التاريخ التليد عبر كل العصور والممالك(58) . ولما لا وهم يدعون – وبكل وقاحة – أنهم بناة الأهرام على أرض مصر الكنانة!!.

– على أي حال هذه بعض ملامح استراتيجية الطرح اليهودي الصهيوني لثقافته على أحدث تكنولوجيا العصر، نعرضها لا للتهويل بها، ولا لتثبيط الهمم ، وإنما لأنها الحقيقة المرة التي يجب علينا مواجهتها ، فيما يجري على جبهة الثقافة الصهيونية والتي لا يقل خطراً على ثقافتنا وعلى وجودنا مما يجري على الصعيد الأمني في صراعنا مع هذا الكيان.

وبهذا نصل إلى نهاية ما استطعنا طرحه حول "التقانة والثقافة" وما تحمله من تحديات، ومن فرص وتهديدات، للثقافة العربية بصفة خاصة، وعلاقة هذه الثقافة بما عليه وضعنا التقني، وما يجري حولنا في هذا المجال ، خاصة على الجبهة التقنية والثقافية للعدو الصهيوني .

ومما طرحناه يتبين لنا تواضع مستوى هذا الوضع. ويبدو لنا – وبالتأكيد لغيرنا – أنه بالرغم من قوة وعنف ما نواجه من تحديات في هذا الميدان، إلا أننا ما زلنا بعيدين عن جدية المواجهة، وعن التنسيق العربي بالقدر على هذه المواجهة، ولسنا بحاجة إلى كثير الكلام في هذا المجال، لأنه من ضياع الوقت والجهد توضيح الواضحات. ويبدو أننا ألفنا ما يجري حولنا من قوة وتقدم ، وما يدور داخلنا من ضعف ووهن، والدليل على ذلك ما نحن فيه من تخلف في ميدان التقانة والثقافة . نعم هناك عشرات البحوث والدراسات ، ومئات التوصيات ، وفي أبلغ الصياغات لكنها – وكما هو معروف لنا جميعا ولعشرات الأسباب – تظل على المستوى "الورقي" لا "الواقعي" ، فسئمنا البحث، ومللنا الطرح إلى حين إشعار آخر. ونتوقع أن الإشعار لن يكون – إن بقى الحال هو الحال – إلا الكارثة، وما أدراك ما الكارثة على حد تعبير المفكر العربي المعلوماتي نبيل علي [(59)].

وهذا ما قد يتأكد لنا، وبوضوح من خلال طرحنا للشق الثاني من التحديات التي تواجه الثقافة العربية، ونعني بها

ب - التحديات الثقافية:-

يجدر بنا في البداية أن نشير إلى بعض الأمور التي يمكن أن تلقى الضوء على ما نود طرحه هنا من تحديات وتتلخص في الآتي:-

- إن ما نطرحه هنا يرتبط ارتباطا وثيقا بما سبق طرحه من تحديات خاصة بالتقانه في علاقتها بالثقافة. بل يعد من أهم آثارها وتداعياتها الثقافية.

- إننا وكما سبق أن أشرنا لا ننظر إلى التحديات من منظور المخاطر والتهديدات فحسب، وإنما أيضا من منظور فرصها وأهميتها في تجديد وتطوير الثقافة العربية، وكيفية الحفاظ على ثوابتها.

• إنه – وبقدر المستطاع – سنحاول إلقاء الضوء على بعض التحديات الخارجية الوافدة علينا، والداخلية التي هي من صنع أيدينا. مع ضرورة الأخذ في الاعتبار ما بين ما هو آت وافد، ومحلي مقيم من تفاعلات وتشابكات وتداخلات تؤدي في النهاية إلى مجمل التحديات التي تواجه ثقافتنا العربية.

على هذا الأساس نطرح بعض المشاهد من هذه التحديات، سواء الآتية من الخارج، أومن الداخل :

1- مشاهد من تحديات الخارج

كما سبق أن أشرنا، ليس كل تحد وافد بالضرورة فاسدا، حتى الفاسد منه يمكن أن يكون لنا فيه فائدة، لا باتباعه، وإنما بمواجهته واجتنابه، فضلا عن أهميته في شحذ الهموم، واستنفار كل قوانا وقدراتنا للمواجهة، خاصة وإن هناك من لا يريد لنا خيرا، ولا يبغي سوى إضعافنا. وإذلالنا، ليزداد قوة وسيطرة وهيمنة، ويأتي في المقدمة، وعلى وجه الخصوص الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى وجه العموم الغرب الأوروبي. ومن عجب أن يدخل – الكيان الصهيوني، صنيعة هذه القوى – اللعبة في غيبة منا، وفي ظل مؤامرة الصمت التي تسيطر علينا، والتي أشبه ما تكون بصمت الصبور فماذا عن هذه التحديات ؟

1- أولى مشاهد التحدي الفاسدة السافرة تأتي من ثقافة القطب الأوحد، والتي لا تشكل تهديدا لنا فحسب، وإنما لأمثالنا من شعوب ودول الجنوب، أو العالم الثالث، أو النامية، أيا كان الاسم، وأيا كان المسمى. كما أن الخطر، يهدد أيضا الثقافات الغربية،التي ترفض هيمنه وسيطرة ثقافة القطب الأوحد، اعتزازا بتاريخها وهويتها وذاتها القومية، وحماية لثقافتها من تلك الثقافة الغريبة الهجينة، التي يصفها المحللون الغربيون – بل وبعض الأمريكيين – بأسوأ الصفات والنعوت، من جملتها:-

• إنها ثقافة ينعدم فيها الأمن النفسي والاجتماعي، ويسودها الانحطاط الأخلاقي [(60)].

• إنها ليست كتلك الثقافات الكبرى العظيمة التي تدعو إلى الإكبار والاحترام، وإنما هي ثقافة تعتمد – على حد تعبير باربر (الأستاذة

بجامعة نيوجرسي) – على السرعة والبساطة التي تتلاءم مع لهونا ولعبنا وخمولنا

- إنها - على حد تعبير هانس وشومان – ثقافة المسلسلات الأمريكية' وأفلام رعاة البقر، وحلقات " والت ديزني" وموسيقى "الروك" ومطاعم "مكدونالدز" وزغاريد "مادونا" وآهات "مايكل جاكسون"

- إنها ثقافة الصراخ والزعيق الأمريكي المعروف بصكة الآذان، وتسببه للصداع وغيرها من الأفعال المقززة للنفس – كما يقول كورث ستون(61).

- إنها – كما يقول عبد الوهاب المسيري – ثقافة التناقض والسيولة الفكرية، المفتقدة للتكامل والقيم الكلية، والقائمة على العنصرية الداروينية، والتي لا تعترف إلا، بالأقوى، فهي تجعل من الغرب المركز، ومن الرجل الأبيض الجدير بالبقاء لأنه صاحب المشروع الحضاري الوحيد الجدير بالاحترام(62).

- وأخيرا – وليس أخرا – هي ثقافة تعمل بلا كلل أو ملل – على الهيمنة والسيطرة – وتفتيت البني الثقافية، والقيم الأخلاقية، والنظم الاجتماعية والأسرية داخل المجتمعات الأخرى (63)

هذا بعض مما توصف به ثقافة القطب الأوحد، ثقافة المستقبل الموعود، التي يدعوا إليها منظر والعولمة بكل كبرياء وشموخ، وفي تحد صارخ للثقافات الأخرى.(64) ومن هؤلاء المنظرين المحلل الأمريكي ديفيد روثكوب الذي دعا إلى ضرورة أن تعمل الولايات المتحدة على إزالة كل الحواجز الثقافية ، وأن تهيمن على موجات الأثير، وتحقق النصر في معركة تدفق المعلومات ، حتى تكون لها السيطرة والهيمنة في الحاضر كما كان لبريطانيا السيطرة على البحار في الماضي. وأنه يجب على الولايات المتحدة أن تقوم بمهمة القضاء على كل الثقافات، وما تنطوي عليه من قيم وأخلاقيات وتقاليد وأعراف، ونظم اجتماعية وسياسية وقانونية، على أن تحل محلها "الثقافة الأمريكية" باعتبارها ثقافة الديموقراطية الليبرالية، والتي يجب أن تكون "السقف" الثقافي والسياسي الوحيد لكل الدول والشعوب، ففخر لها أن تستظل بها ، وواجب على الولايات المتحدة أن تصدرها لكل دول وشعوب العالم ، حيث أنها البديل المضمون لأصولها التاريخية وتراثها القومي. وفي النهاية يدعو روثكوبف إلى ضرورة أن تكون اللغة الإنجليزية هي لغة الثقافة

الجديدة للعالم، لغة التخاطب على الكوكب الأرض، وعلى الولايات المتحدة أن تقوم بهذه المهمة، وعلى الآخرين مساعدتها من أجل عصر جديد أكثر إشراقا وبهجة تقدما ورخاء.

دعوة صريحة وواضحة بأن تتولى الولايات المتحدة الأمريكية مسئولية اكتساح الثقافات والهويات القومية لتحل محلها الثقافة الأمريكية ثقافة الديموقراطية الليبرالية – باعتبارها – كما يدعي فوكوياما (ياباني الأصل، أمريكي الجنسية) قد حققت أروع الانتصارات على الأيديولوجيات المنافسة، وكتبت بذلك "نهاية التاريخ" فلا تاريخ بعد الثقافة الأمريكية على حد زعمه[65].

ولقد كانت الولايات المتحدة عند حسن الظن فعملت على توفير الآليات فائقة القدرات والإمكانيات لتصدير ثقافتها، وسحق الثقافات الأخرى. وهذه إشارة سريعة لبعض ما تقوم به في هذا المجال:-

- الأنفاق سنويا لما لا يقل عن 250 مليارا من الدولارات، على أساليب الدعاية لترويج ثقافتها. وإنشاء محطة البث التلفزيوني MTV

- بث الصور الخليعة والموسيقى والفنون التي تدغدغ الأحاسيس والمشاعر، فضلا عن الإعلانات الفاضحة، والتي تقوم على الخدع والحيل السينمائية، مقابل الحصول على مبالغ طائلة ، حيث أن ما مدته "ستين ثانية" (دقيقة واحدة!!) في إعلان تليفزيوني واحد عابر للقارات يتكلف في المتوسط ما يتكلفه فيلم سينمائي في أوروبا . كما تنفق الولايات المتحدة على الفيلم الواحد ما قيمته 59 مليونا من الدولارات . وهو مبلغ – على حد تعبير مارتن وشومان – لا يخطر ببال أي منتج – غير أمريكي بالطبع مجرد التفكير فيه. مع الملاحظة أن كثيرا من هذه المواد الخليعة الفاضحة استطاعت النفاذ إلى البلدان العربية والإسلامية، غير القادرة – حتى الآن – على مواجهتها أو السيطرة عليها، فكما يقول – المحللان الأمريكيان مارتن وشومان - يتم تصديرها إلى هذه الدول بوسائل وأساليب يصعب السيطرة عليها [66].

- ناهيك عن الحلقة الكثيفة من الأقمار الصناعية (زهاء 500 قمر صناعي) التي تدور في فلكنا الأرضي في تشكيلة متنوعة تشمل أقمار البث المباشر،

وأقمار المدارات المرتفعة والمنخفضة ، وأقمار الرادار الرقمي، وأقمار قنوات الإرسال التلفزيوني المتخصصة، وجميعها تصوب وابلا من رسائلها الإعلامية، إلى عقولنا [67]، ومرسلة إشارات تبشر بالحداثة وثقافة العولمة بواسطة الصور الموحدة على شاشات حوالي مليار من أجهزة التلفزيون ، موزعة على الكوكب الأرضي، تحاول اقتلاع الملايين من البشر من جذورهم وثقافتهم وحياتهم القروية البسيطة، والرمي بهم في خضم أبعاد فلكية، لا يعلمون منتهاها، ولا إلى أين سينتهي بهم المطاف

مع ملاحظة هامة جدا هي أن الأقمار الصناعية Star TV التي تنطلق من هونج كونج، تغطي أربع مناطق يسكنها نصف سكان المعمورة، وعلى مدار الأربع والعشرين ساعة تبث برامجها التي تقدمها حسناوات من كل الأجناس وبكل اللغات، حتى العربية لأن بلدان الخليج العربي تقع ضمن هذه المناطق الأربع [68].

من هنا نتساءل : هل هناك من تحد لهويتنا وثقافتنا العربية القومية أخطر من هذا ؟. لكن المدهش – وكما يقول نبيل علي – يوجد لدينا من لا يستسيغ ألفاظا من قبيل الغزو الثقافي، وخلل التبادل الإعلامي، وفجوة موجة الأثير بين مالكي المعلومة وفاقديها [69] ونقول: إنه بعينه الاختراق الثقافي . كيف ؟ لنترك الإجابة مؤقتا لعرض مشهد آخر من مشاهد التحديات الثقافية الخارجية – وبالأخص من آثار وتداعيات عولمة القطب الأوحد، ويشكل في الوقت نفسه تمهيدا للإجابة عن السؤال المطروح.

2- يعبر هذا المشهد عن "اتفاقية الجات" وما تفرضه من قيود حول أمور الملكية الفكرية، ومن عقوبات رادعة لمن يخرج عليها أولا ينطوي تحت لوائها. وها هي الولايات المتحدة تعلن بناء على هذه الاتفاقية – إنها سوف تطبق، عقوبات رادعة على كل من تسول به نفسه المساس بحقوق الملكية الفكرية لصناعتها الثقافية من ترجمة للكتب إلى توزيع موسيقى "الروك"، أو استخدام برامج الكمبيوتر التعليمية والتربوية. وقد شرعت بالفعل في تطبيق هذه العقوبات، بفرض غرامة على الصين تربو على ثلاثة مليارات دولار إن لم تتخذ الإجراءات الكفيلة بمنع نسخ سلع الثقافة الأمريكية من شرائط الفيديو، وأقراص "السي – دي – "، وتستطيع أمريكا حاليا فرض

نسبة معينة تقدرها جزافا مما تمنحه وكالاتها للتنمية الدولية، وتصلها من المنبع مباشرة، تعويضا عن حقوق الملكية الفكرية لنسخ برامج الكمبيوتر في الدول الممنوحة.[70] وبالطبع تستثني من ذلك حليفتها إسرائيل أكبر مطلق للمعونة الأمريكية، وبالرغم من أنها- كما تشير الإحصائيات – تعد من أكثر دول العالم نسخا للكمبيوتر [71].

لكن لا بد أن نشير إلى أن فرنسا أخذت موقفا صلبا من قضية الملكية الفكرية حفاظا على ثقافتها ، ومنحت ما يعرف "بالاستثناء الفرنسي" الذي يعطيها الحق في فرض ما تراه من قيود على استيراد منتجات الثقافة الأمريكية، وعمل ما تراه مناسبا لما يدعم صناعتها الوطنية.[72].

ويبقى السؤال ما مصير غير المستثنين من هذه الاتفاقية،من أمثالنا ؟ خاصة ونحن من المسالمين "الطيبين"، ولا نرغب في إغضاب أحد، وفي المقدمة الولايات المتحدة ؟ وهل هناك طيبة ومسالمة أكثر من أن تقوم كثير من الحكومات العربية – وبنشاط تحسد عليه – بدور شرطي حماية الملكية الفكرية لشركات صناعة الملعومات متعدية الجنسيات ؟ وحول هذا الموقف يقول نبيل علي اللـهم لا اعتراض، لكن، وكل ما نتمناه، أن تحظى صناعة المعلومات بالقدر نفسه من الاهتمام بالحماية . على أي حال لنبقى مع مشاهد التحديات.

3- نعرض مشهدا ثالثا، ويأتي هذه المرة، ومن عجب، من الكيان الصهيوني ، فبعد أن بات يشكل لنا "خصما معلوماتيا" خطيرا، أصبح يشكل "خصما ثقافيا" لا يقل خطورة، إن لم يكن أخطر من كونه خصما معلوماتيا.فهذا الكيان يستخدم في صراعه معنا كل الأسلحة الثقافية الساخنة والباردة، المشروعة وغير المشروعة، وسوف يزداد ضراوة في استخدامها، لأن العصر بات "عصر الثقافة"، ولأنه "أجبن" من أن يخوض حربا عسكرية قد تطول، كما أنه متأكد أن العرب – لتشر ذمهم وتخاذلهم وضعف أرادتهم – غير قادرين على دخولها، مفضلين عليها ما يتقو ننه جيدا "حرب الكلام"، وكفى اللـه المؤمنين شر القتال!! وبالتالي أخذ يتحدي ويزداد غروره وغطرسته على جبهة الثقافة، بدرجة لا تقل عن غروره وغطرسته على الجبهة العسكرية، وهل هناك غطرسة أشد من أن يعلن علماء الآثار الصهاينة من أنهم وإن شعروا بخيبة أمل في العثور على أي أثر – من خلال

التنقيب في الأراضي العربية- يدعم ما ورد بالتوراة مزاعمهم عن دولة "إسرائيل الكبرى" إلا أن هذا لا يمثل مشكلة بالنسبة لإسرائيل فهي - كما يزعمون - فإسرائيل لم تعد بحاجة إلى هذا الدعم، وقد شبت عن الطوق.

ومع ذلك حول الصهاينة ما فشل فيه علماء الآثار على أرض الواقع، إلى "نجاح" في عالم " الخيال"، عن طريق "المؤرخين"، ومصممي الملاهي. وما يزال عالقا في الذهن "الجناح" الذي أقامته إسرائيل في حديقة الألفية لوالت ديزني، وفيه عرضت تاريخ مدينة القدس عبر العصور، بعد أن أعادت بناء هذا التاريخ بما يتفق مع مخططاتها وأحلامها بشأن هذه المدينة المقدسة، وهي الحادثة التي أثارت كما هو معروف ردود فعل غاضبة من قبل الشعوب العربية الإسلامية. مما ويؤكد على أن الحرب الثقافية مع الصهاينة ستكون حربا ثقافية.ويؤكد أيضا على التطلعات والطموحات اللامحدودة لهذا الكيان.

وهل هناك تطلعات وطموحات أكثر من أن يقدم هذا الكيان المحدود في مساحته وعدد سكانه – نفسه للعالم على أنه عظيم الشأن في مجال الثقافة، فثقافته تمتد- حسب أساطيره وخرافاته - إلى أكثر من أربعة آلاف عام من اليهودية، وألف عام من الصهيونية، وخمسين عاما منذ أنشاء هذا الكيان .[(73)].

كما يقدم ثقافته على الإنترنت – بالرغم من تعددها الشديد– على أنها باقة من ثقافات أصيلة جمعت من البساتين الثقافية لدول الشتات. ويحرص على إظهار هذه الباقة على أنها أبعد ما تكون عن التشتت، وإنما فيها تتناغم وتتفاعل كل الثقافات في سيمفونية ثقافية رائعة، هي "الثقافة اليهودية الام"،والثقافة الصهيونية "ابنتها".

باختصار يمكن القول : إن الكيان الصهيوني يمتلك مقومات ثقافية تجعل منه خصما ثقافيا عنيدا، وتحديا خطيرا للأمة العربية، وثقافتها بوجه أخص،منها على سبيل المثال ، لا لحصر:-

– تعدد اللغات داخل هذا الكيان مما يعطيه ميزة التعامل مع معظم دول وشعوب العالم، خاصة الشعوب الأفريقية الأرض البكر، للثقافة الصهيونية.

- وجود اللغة الروسية كرافد هام فرض نفسه بعد انتهاء الاتحاد السوفيتي، مما يعطي الكيان ميزة ثقافية تنافسية ممثلة في إمكانية تعامله المباشر مع الجمهوريات الإسلامية التي انفصلت عن الاتحاد السوفيتي السابق وتتكلم "الروسية" كلغة أولى حتى الآن [74].

- كثرة العلماء اليهود في الجامعات الغربية، الأمريكية والأوروبية، وفي معظم فروع المعرفة، خاصة تلك المتعلقة بالثقافة كاللسانيات، وعلم الاجتماع، والأدب، والآثار، وغيرها من المعارف والتخصصات الثقافية.

- العلاقات وجمعيات الصداقة المتعددة التي أقامتها إسرائيل مع معظم بلدان العالم ابتداء من اليابان حتى موريتانيا.

- التواجد المكثف على شبكات الإنترنت واستخدام هذا التواجد ليس فقط لتحسين صورة ثقافته، وإنما أيضا لتشوبه صورة الثقافة العربية والإسلامية، خاصة ما يتصل منها بتراثنا الثقافي القريب والبعيد. ناهيك عن تشويه صورة رموزنا الفكرية والدينية وتزييف صور فنانينا وفناناتنا، لا بغرض التشهير والتشويه فحسب وإنما بغرض التسويق.فضلا عن السوق الرمارية لأفلام الجنس في بعض البلدان العربية.

- الاهتمام الشديد بتحليل الشخصية العربية، ومناطق القوة والضعف فيها، بالدرجة التي أدت بالصهاينة إلى تفكيك شعرنا في البطولة والرثاء وطقوس عاشوراء في كربلاء في محاولة منهم لتفسير ظاهرة الاستشهاد بين ثوار منظمة حماس والمقاومة اللبنانية في الجنوب اللبناني [75].

- الاهتمام الواضح بالمتاحف والمعارض والمسارح المتنقلة، ونشر الكتب، حيث تحتل إسرائيل في مجال النشر - بالنسبة لعدد السكان - المرتبة الثانية

- الاهتمام بالترجمة إلى العبرية من كل اللغات، وبالطبع من العربية.

- الاهتمام بمختلف أشكال الفنون الأكاديمية والشعبية، خاصة تلك التي لها ارتباط بالتراث الديني والأعياد اليهودية.[76].

قائمات التطلعات والطموحات والأنشطة الصهيونية على جبهة الثقافة قائمة طويلة، وتستحق منا، كعرب وقفة جادة مع النفس، لا بغرض تعذيب

النفس وجلد الذات، وإنما بغرض المراجعة الناقدة لأوضاعنا الثقافية، حتى لا تتسع الكارثة كما سبق أن أشرنا أكثر من مرة.

وهنا نتساءل: ألا يؤكد ما طرحناه لبعض مشاهد تحديات الخارج، وما طرحه - ويطرحه غيرنا من المشاهد - على أننا بالفعل بتنا مستهدفين من قبل الغرب بصفة عامة، والأمريكان وذيوله الصهاينة بصفة خاصة ؟ نتساءل: لا من قبيل "العقلية التآمرية" عند العرب - كما يصفهم خلدون النقيب [77]، وإنما بالمنطق الذي يؤكد عليه الجابري وهو "الاختراق الثقافي"، فكما تبين لنا من مشاهد تحديات الخارج بات الغرب ينفرد بالوضع الثقافي الدولي الراهن، بعد انفراده بقيادة العالم، وبما لديه من إمكانيات وقدرات هائلة على كل الجبهات، وفي مقدمتها تكنولوجيا المعلومات. وأصبح بهذا الانفراد يكرس لاستراتيجية ثقافية جديدة هي "ثقافة الاختراق"، قوامها الهيمنة والسيطرة على كل "الاطراف" ، التي هي ما عداه من بلدان القارات الثلاث: أفريقيا وآسيا وأمريكيا اللاتينية، وفي القلب البلدان العربية.

باختصار: قد حل "الاختراق " محل "الاستتباع"، فما كان معروفا من مصطلح "التبعية الثقافية" قد تحول الآن إلى عملية تكريس وترسيخ لثقافة جديدة هي "ثقافة الاختراق" وهذا هو المعطى الجديد الذي يجب علينا إدراكه وبوعي ومواجهته، لا بالانغلاق أو الاغتراب، وإنما بتقوية "الذات" [78]، وإعادة ترتيب البيت الثقافي العربي من الداخل، وهذا لن يتأتى إلا بالمراجعة الناقدة لكل عناصرها الثقافية، واستمرارية تجديدها وتطويرها، وامتلاك ناصية تكنولوجيا العصر لمواجهة هذا الاختراق.

2- مشاهد من تحديات الداخل

إننا بالفعل في أمس الحاجة إلى المراجعة الناقدة لكل شئون حياتنا العربية، وفي القلب منها "الشئون الثقافية". فالواقع الثقافي العربي يحمل العديد من المشاهد التي تدعو للأسى، وتشكل في مجملها تحديات "ذاتية" آتية من الداخل، ولا تقل خطورة وأهمية عن تحديات الخارج. وفيما يلي ما قد يوضح هذه المقولة من خلال عرض مشاهد من تحديات الداخل المشاهد كثيرة ومتعددة، والغالب الأعم منها بات معروفا، والكتابة عنها باتت مكررة ومعادة، ومن كثرة تكرارها، وترددها أصبحنا نألفها، ونعايشها، ونتعايش معها، ولم تعد تؤرقنا - كما سبق أن أشرنا - وبإيجاز نشير هنا إلى بعض

المشاهد، فقد تحرك لنا ساكنا، بل لا بـد أن نتحـرك، حفاظـا عـلى الهويـة والـذات، وتجنبـا للتهميش والعزلة، ولنبدأ بمشهد :

1- نمط التفكير السائد في ثقافتنا العربية، وفي هـذا الصـدد يقـول حامـد عـمار: إن التفكـير العلمي الرشيد لا يتوافر لدينا إلا في قلة قليلة من العلماء والمثقفين وذوات الخـبرة الواعيـة، حيث لم يصبح ذهنية عامة شائعة، أما عكسه فهو الشائع واسع الانتشار.

ويطرح لنا حامد عمار مجموعة من أنماط التفكير غير العلمية الشائعة في ثقافتنـا العربية، وتتلخص في التفكير من خلال "الفروسية" متمثلـة في تضـخيم الـذات، ومـن خـلال "الخوارق" التي لا تخضـع لنـواميس الطبيعـة أو قـدرات الـبشر العاديـة، أو انسـاق الحيـاة المألوفة. والتفكير من خلال "البطل" الذي تستند إليه الأعمال، وكأنه محرك الاحداث وصانع التاريخ، وإليه يرجع الأمر كله. والتفكير من خلال "السلطة" باعتبارها القوة العارفة المدركـة التي لا تخطأ دائما ومن خلال "المنفعة" الخاصة والمصالح الشخصية، ومـن خـلال "الإسـقاط على الخارج" تبريرا للعجز، ومن خلال "الرومانسية" تمجيدا للانجازات والانتصارات الحقيقية منها والمتوهمة. والتفكير من خلال "الهرب" تجميلا للدافع، وإبرازه في أجمـل صـورة، ومـن خلال "الزمن" ترحيلا للأحداث، وبمنطق ان الزمن قـادر عـلى حلهـا. إلى آخـر هـذه الأنمـاط المتشابكة المتفاعلة مع بعضها والتي باتت تتغلب على حياتنا، على مستوى الخاصة والعامة، مع وجود استثناءات قليلة لا تحول دون اعتبارها ظاهرة عامة في ثقافتنا العربية. (79).

2- نمط الفكر الثقافي العربي مقارنا بفكر عصر المعلومات. وفي هذا الصدد يقول نبيل عـلي : إن نمط الفكر السائد لدينا أبعد ما يكون عن فكر عصر المعلومات. ويطرح عينة من الأنماط السائدة فيه، وهي على النقيض تماما من فكر هذا العصر.

وتتلخص هذه الانماط في كون الفكر العـربي فكـرا تقليـديا، سـطحيا دوجماتيـا، استسـلاميا، لاعلميا، دمجيا، رجعيا، قاطعـا، هروبيـا، توفيقيـا، فرديـا، محليـا، أحاديـا، سرمـديا، انطوائيـا، جزئيا، إلى آخر قائمة من الأنمـاط التـي يعـاني منهـا فكرنـا العـربي وتبعـده كثـيرا عـن الفكـر المطلوب لعصر المعلومات (80).

كما يطرح نبيل علي بعض الخصائص العامة لفكرنا الثقافي العربي الجديرة بالإشارة إليها، وتتلخص فيما يراه من نزعة هذا الفكر إلى الخطية المفرطة التي ترى أن الظواهر تسير في هيئة سلاسل متلاحقة متدرجة، تتحرك من نقطة بداية صوب غاية محدودة مسبقا، ومن ثم فقدان المنهجية القادرة على التعامل مع العناصر والعلاقات المتعددة، ومهارات التفكير الشبكي والمسارات التي تربط بين المدخلات والمخرجات. كما أنه فكر ذو طابع استثنائي يفتقد الحد الأدنى من الدينامية المطلوبة للتكيف مع الايقاع السريع لعصر المعلومات. وهو ينزع إلى التخصصية الضيقة، التي لا تحاول عبور الحواجز بين نوعيات المعرفة المختلفة، ومحاصرة غابات التداخلات التي تربط بينها. كما أنه فكر ينزع إلى الموجب والقاطع والمحدد والمحكم، ويفزع من مواجهة "الزائغ" والمحتمل والمتداخل والمتشابه، وينحاز إلى الثابت على حساب المتغير، والسائد على حساب المتجدد، ويلح على الإجماع وينفر من الاختلاف والتعدد.

كما ينفر من التعامل مع ظواهر "السلب" ومن ثم يفزع من "لا" وينزع إلى "نعم"، مع أن مفهوم "السلب" له دوره الهام في كل ميادين ومجالات المعرفة، ويرتبط بها ارتباطا وثيقا، بل إنه سر تقدم العلم والشرط الضروري، فالعلم لا يعد علما – كما يقول كارل بوبر – إلا إذا كان قابلا للخطأ والتغيير، فالمعرفة وليدة التجربة والخطأ – كما يقول لاكوتس،وكارل بوبر – [81].

وبخصوص التفكير من خلال "السلب" فإنه من الملفت للنظر أن علمائنا القدامى ومنذ مئات السنين استخدموا منهجية "السلب" في الكثير من تحليلاتهم وتفسيراتهم ومناقشاتهم، وكثرت لديهم مصطلحات المتشابه والمتداخل والمحتمل والخطأ، وغيرها من المصطلحات التي تدل على بعد نظرهم في فهم أهمية منهجية "السلب" في اكتساب المعرفة.

على أي حال تكشف لنا هذه الأنماط والخصائص مدى ما تعانيه "منهجية" تفكيرنا الثقافي في عالمنا العربي من قصور يبعدها كثيرا عن المنهجية العلمية اللازمة لأنتاج فكر يسهم في أثراء المعرفة، ويعمل على تطوير المجتمع. وهذا ينقلنا إلى مشهد آخر من مشاهد تحديات الداخل:

1. والمشهد هذه المرة يتعلق بإنتاجنا الفكري والممارسات والأنشطة المرتبطة به، وبخصوص واقع هذا المشهد، يمكن أن إنتاجنا الفكري، يعاني العديد من أوجه القصور منها:

– انخفاض معدل الانتاج الفكري رفيع المستوى، القادر على النهوض بالأمة وبعثها الحضاري، وضعف انتاجنا في مجال الترجمة، بالرغم من حاجتنا الشديدة لها، باعتبارنا مستوردين أصلاً للعلم، لا منتجين له، وهذه الحاجة لا تتناسب مع ما يتم ترجمته، فجملة ما يترجم، شفويا في عالمنا العربي في حدود 300 كتاب سنويا وهو أقل من خمس ما تترجمه اليونان. وإن أجمالي ما ترجمناه منذ عصر المأمون حتى الآن لا يزيد عن عشرة آلاف كتاب، وهو يعادل ما ترجمته أسبانيا في عام واحد [82]. وهذا يشير إلى أننا نعاني انكماشا معرفيا في نقل فكر الآخرين، بعد أن عجزنا عن انتاجه. ولا شك في أن هذا يرجع في جانب كبير منه إلى غياب حرية الفكر في البلدان العربية [83].

– التقاعس في نقل تراثنا واظهاره للآخرين بل وتقبلنا أن يقوم الآخرون بصناعة صورة ثقافتنا بالنيابة عنا، فالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم قام به مستشرق ألماني، والمعجم المفهرس للأحاديث النبوية قام به مستشرق هولندي، وترجمة ألفاظ القرآن الكريم قام بها مستشرق فرنسي. وهكذا تركنا لغيرنا تولي أمر نشر ونقل تراثنا !! [84].

– الجدل العقيم حول الكثير من القضايا التي باتت من مخلفات الماضي، وعفا عليها الزمن. فما زلنا نلف وندور – ونحن في القرن الحادي والعشرين – حول قضايا شغلت المفكرين منذ أكثر من قرن. وما تزال تشغلنا حتى الآن، والقضايا معروفة ومن يطالع وسائل الاعلام المرتبة والمسموعة والمقروءة يشاهد العجب العجاب من هذه القضايا، والاتهامات المتبادلة بين الكتاب أو المتحاورين.

– الصراع الفكري والخصومة التي تصل إلى القطيعة بين فرق فكرنا القومي والديني والسلفي والعلماني. كل فريق يضع شروطا مسبقة للحوار تنسف نظرية وقواعد أنطلاق الاخر، ومعاركنا الثقافية ما بين الضجيج وتصفية الحسابات [85].

– تفضيل "المونولوج" على "الديالوج" في حوارتنا، وفي تعاملنا مع الآخر، فكثيرمنا – كما يقول الجابري – لا يرى قيام نهضة عربية أو إسلامية إلا في غيبة الآخر أو إلغائه [86].

خلاصة القول : إن فكرنا الثقافي العربي يعاني من أزمات طاحنة، على كل الجبهات. وعلينا أن نتصفح كتابات الناقدين والمحللين لنرى مدى حجم ما طرحوه من أوصاف لفكرنا العربي الراهن، لدرجة انه يخيل للفرد أنهم استهلكوا جميع المصطلحات التي تدور حول الاتهام والتقاعس والسلبية، ومن تلقين وتبعية، وترديد، وردة ثقافية وعزلة معرفية، وجمود فكري، وانغماس حضاري، وغيبوبة أكاديمية، وغيبة الحوار، وغربة الاصالة، واجهاض الابداع، وفوضى الساحة الثقافية. ولقد تفاقم الوضع – في نظر البعض – وكأن الفكر العربي قد فقد الرغبة في انتاج المعرفة [87].

وما يراه هذا البعض له ما يبرره، فالفكر في عالمنا العربي يعيش واقعا يعاني العديد من أوجه القصور والخلل، فالفكر لا يعيش في جزيرة منعزلة، وإنما أحد منظومات المجتمع، يرتقى برقيها و يفسد بفسادها. إننا لا نستطيع الفصل – مثلا – بين أخفاق الفكر وبين أخفاق الكثير من الأنشطة والممارسات في أي مجال من مجالات الحياة العربية لأنها تعيش جميعا مناخا واحدا، وتعمل على أرضية واحدة. ومن ثم فإن الاخفاقات باتت على كل الجبهات، وكلنا نلمسها، ونعايشها، ولا تحتاج منا إلى بيان. وقد تكفى الاشاره هنا الى :-

– إن أداءنا أقل بكثير من قدراتنا، وما حققناه أقل بكثير ما أنفقنا، وحماس الاغلبية العربية المطالبة بإحداث التغيير لا يحتاج إلى دليل، والأصوات المطالبة بالتغيرات الجذرية وإشاعة الديموقراطية مرتفعة عالية، ولا جديد أو مجيب.

– إننا ما زلنا عاجزين – في وسط هذه الموضة من التكتلات العالمية والاقليمية والسياسية والاعلامية والتكنلوجية – الوصول إلى صيغة الحد الأدنى لتكتل عربي، لم يعد من قبيل الحمية القومية، وإنما مقوم أساس لاحداث التنمية، ومواجهة تحديات عصر التحديات بالدرجة التي دفعت بالبعض إلى القول : إننا بحاجة إلى "عوربة" لا إلى "عولمة". ونحن

نقول: إننا في حاجة إليها معا : حفاظا على الهوية والذات القومية، واستجابة لمتطلبات الحياة العصرية [88].

- إخفاق حكومتنا العربية - حتى الآن - في مواجهة ضغوط الخارج، وفي إقامة حوار اجتماعي مع شعوبها، مما يشير إلى أنها باتت "أصغر" من مواجهة ضغوط الخارج "وأكبر" من التعامل مع مشكلات الداخل [89] .

عشرات التحديات الوافدة من الخارج والنابعة من الداخل، والتى تواجه الثقافة العربية وتفرض على كل المؤسسات مواجهتها، وفى القلب منها التربية، وهذا ما نحاول طرحة فى الفصل الثانى من الباب (السادس من الكتاب).

الفصــل السادس

دور التربية في مواجهة التحديات

التي تواجه الثقافة العربية.

فى هذا الفصل نحاول طرح بعض الأدوار التى يمكن ان تقوم بهـا التربيـة لمواجهـة التحديات التى تواجه الثقافة العربية، ممهدين لها بأهمية التربية فى هذا المجال، وفيما يلى مانود طرحه فى هذا الفصل.

أولا:التربية وأهميتها في مواجهة التحديات التى تواجه الثقافة العربية.

لن نتحدث طويلاً عـن التربيـة، لأننـا قـد لا نضـيف جديـدا في هـذا المجـال. خاصـة وأن الحديث عنها لم ينقطع منذ تجرع سقراط السم وهو يقوم بدوره في تربية الشباب الأثينـي - وحتى الآن – ويكفينا القول :-

إنه في عصر يحمل " النهايات " للعديد من المفاهيم والأنساق والمنظمات عـلى شـاكلة : نهاية التاريخ، نهاية الإيديولوجيا، نهاية المدرس، نهاية المدرسة....وهلم جرا – ما تزال التربية قائمة، ولم – ولن يستطيع- أن يقول أحد بنهايتها، أو حتى مجرد التنبؤ بهذه النهاية. بل إن مـا حـدث هـو العكـس، حيـث أصـبحت - في عصر التحـديات – في قلـب الاهتمامـات والأولويات. ولم لا ؟ والبشرية تغامر وتقامر بمصيرها مندفعة صـوب مسـتقبل مجهـول لا تعرف له مدى يمكن أن يصل إليه. وبقدر ما هي مفعمة بالآمال المشرقـة، تعتمـل بـداخلها مشاعر ومخاوف شتى من هذا المستقبل المجهول. فالتهديدات لا تقل احتمالية عن الفـرص . فأي تربية تلك التي بيدها خلاص الأجيال من هذه التهديـدات ، ومعاونتهـا عـلى اقتنـاص الفرص النادرة، التي لم تتح لأي جيـل في أي عصر مضى ؟ ثـم مـن تكـون التربيـة بيـده:هـل الحكومات التي بدأ يفلت من يدها الزمام من جـراء العولمـة؟ أم بيـد الكبـار مـن يمتلكـون بيدها زمام كل الأمور؟وهل ستكون في خدمة المجتمع أم في خدمة رجـال المـال والاقتصـاد؟ أسئلة كثيرة ومقلقة ومع ذلك ستظل التربية مطلب الأجيال، ومنطلق تحقـيق الآمال.

فهي الملاذ وطوق النجـاة وقـت الشـدة والمحـن، فالولايـات المتحـدة الأمريكية بكل تفوقها تلجأ إلى التربية إصلاحا وتجديدا عندما شعرت بتفـوق

السوفيت عليهم في إطلاق أول قمر صناعي عام 1957 . وحدث بعد ذلك اكثر من مرة وما من رئيس أمريكي يعتلي كرسي الرئاسة إلا ويكون إصلاح التعليم على أولويات برنامجه وأجندة عمله في أول خطوة يخطوها إلى البيت الأبيض. وما تزال الولايات المتحدة تشعر " بالنقص التربوي " تجاه اليابان بعد أن استشعرت لهيب التفوق التكنولوجي القادم إليها من الشرق.

أما في الكيان الصهيوني فحدث ولا حرج عن اهتمامه بالتعليم ، ابتداء من حضانة الأطفال حتى الدراسات ما بعد الجامعية. وتوجد على الإنترنت مواقع عديدة لتعليم أبناء الجاليات اليهودية في مهاجرهم [90]

على أي حال، فإنه من المتوقع - كما نؤكد العديد من المحللين والباحثين تزايد الاهتمام بالتربية في عصر التحديات، عصر التكنولوجيا والمعلومات، وسوف يأخذ الطرح التربوي مداه. فها هي الولايات الأمريكية كعهدنا بها دائما في الهيمنة والسيطرة - تسعى جاهدة إلى عولمة التربية، تحت شعار حماية حقوق الإنسان. وهي في الحقيقة - وتحت هذا الشعار الجذاب الكذاب - تسعى إلى مزيد من النجاح لعولمتها الثقافية ، فعن طريق التربية يكثر زبائن مستهلكي قيمها وأخلاقياتها وإلى مزيد من نجاح عولمتها الاقتصادية فبالتربية يمكن تنمية النزعات الاستهلاكية لدى الصغار، زبائن المستقبل [91].

أما في عالمنا العربي فقد داخله بعض ما يشعر به عالم اليوم من قلق على التربية وإحساس بأهميتها في عصر التحديات. خاصة وأن الشعور السائد بأن الأزمة التي تعاني منها مجتمعاتنا العربية هي في الأساس أزمة تربوية [92].

ونقول إن العالم العربي في حاجة إلى التربية بدرجة لا تقل أهمية عن حاجة المجتمعات المتقدمة لها إن لم تكن أكبر ، فالتربية هي المخرج للأزمة التي نعاني منها.

- فقدان الثقة بما لدينا من خبرات مع تزايد الثقة في الخبرات الأجنبية التي قد تكون أقل من المحلية خبرة ومهارة، إنها عقدة الخواجه!!.

- نظرتنا لمفهوم حقوق الإنسان والديموقراطية على أنها أمور غريبة علينا، لا شان لنا بها. في حين ترتفع رايات الديموقراطية في أدغال أفريقيا، وجنوب شرق آسيا، وبلدان أوروبا، الشرقية ونقول - مع نبيل

علي – إن غياب الديموقراطية في بلداننا العربية – مع اتساعها في مجتمعات أخرى، ومع وجود تكنولوجيا المعلومات التي باتت قادرة على كشف كل شيء، حتى الأسرار الشخصية – يمكن أن يشكل تهديدا حقيقيا لاستقرار النظم والحكومات، مما يفرض عليها ضرورة العمل على اتساع رقعة الديموقراطية، بدلا من أن تفرضها عليها شعوبها[93].

لهذا ولغيره علينا أن نتحرك، ونعلن استنفار كل قوانا وقدراتنا وإمكانياتنا وتنظيماتنا ومؤسساتنا لمواجهة تحديات الخارج والداخل في ظل عصر التغيرات والتطورات الحادة والعنيفة، عصر التحديات. وهذا ينقلنا إلى بيان:

ثانيا: الادور التى يمكن أن تقوم بها التربية في التغلب على التحديات التي تواجه الثقافة العربية:

بداية نشير إلى بعض الأمور ذات الأهمية في تحديد دور التربية . وتتلخص في الآتي:-

* إن حجم التحديات ونوعياتها وتعقدها يجعل من الصعب على أي مؤسسة بمفردها القيام بمواجهتها ، وبالتالي فإنها مسئولية المجتمع، كل المجتمع على اختلاف هيئاته ومؤسساته. ومع ذلك تأتي التربية في القلب منها، لدورها التاريخي والحضاري، قديما وحديثا.

وكما سبق أن أشرنا في بداية الدراسة الحالية – أصبح دور التربية الآن أخطر مما كان عليه في أي وقت مضى، حيث تنتظرها تحديات جسام لا عهد لها بها من قبل.

* إن هذا لن يتأتى إلا بالنظرة الواسعة للتربية الشاملة للتعليم المدرسي وغير المدرسي، فكما تكون التربية في المدرسة يمكن أن تكون في الأسرة، في دور العبادة ، في حزب سياسي، في وسائل الأعلام. فكل ما هو "مربي" ويعمل على تنمية الشخصية ، وتأهيل الفرد من أجل تلبية مطالب مجتمعه وعالمه يعد تربية. فعلى حد تعبير المفكر العربي عبد الله عبد الدايم قد زالت بفعل التطور تلك "الإثنية" التقليدية بين تربية تقوم بها المدرسة، وأخرى يقوم بها المجتمع، وإنما غدونا أمام "لحمة" تربوية اجتماعية متشابكة في خيوطها وسداها ، فالتربية قد انسلت إلى كل شرايين المجتمع، وغدا

المجتمع في قلب التربية، ومن ثم فإن المسئولية مشتركة ، والتكامل والتنسيق والتعاون بات ضروريا ، وإلا ذهبت كل الجهود سدى .

* إنه مع التسليم بأهمية دور التربية في كل عناصر ومكونات الثقافة بمفهومها الواسع الشامل لكل جوانبها المعنوية والمادية، فإننا سنولي اهتماماً خاصا بدورها في العناصر والمكونات المعنوية لثقافتنا العربية، ونعني بها الفكر واللغة والقيم والمعتقدات والإعلام والإبداع* باعتبارها العناصر المعنوية الرئيسة لهذه الثقافة ولأنها هي التي تسهم بشكل فعال ومباشر في تشكيل وتكوين "شخصية الفرد"، موضوع التربية وشغلها الشاغل ومن أجلها ولها وجدت التربية.

على هذا الأساس، ومن هذا المنطلق نتناول دور التربية بالنسبة للعناصر الرئيسة للثقافة العربية المشار إليها ، وفق التصنيف الثنائي التالي.

1- تربية الفكر، وفكر التربية:

تعد العلاقة بين التربية وبين الفكر من القضايا الهامة التي فرضت نفسها – وبقوة – على الساحة الفكرية والتربوية في عالم اليوم، بل باتت هذه العلاقة تشكل مظهرا هاما من مظاهر الأزمة التربوية التي يعاني منها العالم في الوقت الحاضر سواء تعلق الأمر "بتربية الفكر" أم "بفكر التربية" .[94]

فبالنسبة لقضية "تربية الفكر" فقد فرضت نفسها – على المستوى العالمي – بعد وضوح ظاهرة "الخواء الفكري" التي يعاني منها التلاميذ والطلاب ، واتهام المناهج المدرسية بأنها أتلفت عقول الطلاب، وأفقدتهم صلتهم بماضيهم ، وقدرتهم على رؤية حاضرهم واستشراف مستقبلهم، وبالتالي المطالبة بضرورة العودة إلى الأصول، وتدريس تاريخ تطور الفكر الإنساني وقراءة أمهات الكتب . لكن في الوقت نفسه هناك من يرى أنه ينبغي على المدرسة التركيز على القضايا الراهنة التي تشغل العالم ، كقضايا

---

* تجدر الإشارة إلى أننا استفدنا في هذا التصنيف – وبشكل رئيسي – من الدراسة القيمة التي قام بها. نبيل علي وتحمل عنوان "الثقافة العربية وعصر المعلومات" (المرجع رقم 2 من قائمة هوامش ومراجع الباب الثانى) وللحق استفدنا منه الكثير خاصة فيما يتعلق بتكنولوجيا المعلومات وعلاقتها بقضية الثقافة.

السلام، والتسلح، والبيئة والتنمية وحقوق الإنسان، وغيرها من القضايا الحيوية المعاصرة.

على أي حال، وبصرف النظر عن الاختلاف حول أيهما أكثر أهمية "الأصول" أم "القضايا العصرية" فإننا نرى أنه لا بد من تحصيل الأمرين معاً بالنسبة للتربية وتكوين الشخصية تأصيلا للمعرفة وتعميق الرؤية، والقدرة على التفاعل مع قضايا العصر وتغيراته.

وفي مجتمعنا العربي، نحن أحوج ما نكون للأخذ بهذه النظرة التكاملية، في تعليمنا ، وتربيتنا بصفة عامة. ونحن لسنا بحاجة إلى القول، إن تلاميذنا وطلابنا يعانون من جهل واضح بقضايا العصر ومتغيراته، ومن خواء فكري أكثر وضوحاً ، لغلبة التلقين والاستظهار وغياب لغة الحوار، وخلو المناهج الدراسية من الفكر الثقافي الأصيل، فتركنا الساحة خالية، خاوية، وأصبح أبناؤنا نهبا لكل الاتجاهات والتيارات المضللة المزيفة لعقولهم، وعرضة لما يتساقط عليهم صباح ومساء لما تبثه الفضائيات وتنقله الشبكات من مفاسد، باتوا غير قادرين على مواجهتها، لفقدانهم المناعة والحصانة الذاتية ، وغياب دور المؤسسات التربوية.

لذلك نرى أهمية تركيز التربية في عالمنا العربي على:-

- إعطاء مساحة مناسبة في مناهجنا الدراسية، وفي مختلف التخصصات لدراسة التاريخ والفكر الإنساني بصفة عامة، والعربي بصفة خاصة، لا بطريق التلقين والحفظ والاستظهار، وإنما بالحوار والعقلية الناقدة.

- إلمامهم بالمفاهيم والمصطلحات والمهارات اللازمة للتعامل مع عصر المعلومات ، ومع التقانة بمفاهيمها ومناهجها المختلفة.

- تدريبهم على القراءة الناقدة للأحداث والقضايا المعاصرة، وإكسابهم مهارات التفاوض والتحاور عن قرب ، وعن بعد عبر شبكة الإنترنت[(95)] .

- توعية الأفراد بالقضايا الحالية المتعلقة بعولمة الثقافة، من قبيل قضايا حقوق الإنسان، ومفاهيم صراع وحوار الحضارات ، وكيفية الحفاظ على الخصوصيات الثقافية والهوايات القومية، وغيرها من القضايا التي أثارتها وتثيرها ظاهرة العولمة.

إن هذا النوع من التربية بات ضروريا وملحاً في عصر التحديات، وينبغي أن تقوم به كل المؤسسات ذات العلاقة بالتربية و تشكيل قيم واتجاهات الأفراد ، وفي مقدمتها بالطبع المدرسة.

أما بالنسبة لقضية "فكر التربية" فليست - في عالم اليوم - بأفضل حظا من سابقتها "تربية الفكر" ، فأي فكر تربوي يمكن أن يتعامل مع عصر التحديات ؟ هل الفكر البراجماتي الأداتي الذي يعاني العديد من الأزمات؟ أم المثالي الذي يرتفع فوق الواقع، ولا يستطيع التعامل معه؟ أم فكر الماهية أم الوجود؟. عشرات المذاهب والتيارات التي تكشف عن وجود أزمة عالمية في الفكر التربوي. لكن وبالتأكيد لم تتوقف حركة العالم في البحث عن مخرج من هذا المأزق ، حتى يمكن مواكبة عصر التحديات.

وفي هذا الصدد يمكن أن نشير إلى تقرير اليونسكو "التعليم ذلك الكنز المكنون".الذي يضع أربع غايات للتربية من عصر المعلومات، وهي" تعلم: لتعرف ، لتعمل، لتكون، لتشارك الآخرين" [96].

إن هذه الغايات تحمل العديد من المضامين والدلالات ذات الأهمية في تربية الفرد وتأهيله للتعامل مع عصر المعلومات، فالغاية :-

* "تعلم لتعرف" تشير إلى أن القضية الآن ليست قضية تحصيل المعرفة، أو زيادة كم المعلومات، وإنما في كيفية تحصيلها واستمرارية اكتسابها ، وتكاملها ، واتساع نطاقها .
* "تعلم لتعمل"تشير إلى كيفية توظيف المعرفة وأهمية تأهيل الفرد لتلبية مطالب المجتمع. فالتعليم ليس حلية يتحلى بها الفرد، وإنما للعمل ، والعمل المنتج ليس إلا.
* "تعلم لتكون" هي الشق الذاتي في عملية التربية الذي يشير إلى أهمية تكوين الفرد كفرد، وكذات إنسانية لها قدرتها وإمكانياتها الخلاقة، فعلينا أن نعمل على تنميته بدنيا وذهنيا ووجدانيا وروحيا، وتنمية الشعور بالمسئولية الفردية، وإبداعه وخياله.
* "تعلم لتشارك الآخرين" تعني أن الإنسان لا يعيش لنفسه فقط، وإنما ليشارك الآخرين، ويتفاعل معهم. ومن ثم تحمل هذه الغاية العديد من القيم، التي في مقدمتها، التخلص من نزعات التعصب والعنف، واكتشاف

الآخر واكتساب مهارات التحاور معه إلى آخر هذه القيم التي يفرضها شعار "تعلم لتشارك الآخرين" [97].

أما عن "فكر التربية" في عالمنا العربي، فإنه يعيش أزمة حقيقية ، تناولتها العديد من الأقلام بالتحليل والتشخيص [98]. ولن نضيف جديدا لما قالوه ، وحسبنا أن التربية العربية، وفكرها التربوي ، ما تزال ترزح تحت التبعية للفكر البراجماتي المأزوم في وطنه الأم، بعد إخفاقه في تحقيق وعوده وأحلامه التي ظل يدعو إليها منذ قرن من الزمان. وبات العالم يبحث عن فكر جديد يناسب عصر التحديات كما سبق أن أشرنا .

لقد سيطر علينا "الفكر البراجماتي" سيطرة كاملة، حتى عندما رغب أساتذتنا الكبار التفاعل مع حركة المد القومي والاشتراكي في عقد الستينيات ، وكتبوا عن فكر تربوي يناسب هذا المد، لم يستطيعوا التخلص مما هو كامن في أعماقهم من فكر براجماتي فجاءت كتابتهم "براجماتية" ترتدي ثوبا اشتراكيا، أو بتعبير أدق براجماتية المضمون ، اشتراكية الشكل.

وفي عقد السبعينيات وما تلاه، كثرت الكتابات حول ضرورة وجود فكر تربوي عربي يخلصنا من سيطرة وهيمنة الفكر البراجماتي ، وكل فكر مستورد ، وظهرت سلسلة من الكتب والمؤلفات تحت شعار "التربية الإسلامية" كمحاولة للبحث عن "هوية تربوية عربية" . واستبشرنا بالفعل خيرا، وبذلت بالفعل جهود في هذا المجال ، منها ما هو موضوعي مخلص يسعى لتحقيق غايات سامية، ومنها ما لا تتحقق فيه هذه الصفات، وإنما كان منطلقها لأغراض سياسية أو تحقيق منافع شخصية . ولنتجاوز عن هذا البعض الذي أساء لنفسه قبل أن يسيء للتربية وللإسلام. ولنبقى مع الجهود الموضوعية. ونترك الباحث النابه المرحوم عبد السميع سيد أحمد في دراسته القيمة حول أزمة الهوية في فكرنا التربوي ، ليقدم لنا المعالم الرئيسة لمنهجية الدراسات التي تمت في مجال التربية الإسلامية . وتتلخص فيما يراه :-

- التعامل مع التراث على أنه نتاج فترة تاريخية واحدة، فالباحث عن التراث التربوي يتعامل مع التاريخ الإسلامي وكأنه قطعة واحدة ، أو فترة واحدة متصلة، لا تقاطعات ولا انكسارات ، ولا عيوب أو تشوه أو قصور (باستثناء العصر العثماني) ، فالناس في كل العصور طيبون

ينعمون بالعدالة والمساواة والتسامح، ومن ثم فإن كل ما يأتي من عندهم يؤخذ على أنه الحقيقة ، ولابد من التسليم به، بلا نقاش أو جدل ، فالأقدمون لم يتركوا للمتأخرين شيئا.

- التعامل مع المفكرين منتجي التراث على أنهم إسلاميون فحسب، دون تمييز للعناصر الفكرية في آرائهم، نتيجة التأثر بثقافة أو تنشئة أو فكر معين.

- الكتابة من موقف المناظرة بالغرب، فالغرب دائما موجود فيما يكتب من إسلاميات، إما للتوافق معه، أو لمهاجمته، وهو الأغلب والأعم.

- الوقوف عند الكليات وتوليد المعاني، بل والضغط على الكلمات والعبارات حتى تلد المعنى الذي يؤيد وجهة نظر الباحث، وأحيانا تحريفها والانحراف بها عن المعنى الذي تعبر عنه في الحقيقة والواقع.

خلاصة القول : إن من توجهوا وجهة "مكانية" للخارج، لم يقدموا لنا شيئا يلتحم مع الواقع ، وخصوصياته ،كما لم يقدم لنا من توجهوا وجهة "زمانية" شطر الماضي، شيئا يفيد في الحفاظ على الذات ، وعلى الهوية. وبالطبع – وكالعادة – برز الاتجاه الثالث الوسطى التوفيقي ليدلي بدلوه وليبحث عن حل، وحاول الجمع بين "ثنائية" التراث والمعاصرة . والمشكلة على حد تعبير عبد السميع سيد أحمد – هي في هذا الجمع، لأنه جمع بلا تفاعل حقيقي ، وبدون موقف اجتماعي وفلسفي واضح يمكن أن ينتظمها، وتلك بعينها "أزمة الهوية" (99)

وللخروج من هذه الأزمة طرحت أفكار وتصورات ، وما تزال تطرح، وسوف تظل هكذا طالما لا توجد لدينا فلسفة اجتماعية عربية واضحة المعالم والقسمات ، وما دمنا ننظر للإسلام على أنه طقوس تؤدى، وللتراث على أنه ركاز، أو قطع أثرية في متحف.

خلاصة القول أننا نعاني بالفعل أزمة تربوية حقيقية وحادة ، وتفرض علينا الخروج منها بأقل الخسائر. علينا أن نبحث عن :-

- فكر تربوي بديل للفكر البراجماتي المأزوم، ويأخذ في اعتباره واقعنا العربي بكل خصوصياته وتطلعاته.

- تربية تستطيع التعامل مع عصر التحديات ولا تفقدنا الهوية والذات. تربية يكون شعارها، تعلم لتعرف، لتعمل، لتكون، لتشارك الآخرين، بكل ما

ينطوي عليه كل شعار من مضامين ودلالات، وما يفرضه من متطلبات ومهارات.

إننا نستطيع هنا طرح عشرات التصورات والمقترحات ،ولكن الأهم من ذلك ،هو تغيير العقلية والذهنية الحدية التي تغلب على تكنلوقراط التربية في عالمنا العربي.

2- تربية الإبـداع وإبـداع التربية .

الإبداع – تحت أي مفهوم، وفي أي مجال – أهميته الكبرى بالدرجة التي يمكن القول معها، إن سقراط لو قدر له أن يعيش بيننا مرة أخرى لكان على استعداد لأن يتجرع السم ثانية من أجل الدفاع عن الإبداع .

إن الإنسان المبدع هو العملة الصعبة في عالم اليوم، ولن تقاس الأمم بعدد سكانها، وإنما بعدد مبدعيها، القادرين على المشاركة الفاعلة في بناء الحضارة الإنسانية. والوصول بها إلى مصاف الأمم. نعم بات ذكاء "الآلة" يحاصر "ذكاء الإنسان" من كل حدب وصوب، وباتت نظم الذكاء الاصطناعي تقاسم الإنسان أعمال المهارات العليا. ولكن كل هذا في النهاية هو من إبداع الإنسان نفسه. وبالنسبة للإبداع الفني العنصر والمكون الرئيسي لأي ثقافة قومية، فإنه بات يحظى باهتمام مختلف الشعوب والأمم حفاظا على هويتها وخصوصيتها الثقافية. ومن المعروف تربويا أن تعليم الإبداع في هذه الفنون أكثر صعوبة من تعليم الموضوعات الدراسية الاخرى، لأنه لا يمكن حصر اكتسابه من خلال التعليم الرسمي بتنظيماته ومناهجه وبطء تجاربه، ومن ثم فأنه يتطلب بيئة تعليمية مغايرة، بمواصفات معينة، بل وإمكانيات خاصة يفرضها التعبير والإبداع الفني [(100)].

أما بالنسبة لقضية التربية والإبداع في عالمنا العربي فلسنا بحاجة إلى التأكيد على ما يعانيه، وفي الوقت نفسه التأكيد على حاجتنا له، والتفكير جديا في كيفية الوصول إليه، وتوفير البيئة والمناخ المبدع ، والذي لا بد أن يتوافر فيه العديد من الشروط، في مقدمتها، وفي القلب منها:-

- توافر الحرية باعتبارها قرين الإبداع، فلن يكون هناك إبداع في ظل الاستبداد والقهر.
- توافر الرؤية النقدية في تعليمنا ، وتدريب أبنائنا على الحوار، وتخليص مناهجنا الدراسية من الحشو والتكرار.

- إعطاء أبنائنا فرصة التعبير عن أنفسهم بمختلف أساليب التعبير .
- الاهتمام في مدارسنا بعمليات الإبداع الفني، كعنصر رئيسي في منظومة الثقافة القومية، وذلك عن طريق توفير بيئة تعليمية مبدعة، بعيدا عن الشكليات والتنظيمات التقليدية.
- توفير الإمكانيات المادية والمعنوية وعودة المسرح المدرسي إلى مدارسنا باعتباره من أهم الطرائق التربوية في التعلم والتعبير الفني [101]، والعمل على ربط مدارسنا بمعاهد ومراكز الفنون للإفادة من خبراتها في النشاط الفني المدرسي.
- الاستفادة من تكنولوجيا المعلومات في مجال التعبير الفني المدرسي، موسيقى، رسم، نقش، نحت، مسرح، سينما، فالتكنولوجيا هنا بمثابة المبدع الآلي للإبداع الإنساني .[102].
- العمل على أن يكون الإبداع مشاعا بين الناس، لا احتكارا على فئة معينة، والأمر لا يستدعي أكثر من توفير البيئة المناسبة والتشجيع واكتشاف المواهب مبكراً، فالإبداع لا يعرف الطبقية ، ولا يشتري بالمال مهما كان قدر المال، وإنما نعمة من الله يهبها من يشاء من الأغنياء أو الفقراء.

لكن قبل وبعد كل هذا لا بد أن تكون التربية نفسها مبدعة، حتى يمكن أن تقوم بدور فعال في عملية الإبداع، ففاقد الشيء لا يعطيه.

3- تربية الأعلام، وإعلام التربية.

قد لا نكون بحاجة إلى القول: إننا نعيش بالفعل عصر الإعلام، فلقد بات يسيطر على الساحة الثقافية بإمكانياته الهائلة ووسائله التكنلوجيه المتقدمة.

وما كان لهذه الثورة الإعلامية أن تقوم بمثل ما عليه الآن لولا تكاتف العديد من العوامل ، وفي مقدمتها، العوامل التقنية والثقافية والاقتصادية والسياسية التي جعلت من قضية الأعلام قضية شائكة وساخنة وميدانا للصراعات العالمية والإقليمية.[103]

وهنا لا بد أن نشير إلى أن ثورة الأعلام، وإن كان لها دورها الهام في عمليات التثقيف إلا أنها تقوم أيضا بعمليات التزييف، كما أصبحت ألعوبة

في يد القوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، إنها أصبحت لعبة الكبار ومأزق الصغار لقابلية الإعلام الشديدة للاحتكار[104]

ومن المهم أيضا الإشارة إلى أن الأعلام قد حدثت فيه تحولات جذرية فلم يعد إرسالا واستقبالاَ، وإنما اتصال وتفاعل بين المرسل والمستقبل، ولم يعد هناك إعلاميا مرئيا وآخر سمعيا، وثالث مطبوعاَ، وإنما حدث الاندماج والتكامل، وتلاشت الفروق بين الأعلام والتعليم والترفيه والبحث عن المعلومات، كما أنه تخلص من سيطرة المرسل إلى خيار المتلقي. والأخطر من هذا وذاك أنه ككل قوافل الاتصال الإعلامي قد شدت رحالها صوب المنزل [105]. بل أصبحت الآن تخترقه دون استئذان، ولا يقف في طريقها بابا موصداَ، ولا حوائط ولو كانت فلاذية فهي تخترق كل الحواجز، بل تخترق الإنسان ذاته، فأين التربية من كل هذا ؟

لقد أدت هذه التغيرات والاتجاهات الجديدة في الثورة الإعلامية إلى زيادة التقارب بين التعليم والأعلام، قد يصل إلى حد التداخل، وسيكون للأعلام الحديث مساهماته التربوية الهامة والفعالة. ليس في مجال التعليم عن بعد، بل في العديد من المجالات.

لكن ومن جانب آخر أصبح للتربية دورها الهام أزاء ما يبثه الأعلام، فلقد سيطر على العقول ، واستسلم له الصغار والكبار استسلاما شبه كامل، فصاروا عاجزين عن فهم أسراره، وحل ألغازه، بل بات بتلاعب بعقولهم وتزييفها، مما وضع التربية في مأزق، وطرح عليها تحديات خطيرة وهامة، وأصبح واجبا عليها تنمية النزعة النقدية والحصانة الذاتية لمقاومة سيول وفيضانات ثورة الأعلام

ونتساءل: أين التربية والأعلام في عالمنا العربي من هذه التحديات؟.

ويمكن القول على وجه الإجمال : إن قضية التربية والأعلام في عالمنا العربي قضية معقدة في ظل التغيرات والثورة الإعلامية. ويكفينا أن نشير إلى أن التقارب بين الأعلام والتعليم بات أمراَ هاما وحيويا بالنسبة للتربية ويفرض درجة عالية من التنسيق بين المؤسسات التربوية والإعلامية.

ولا ننكر أن هناك محاولات جادة في مجال استخدام وسائل الأعلام في العلمية التعليمية ،لكن لا بد أن نعترف أيضا بأنها ما تزال محدودة وتتم

بطريقة تقليدية ، ومن ثم فإن الأمر يفرض ضرورة بذل أقصى الجهد ، وتوفير الموارد والإمكانيات اللازمة.

في هذا الصدد يجدر بنا أن نشير إلى أمر له خطورته في أعلامنا العربي ويتعلق بتربية أطفالنا، ويتمثل في نقل المواد الإعلامية من أفلام وقصص من ثقافات أخرى لنلقى بها في أذهانهم ووجدانهم ولسنا بحاجة إلى بيان خطورة هذا الوضع على التكوين الثقافي لأبنائنا وعلى هويتهم وثقافتهم العربية، وانتمائهم لها، مما يوجب علينا أن نهتم بإنتاج المواد الإعلامية الخاصة بالأطفال ، من واقع وخصوصيات ثقافتنا العربية، حتى لا نترك الساحة الإعلامية فارغة عربيا، لتقوم وسائل الأعلام الأجنبية بملئها ومن ثم اقتلاع أطفالنا من جذورهم ، وهذا يشكل أخطر أنواع الاكتساح الثقافي [(106)].

ولا يقل خطورة عن هذا الحصار الأمر ذلك الإعلام المضروب على قلوب وعقول شبابنا. هو والذي يفرض علينا ضرورة تحصينهم ذاتيا وقيميا وأخلاقيا. وقبل وبعد كل هذا إكسابهم النزعة النقدية ومحو أميتهم الإعلامية، حتى يستطيعوا التمييز بين الغث فيجتنبوه والسمين فيستفيدون منه.

أما بالنسبة "لإعلام التربية" ، فلم يعد الأمر مجرد إصدار صحف ونشرات تربوية، أو وجود علاقات عامة، أو القيام بتمثيليات ومسرحيات مدرسية وتصويرها ونشرها في الصحف، أو وجود دوائر للإعلام التربوي. إن الأمر بات أخطر من هذا بكثير في عصر التحديات وتكنولوجيا المعلومات ، الأمر يتعلق بفهم أبنائنا لغة الإعلام ومفرداته بعقلية ناقدة، وكيف يشاركون برؤية تكاملية في الإعلام المدرسي. إن هذا يتطلب ولا شك ربط المدرسة بالمؤسسات الإعلامية لتبادل الخبرات، والإفادة من هذه المؤسسات .

4- تربية اللغـــة ولغـــة التربية

اللغة: ذلك الكائن الحي الذي يحملنا ونحمله، وأن بدا لنا معنى ورمزا. الهواء الذي نتنفسه صباح مساء، والذي يعيش معنا، فينا أو من حولنا، ووسيلة إدراكنا لما يحيط بنا ، وأداة التعامل مع واقعنا . إنها الساحرة القادرة على تحويل المحسوس الضخم، إلى مجرد رمز، والمجرد – بمجازها – إلى محسوس ضخم نلمسه ونحسه. والجسر الواصل بين خصوصية الذات

وعمومية الموضوع إنها المترجمة لما في الصدور إلى معان، تشكل الحياة ، وتوجه الأداء والسلوك. إنها قدر الإنسان الاجتماعي، فكما تكشف عن طبقته وجذوره ، ونشأته، تكشف أيضا عن قدراته العقلية وميوله الفكرية. وهي وإن كانت ظاهرة شائعة إلا أنها – وبالقدر نفسه – مستترة دفينة في طبقة اللاوعي على المستويين : الفردي والجمعي.

إنها "الام" الحنون الرءوم التي تعطي بلا حدود، وإن لاقت من أبنائها عقوقا، وتغفر للعامة إن تجاوزها، وللشعراء وإن تمردوا عليها، وللعلماء وإن عاملوها بصرامة. فهي تعيش وتبقى لكل هؤلاء وأولئك، وترعى كل ناطق بها، وكأنه الأثير إلى قلبها. بل أنها ذات الإنسان وزاده، وعالمه الرحيب. ألم يكتف شاعر الأرض السليبة محمود درويش بلغته زاداً له عندما فرضوا عليه الخروج منها، " فلغتي وطني في حقيبة شعري" . إنها ذاته وزاده وزواده ووطنه. وهي الهوية وأداة صنع المجتمع كما يقول بتربرجر[107] .

من هنا كانت اللغة الشغل الشاغل ، ومسئولية الجميع ابتداء من الأسرة، ومرورا بالشارع، والمدرسة ووسائل الأعلام، رجال السياسة والاقتصاد وصالونات الأدباء، والناشر لكتبه،والناشر لخشبه. فالكل بها مهموم ، وعنها مسئول، لأنها ذاته وحياته هويته وكيانه.

وفي عصر التحديات احتلت قضية "اللغة" الموقع الهام في ظل تعاظم دورها في مجتمع المعلومات، وحدة الجدل حولها، وما يمكن أن تتعرض له من أخطار في ظل هيمنة الثقافة العولمية ولغتها، خاصة الإنجليزية، وأن العولميين لا يقرون بالخصوصيات الثقافية للأمم والشعوب ويقفون بشدة ضد الثقافات واللغات القومية. مما دفع إلى ظهور وتنامي نزعة التكتل اللغوي الإقليمي، في مواجهة ثقافة القطب الأوحد، المتشبث بأحاديته اللغوية، ليس فقط حفاظا على الهوية، والخصوصيات الاقتصادية، وإنما للدفاع عن المصالح الاقتصادية، والسياسية، والأمنية، فعلى سبيل المثال ، تسعى ألمانيا لإقامة تكتل لغوي مع أسبانيا وسويسرا، وهناك مجموعة الدول "الاسكندنافية"، كما بدأت تظهر تحالفات لغوية من قبيل "الانجلوفونية" و "الفرانكفونية"، و "الأسبانوفونية" . إلى جانب وجود دول أخرى تعمل للحفاظ على لغتها

القومية كاليابان مثلا ، الذي يعد موقفها في الدفاع عن لغتها نموذجا للنضال ضد هيمنة القطب اللغوي الأوحد، الولايات المتحدة الأمريكية(108).

أما عن قضية "تربية اللغة"، فقد احتلت موقعا هاما غير مسبوق، في ظل التغيرات والتطورات، وثورة المعلومات، وبعد أن ثبت للجميع الدور الخطير الذي تلعبه اللغة في تنمية فكر الفرد، وتوطيد عربي التماسك الاجتماعي، علاوة على كون تعلم "اللغة الأم" بمنزلة الأساس الذي يبني فوقه تعلم اللغات الأجنبية، التي باتت هي الأخرى ضرورة للتعامل مع معطيات عصر العولمة، مما دفع إلى الاهتمام بتربية اللغة، تعليما وتعلما، تنظيرا واستخداما.

هذا فيما يتصل بأهمية اللغة كظاهرة إنسانية ونضيف إليها ما يتصل بأهمية اللغة العربية بصفة خاصة، وغاية ما يمكن قوله في هذا الصدد إنها البقية الباقية من مقومات عروبتنا بعد أن تم تغييب كل المقومات بفعل المؤامرات الاستعمارية، والنزاعات الإقليمية البغيضة. وهي أبرز ملامح الثقافة العربية ، ومن أكثر اللغات الحية ارتباطا بالهوية وصمودا (17 قرنا من الزمان)، وسجلا أمينا لحضارة أمتها، في ازدهارها وانتكاسها، وشاهد عيان على إبداع أبنائها، وبات الحرص عليها فريضة دينية لفرضية الحفاظ على كلام الله قرآنه الكريم، وفريضة إنسانية من أجل أمة القرآن، من المسلمين في شتى البقاع والأصقاع ، خاصة في ظل الهجمة الترية المسعورة التي تحاول تفتيت المسلمين ، ومحاربة عقيدتهم، تمهيدا لنشر الثقافة العولمية، ثقافة القطب الأمريكي والصهيوني .

إن لغتنا العربية تتعرض بالفعل لأخطار وتحديات خارجية تتمثل فيما يحدث لها من حركة تهميش نشطة بفعل الضغوط الهائلة الناجمة عن طغيان اللغة الإنجليزية -على وجه الخصوص- على مختلف الأصعدة ذات الفاعلية والتأثير في عصر التحديات، ويزيد من خطورة هذا الأمر ما نعانيه نحن من تقاعس واضح إزاء لغتنا العربية.

وهذا ما قد يتضح من خلال الإشارة إلى علاقة التربية باللغة العربية، أو الوجه الأول من القضية، وهي "تربية اللغة" ودرجة الاهتمام بها، وغاية ما يكن قوله: إنها هانت على بني وطنها، الناطقين بها، وإليها ينتمون،

وباسمها سموا عربا. وهذا ليس بحاجة إلى دليل، ويكفي أن نشير إلى بعض ما تعانيه لغتنا الجميلة من :-

* تقاعس لغوي، يحمل بين طياته حالة مزمنة من غياب إرادة الإصلاح اللغوي، فهناك العديد من سياسات الإصلاح لكنها حبيسة الأدراج، وهناك مجامع لغوية، لكنها ضامرة السلطات، ناهيك عن محدودية الموارد، والاهتمام بالشكل اللغوي في معظم الأحيان.

* تعلم وتعليم اللغة لا يعكس أداؤه ومناهجه، وسلوك مدرسية وطلابه ما للغة الأم من أهمية على كل المستويات، وفي المقدمة بالطبع الهوية والذات القومية، حيث اهتممنا في تعليمها وتعلمها بالشكل واللفظ على حساب المضمون والدلالة ، وبالحفظ والاستظهار على حساب التوظيف والاستخدام. اهتممنا بتعليمها وتلقينها عن طريق المدرس وأهملنا أهمية تعلمها ذاتيا.

* القصور الكمي والكيفي في مجال برمجيات تعليم وتعلم اللغة العربية، وما تم في هذا المجال فإنما يتم بصورة تقليدية."إننا بحاجة إلى برامج تعليمية ذكية تستخدم أساليب الذكاء الاصطناعي القائمة على نظم معالجة اللغة العربية آليا نحو آلي، - نظم فهرسة، وتلخيص آلية. وما شابه ذلك.

باختصار ما تزال "تربية اللغة" دون المستوى، فما زلنا نحصر دورها في حفظ بعض القواعد اللغوية والأبيات الشعرية والصور الجمالية، بل أن لغتنا الأم تتعرض للمهانة في قاعات دروسنا، وهل هناك أدل وأوضح من رفض بعض كلياتنا من تعريب العلوم، مع أن عملية التعريب لم تعد قضية حماسية وطنية ، وإنما قضية تربوية وضرورة قومية لتحتل لغتنا مكانتها اللائقة بها في عصر المعلومات [(109)].

أما فيما يتعلق بالوجه الآخر للقضية ونعني به "لغة التربية" فإن فيما تم طرحه عن تربية اللغة قد يلغي الضوء على ما عليه وضع "لغة التربية" تنظيرا وصياغة واستخداما، ولغة حديث داخل المؤسسات التربوية، حيث إنها على كل هذه المستويات تعاني :

• غموضاً في المصطلحات والمفاهيم التربوية، فلا نكاد نتفق – نحن التربويين – إلا على القليل النادر منها، حتى بين أهل التخصص الواحد، نجد هذه الظاهرة المقلقة جدا للفكر والعمل التربوي.

- قصورا واضحا بين القائمين على أمر إعداد المعلم، في مؤسسات الإعداد، وبين من يتولون أمر متابعته وتقويمه في الميدان، من حيث الاستخدام الجيد الواضح، والتحدث المتقن للغة العربية.

- قصورا واضحا في لغة مناهجنا الدراسية، ومؤلفاتنا التربوية وفي تدريسنا داخل قاعات الدرس.

- امتهانا وإساءة واضحة للغة العربية في الحديث اليومي، داخل مؤسساتنا التربوية، وما عليك إلا أن تمضي لحيظات قصيرة داخل أي مؤسسة تعليمية وتسترق السمع لما يقال من ألفاظ بين المعلمين بعضهم بعضا أو بينهم وبين تلاميذهم، أو بين التلاميذ مع بعضهم البعض لتعرف وتتأكد أننا إزاء كارثة لغوية أخلاقية.

نقول هذا فقط كنوع من دق نواقيس الخطر لما تتعرض له لغتنا العربية : الذات والهوية القومية، فالأخطار التي تتعرض لها ليست من الخارج وإنما أيضا من الداخل وهذه هي الكارثة بعينها.

5- التربية وقضية القيم والمعتقدات

يوجد ما يشبه الإجماع بين المحللين والمفسرين لما يحدث الآن من مظاهر وتطورات عصر التحديات على أن القيم والأخلاق والأديان والمعتقدات على وجه الإجمال، لم تتعرض طوال تاريخها الطويل، لمثل ما تتعرض له الآن من تحديات عنيفة، ومواجهات أشد عنفا، بفعل العديد من العوامل المتداخلة المتشابكة، المعقدة، المتفاعلة، التي نأتي في مقدمتها،غرور العلم والانبهار به، وجهل الإنسان بقيمه ومثله العليا، أو بأهميته في حياة الإنسان، ومن ثم بات العلم نهبا للصراع بين الخائفين عليه من التأثير السلبي للمعتقدات على العلم والخائفين منه، لتأثيره السلبي على هذه المعتقدات، وهكذا شد وجذب ونفور وتباعد وردود أفعال غاضبة من وهناك، وافعال مضادة أكثر غضبا ، وتعصبا ضد أو مع العلم، ناهيك عما خلفه وتخلفه تكنولوجيا المعلومات من آثار وتداعيات يرى فيها البعض ما يهدد الأديان، والقيم والأخلاق، بينما يرى آخرون إنها الفرصة المواتية، للفهم الصحيح لصحيح الدين، وتعميق القيم وحسن الأخلاق. آراء متناقضة ومتضاربة، ولم لا ونحن نعيش عصر التحديات، عصر التناقضات.

ونقول: نعم حدث في الماضي تحديات للأديان ومواجهات معها . حدث في الغرب، ضد الكنيسة في عصور النهضة والتنوير، وظهور حركات الإصلاح الديني، والفلسفات الحيثة، والثورة الصناعية التي اعتبرت وقتها إنها نتاج الخلاص من الكنيسة، وثمرة الفكر العلماني. وحدث لنا عندما التقا العقل العربي بالعقل الغربي مع قدوم الحملة الفرنسية، وما تلاه بعد ذلك من عمليات التحديث، والتأثر بالغرب، ونقل الكثير من أفكاره ومذاهبه وأنماط حياته المعيشية، وتبني بعض رواد التحديث الدعوة للفكر العلماني، مما أوقع الرعب في قلوب المؤمنين، ورجال الدين، والحريصين على قيمه وأخلاقياته، ومن ثم ظهر الفكر الذي يؤكد على ضرورة الرجوع للأصول والجذور ممثلا في التراث، مقابل الفكر الذي يدعو إلى أن نولي وجوهنا شطر الغرب، مما أوجد تلك الثنائية المعروفة في فكرنا العربي ثنائية "التراث والمعاصرة" والتي تعبر بدقة عما يشعر كل منهما تجاه الآخر من تخوف ، وتوجس، مما كان مدعاه للصراع والاتهام بالكفر والإلحاد، للعصريين والجمود والتخلف للتراثيين . وكالعادة، ومن باب "التوفيق بين الرؤوس"، كعادة عربية أصيلة، أومن باب "مسك العصا من الوسط" كسلوك حياتي يومي ، جاء الاتجاه التوفيقي، أو التلفيقي كما يحب أن يصفه البعض [110].

على أي حال، أصبحنا مهمومين بهذه القضية : قضية التراث والماصرة وانشغلنا بها كانشغال أهلي بيزنطة بقضية "البيضة والدجاجة" وأيهما أسبق، ولم يتوقفوا عن النقاش حتى بعد أن داهمهم العدو، ونحن ايضا انشغلنا حتى داهمنا عصر التحديات، فيا ترى هل نستمر في الجل والنقاش ونترك العصر يداهمنا ، أم سوف نتنبه للأخطار، ونجتمع على كلمة سواء، من خلال مشروع عربي إسلامي يضعنا أمام التحديات ؟. إنه يجب علينا أن تدرك إننا إذا أردنا الدعة والراحة، وتركنا العصر، فأنه لن يتركنا في حالنا، وإنما سوف يسحقنا، ولديه من الآليات المتقدمة، ومن قبلها "النيات" السيئة للقيام بهذا العمل اللاحضاري، واللاإنساني.

ولم لا ؟ وهناك الدعوة الصريحة للتخلص من كل الثقافات ، ومن الإرث التاريخي (ذاكرة المجتمعات)، بل ومن النظم الاجتماعية والأسرية،

على أساس أن في "العولمة" الخلاص والبديل المضمون، إنها "الفردوس الموعود" ؟!.

إننا لن نعيد ونزيد حول ما يحمله عصر التحديات من أخطار وتهديدات للقيم والأخلاق والمعتقدات، فقد بات الأمر واضحا، وعنه قلنا الكثير عند الحديث عن التحديات التي تواجه الثقافة العربية. ويكفي أن نشير إلى أن هناك ما يشبه الاتفاق بين المنظرين والمفسرين والمحللين لمظاهر التقدم الحادث في عالم اليوم بأننا وإن كنا فعلاً نعيش نجاحاً تكنولوجيا مذهلا، فإننا في الوقت نفسه نعيش خواء روحيا خطيراً، وسوف تدفع الحضارة المعاصرة الثمن غاليا،لأن الخسارة كبيرة وفادحة، وأي خسارة أكبر وأخطر من ضياع القيم والأخلاق، والتشكيك في جدوى الأديان والمعتقدات ؟! [111].

ولمواجهة هذا الخطر الداهم خرج من رحم هذه الحضارة المهيمنة من ينذر ويحذر من مغالاة السير على هذا الطريق [112]. ومن ثم فإنه لا بد من المقاومة: حفاظا على القيم وحماية للمعتقدات، مما يهددها من أخطار واقعة ومحتملة، وهذه مسئولية كل المجتمع، وفي القلب منها المؤسسات والهيئات ذات العلاقة المباشرة وغير المباشرة بهذا الأمر. ويأتي في مقدمتها المؤسسات الدينية والإعلامية والتربوية.

ويهمنا في هذا المجال ما يتعلق بالمؤسسات التربوية، والتربية بصفة عامة في علاقتها بالدين والقيم والأخلاق، باعتبار هذه العناصر من أهم مكونات ثقافتنا العربية، بل هي جماع هذه الثقافة، فمنها تتشكل خيوطها، ولحمها وسداها ، وتسري فيها سريان الدم في العروق، ويحتل الحث على التمسك بها موقع الصدارة في الخطاب الرسمي، وفي الدساتير والتشريعات في كل البلدان العربية، والإسلامية، باعتبار"الإسلام" الدين الرسمي للدولة،وهو في معظم هذه البلدان- كما هو معروف – المصدر الرئيسي للتشريع ، وليس أحد مصادره.

ودعنا نمهد العلاقة التربية بهذه العناصر الرئيسة لثقافتنا العريقة. بالقول : إنه في عالمنا العربي مهما اختلفت رؤى المفكرين ، وتباينت اتجاهاتهم من أقصى اليمين، لاقصى اليسار، من الليبراليين للاشتراكيين، من القوميين للإقليميين، من التراثيين للمعاصرين – نقول: إنه مهما اختلفت رؤى واتجاهات كل الأطياف والألوان الفكرية فإن هناك حد أدنى من القناعة

والاتفاق على أن الإسلام يشكل عقيدة ورؤية للعالم، وأساسا للثقافة العربية. إنه عقيدة تتغلغل في وجود المسلم، ويكمن في أعمق طبقة من عواطفه، ويعيش في الوعي واللاوعي. وهو يمثل للثقافة العربية رؤية كلية للحياة والموت، لا يمكن لرؤية أخرى أن تحل محلها. إن الإسلام "كفكر" ، و "تاريخ" لا "كدين منزل" إنما هو نتاج "بشر"، يفهمون العقيدة حسبما يتاح لهم من معرفة، وحسبما يقومون به من أدوار في صنع تاريخهم فيزدهر الفكر الإسلامي، حين ينشط المسلمون، وينزوي ويتحول إلى تعصب جامد حين يخفقون وينقلبون إلى مواقف التبرير والدفاع ويستهلكون ما قدم السلف، ولا يضيفون جديدا.

على هذا الأساس نقول: إنه لا مكان لفكر جديد في المنطقة العربية كلها يتخطى الإسلام كعقيدة، وإطار وجود. ويكفي للتدليل على ذلك أن نذكر كلمات ميشيل عفلق (فيلسوف حزب البعث السوري سابقا) عندما قال: إنه لا يوجد عربي "غير مسلم" دينا أو ثقافة ، وعلى جميع الاخوة المسيحيين أن يقبلوا عن محبة هذه الحقيقة أو أن يكونوا مسلمين "ثقافة" ، ويجب أن يحرصوا على هذا كأثمن شيء في وجودهم [113]. والمقولة في مضمونها سبق أن أطلقها الزعيم السياسي المصري القبطي "مكرم عبيد" عندما قال: أنا قبطي الدين، مسلم الثقافة ، وكان يعد من أعظم خطباء عصره، ومن أكثرهم استشهادا بآيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة. إن الإقرار بهذه الحقيقة يفرض علينا أن ندرك تماما – ونحن نتعامل مع كل الظواهر والأشياء – سياسيا واقتصاديا، ثقافيا وتربويا، ومع إسلامنا وتراثنا، ونحن نفكر متأثرين بعصرنا لحل مشكلاتنا، ونحن نرى أجيالنا – أنه لا مناص من الإسلام، فهو قبالتنا، ويتغلغل في وجدان كل مسلم وكل عربي مهما كان اتجاهه، ومن ثم فإن تناسيه أو تجاهله لا يعني مجرد الاغتراب وإنما هو انتحار للذات ولا شيء غيره.

من هذا المنطلق جاءت العلاقة الوثيقة بين التربية والإسلام بكل ما ينطوي عليه من قيم وأخلاقيات. وهذه العلاقة ليست بجديدة علينا، وإنما تضرب بجذورها في أعماق تاريخ فكرنا الثقافي، فمن منا ينكر جهود الغزالي والفارابي وابن سحنون، وأبي حيان التوحيدي، والتربية في إخوان الصفا.

وغيرها من المجهودات التي جعلت من غايات التربية، غايات دينية بحتة، بل جعلتها ركنا من أركان الشريعة الإسلامية كما في أخوان الصفا[114].

وفي العصر الحديث كانت هناك النجوم الزاهرة ، خاصة في سماء القاهرة، من أمثال محمد عبده، ورشيد رضا وغيرهم ممن رأوا في التربية أنها من أهم وسائل النضال والكفاح من أجل الحصول على الاستقلال، حيث كان محمد عبده يرى في التربية البديل السياسي لمقاومة المستعمر، بل كان يرى أنها كل شيء بالنسبة للإنسان، ومن فقدها فقد كل شيء[115] وكما سبق أن أشرنا تؤكد جميع البلدان العربية في وثائقها وتشريعاً ودساتيرها على أهمية التمسك بالقيم الدينية والأخلاقية ، وعلى دور المؤسسات التربوية في هذا المجال.

على أي حال يمكن القول : إن الدين والقيم الأخلاقية باتت الآن - أكثر من ذي قبل - بحاجة ماسة وضرورية للتربية، في ظل التحديات التي تواجهها في الوقت الحاضر، سواء كانت تحديات من الخارج أم من الداخل، خاصة بعد ما حدث بالداخل من تفسح قيمي وأخلاقي، وسيادة القيم المادية، وتفضيل الخاص على العام، والكسب السريع، وشيوع التملق والنفاق. ناهيك عما يعاني منه إطارنا الثقافي العربي من عيوب وتشوه بفعل جمود الفهم وسوء التوظيف لقيمنا الإسلامية الأصيلة.

باختصار هناك عشرات الأسباب التي توجب على التربية أن تقوم بدور هام وفعال في الحفاظ على الدين والقيم والأخلاق من حيث الفهم ، والسلوك والتوظيف الاجتماعي لقيمة وأخلاقياته يضمن سعادة لإنسان في الدنيا والآخرة. كما يجب على مؤسساتنا الدينية أن تدرك -وبوعي – مسؤولياتها إزاء هذه القضية الهامة، والإفادة من الإنجازات التكنولوجية في الكشف عن جوهر الدين وأهميته في الحياة المعاصرة.

ومن ثم يجب على هذه المؤسسات تعريف العالم بمخزوننا "الروحي والثقافي" الذي لا ينضب، خاصة وأن العالم في حاجة إلى هذا المخزون لما يعانيه من خواء روحي، علينا أن نقدمه كرؤية إنسانية تحفظ للجنس البشري سلامته وكرامته، وترفع عنه القهر والظلم، وتحميه من دمار العالم .إن العالم بحاجة إلى هذا الجانب الروحي والمعنوي، والحضارة الإسلامية هي المؤهلة للقيام بهذا الدور.

لكن يظل كل هذا رهنا بتنقية "البيت الثقافي" من الداخل، ومن التشوه الذي يقوم به – بحسن أو سوء نية – أهلها، علينا أن نصحح صورة الذات العربية والإسلامية، لأن ما يستخدمه الغرب من صور مشوهة عن هذه الذات إنما هي من تشوهات واقعة، في الأصل نفسه [116].

وقبل وبعد كل هذا العمل على بناء الإنسان العربي المسلم، المعتز بإسلامه وحضارته وثقافته، العامل على التمسك بها، ونشرها في العالم كله، وأنها مبعث فخره واعتزازه، لكن دون جمود أو تعصب ، وإنما بالرؤية النقدية ، وسعة الأفق ، والتعامل وتفهم وقبول "الآخر"، وفق المعايير العامة لخصوصياتنا وقيمنا وأخلاقنا، التي تحث على احترام الإنسان كإنسان، وتقدير ميراثه وموروثاته والإفادة من إنجازاته، والمشاركة في هذا الإنجاز، ومن ثم التحاور والتفاعل معه. لكن علينا وكشرط ضروري للإقدام على هذه الخطوة أن نؤمن نحن بأهمية الحوار، مع بعضنا البعض. وهنا يأتي دور التربية في تدريب وإكساب أبنائنا "لغة الحوار" وقيمه وأساليبه، وامتلاك العقلية الحرة الناقدة المستنيرة القادرة على تفهم الآخر.

إن مسئولية التربية مسؤولية كبيرة وخطيرة ولا مفر من القيام بها، لأنه لا خيار لنا إلا بذل أقصى الجهد لحماية ثقافتنا العربية من تحديات عصر التحديات ، التي سبق أن أشرنا إلى نماذج منها في هذه الدراسة.

على أى حال يمكن القول إن التحديات جسيمة، والمهام والمسئوليات جد كبيرة وخطيرة، والحوار حولها ينبغى أن يستمر ولا يتوقف. وهذا ما حاولنا القيام به فى هذه الدراسة فى الفصلين السابقين اللذين يغطيان الباب الثانى.

هوامش ومراجع الدراسة(التى غطت الباب الثانى)

1- حامد عمار: دراسات في التربية والثقافة. من همومنا التربوية والثقافية. القاهرة. مكتبة الدار العربية للكتاب 1995 ص155.

2- نبيل على: الثقافة العربية عبر المعلومات سلسلة المعرفة. المجلس الوطني للثقاف والآداب. الكويت العدد264ديسمبر 2001-127.

3- انظر: - حامد عمار المرجع السابق ص 156

- نبيل على المرجع السابق ص 46-47

4- نبيل على المرجع السابق ص47

5- منى عابد الجابري. المسألة الثقافية سلسلة الثقافة القومية(25) قضايا التكرار التربوي(1)، سلسلة الثقافة القومية(25) قضايا الفكر التربوي(1)، مركز دراسات الوحدة العربية 1994 ص13-14

6- المرجع نفسه ص15

7- المرجع نفسه ص16

8- المرجع نفسه ص25-26.

9- عبد السلام المسري العولمة والعولمة المضارة كتاي بسطور القاهرة 1998 ص80.

10- عصام خفاجي- ملاحظات حول العولمة والدولة القومية من- العلومة. مركز البحوث العربية القاهرة 1999ص337-338

11- نبيل على. المرجع السابق ص28

12- من عابد الجابري المرجع السابق ص28

13- المرجع نفسه

14- المرجع نفسه

15- زكي نجيب محمود. تجديد الفكر العربي- لبنان- بيروت ودار الشرق 1982 الطبعة السادسة ص225.

16- تناولنا هذا الموضوع في دراستنا عن التعليم والتقدم التكنولوجي والصناعي في المجتمع الياباني دار قباء القاهرة 2001.

17- نبيل على. المرجع السابق ص152-135.

18- يمنى طريف الخولي. فلسفة التعلم في القرن العشرين، سلسلة عالم المعرفة. الكويت العدد(246) ديسمبر 2000 ص7

19- نبيل على المرجع السابق ص11-12

20- المرجع نفسه ص 399

21- المرجع نفسه ص 14- 17

22- انظر:- إسماعيل صبري عبد اللـه. توصيف الأوضاع العالمية المعاصرة- منتدى العلم الثالث- مكتبة الشرق الأوسط. القاهرة. جمهورية دور العربية وأوراق 2020 العدد(3) يناير 1999 ص 9-24

23- هاني بيترمارتن، حامد الدرشومان. فخ العولمة. ترجمة رمزي زكي، المجلس العطي للثقافة والفنون والآداب. الكويت العدد 238 أكتوبر 1998 ص 144-45

24- نبيل على المرجع السابق ص14-15ط

25- نبيل على المرجع السابق ص12

26- انظر: - اسماعيل صبري عبد اللـه المرجع السابق ص 15-18

- هاني بيثرمان. المرجع السابق ص 44-49

27- منظمة اليونسكو. التعليم ذلك الكنز المكنون. مركز مطبوعات اليونسكو القاهرة 1996ص16

28- انظر: - هاني بيترما المرجع السابق ص44

- نبيل على المرجع السابق ص 26-27

29- انظر: - هاني بيترمارين المرجع السابق ص 87-101

30- ساروبرت س. ليكون. وباء الفساد الكوني ترجمة شهرت العلم- دوربة الثقافة العالمية المجلس الوطن للثقافة كالآداب الكويت العدد 85، نوفمبر- ديسمبر 1997 ص 106- 121

31- انظر: - هاني بيرماري المرجع السابق ص 87

- نبيل على المرجع السابق ص99

32- نبيل على المرجع السابق ص 13

33- كادل بوبر: بحثا عن عالم أفضل. ترجمة أحمد مستجير. النهضة المصرية العامة للكتاب. القاهرة 1999 ص252.

34- جابر عصفور. التنوع البشري الخلاق المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة 1997 ص81

35- المرجع نفسه ص 19

36- المرجع نفسه ص 7

37- المرجع نفسه ص 131

38- نبيل على المرجع السابق ص 180-191

39- نبيل على ص 92-94

40- نبيل على ص 24-25

41- انظر: -اسماعيل صبري عبد الـلـه المرجع السابق ص 10-24، 45

- هامش بيترمارتن المرجع السابق ص 29-49

- نبيل على(المرجع السابق ص42-25).

42- نبيل على المرجع نفسه ص 103

43- نبيل على ص 111- 116

44- نبيل على ص 131-333

45- انظر: - نبيل على المرجع نفسه ص 145-157

- نبيل على. صوزرة الثقافة العربيـة والحضـارة الإسـلامية عـلى الانترنـت. المنظمـة العربيـة للتربية والثقافة بالعلوم الشارقة 1998 ص118-120.

46- المرجع نفسه ص 120

47- نبيل على 2001 مرجع سابق ص 27

48- نبيل على العرب وعصر المعلومات – سلسلة عالم المعرفة. الكويت العـدد 184، 1994 ص19.

49- نبيل على 2001 مرجع سابق ص 117

50- انطون زحلان. الامكانيات البشريـة والثقافيـة الإسرائيليـة. المسـتقل العـربي والثقافيـة الإسرائلية. المستقل العربي العدد (258) اغسطس 2000 ص111- 134

51- نبيل على 2001 مرجع سابق ص 52- 53

52- انظر: - نبيل على المرجع نفسه ص 53

- انطون زملان(المرجع السابق ص 142-131).

53- انظر: - نبيل على 2001 المرجع السابق ص 53-54

- انطون وحلان المرجع السابق ص 118-119

54- انظر: - نبيل على 2001 مرجع سابق

- انطون زحلان المرجع السابق ص 120-128

55- نبيل على 2001 مرجع سابق ص 54-55

56- انظر: - نبيل على المرجع نفسه ص 54-55

- انطون زحلان المرجع السابق ص125

- منظمة اليونسكو المرجع السابق ص 252

57- انظر: - نبيل على 2001 المرجع السابق ص 55

- أنطون زحلان المرجع السابق ص 133

58- نبيل على 2001 مرجع سابق ص 23-55

59- المرجع نفسه ص 156- 157

60- المرجع نفسه ص 21

61- هاني بيترمارتن المرجع السابق ص 68-69

62- المرجع نفسه ص 45- 49

63- محمد صبحي غندور. الأطروحة الأريكية: الترهيب بصيد الحضارات، والترغيب بالعولمة. دورية المعرفة المملكة العربية الصعودية 1420 هـ العدد 46ص 14- 29

64- هاني بترمارتن المرجع السابق ص 21-36

65- محمد محمد سكران. ظاهرة العولمة والهوية الثقافية مؤتمر العولمة والخصوصية الثقافية. جامعة بحوث المؤتمر ص35-54

66- دافير روثكوبت في مد الابتريالية الثقافية ترجمة أحمد خضر. دورية الثقافة العالمية الكويت العدد(85) مؤتمر ديسمبر 1997 ص 26-30

67- هاني يترمارتن المرجع السابق ص 44-49

68- نبيل على 2001- مرجع سابق ص28

69- هاني بترمارتن المرجع السابق ص 43-48

70- نبيل على 2001 مرجع سابق ص 28

71- انظر: - نبيل على المرجع نفسه ص 28

- إبراهيم العيسوي:" الجامعات وأخواتها" النظام الجديد للتجارة العلمية ومستقبل التنمية العربية. مركز دراسات الترهيب اليومية بيروت 1995

- مصطفى عبد الغني الجامعات والتبعية الثقافية الهيئة المصرية للكتاب 1996 ص 10
72- نبيل على 2001 مرجع سابق ص 28-29
73- انظر: - روافير روثكويف المرجع السابق ص 178-179
- مصطفى عبد الغني المرجع السابق ص 31-56
74- انطون زحلان المرجع السابق ص111-134
75- انظر: - نبيل على 2001 مرجع سابق ص 56-59
- نبيل على 1998 مرجع سابقف ص 185
76- نبيل على 2001 مرجع سابق ص 56-59
77- خلدون النقيب العقلية التأمرية عند العرب مجلة العلوم الاجتماعية. الكويت العدد(4) المجالد(12) سناء 1948 ص 171-183
78- من عابد الجابري المرجع السابق ص 213-299
79- حامد عمار المرجع السابق ص 155-169
80- نبيل على 2001 مرجع سابق ص 166
81- المرجع نفسه ص 266
82- شوقي جلال. الترجمة في العالم العربي: الدافع والتحدي المجلس الأعلى للثقافة القاهرة 1999 ص 78
83- المجلس الأعلى للثقافة القاهرة 1999 ص 78
84- يوسف زيدان الترجمة والتراث العربي في : الترجمة في الوطن العربي. مركز دراسات الوحدة العربية بيروت 2000 ص 37-38
85- - نبيل على 2001 مرجع سابق ص 36
86- انظر: - نبيل على المرجع نفسه ص 35
- من عابد الجابري المرجع السابق ص111-169
87- عابد الجابري المرجع السابق ص154-159
88- نبيل على 2001 مرجع سابق ص 179 180
89- المرجع نفسه ص 32
90- جابر عصفور المرجع السابق ص 96
91- نبيل على 2001 مرجع سابق ص 58
92- انظر: - نبيل على 2001 المرجع نفسه ص 290-291

- اسماعيل صبري عبد اللـه ص 7-24

93- عبد اللـه عبد الدايم نحو لغة تربوية عربية مركز دراسات الوحدة العربية بيروت 1991ص 17

94- نبيل على 2001 مرجع سابق ص33

95- عبد اللـه عبد الدايم المرجع السابق ص63، 99-100

96- نبيل على 2001 مرجع سابق 149-150، 185-36

97- منظمة اليونسكو المرجع السابق ص 77

98- نبيل على 2001 مرجع السابق ص 307- 321

99- عبد اللـه عبد الدايم المرجع السابق ص 135-193

100-عبد السميع سيد أمن أزمة اليهويدية في النكر التربوي في مصر. دراسات تربوية. الجزء الأول نوفمبر 1985 ص123-170.

101- نبيل على 2001 مرجع سابق ص 336

102- مهدي مندق. المرجع وتحولات العقل العربي. الحملات على للثقافة القاهرة 1998 ص117

103-نبيل على 2001 مرجع سابق ص 336- 337

104-انظر: - نبيل على المرجع نفسه ص 343-345

- اسماعيل صبري عبد اللـه المرجع السابق ص 19-24

- هاني بترمارتن المرجع السابق ص 44-49

105-انظر: - نبيل على 2001 مرجع سابق ص 345

- هاني بترمارتن المرجع السابق ص 49-50

106- انظر: - نبيل على 201 مرجع سابق ص 363- 375

جناس ميرمارتش المرجع السابق ص 43-48

107- نبيل على 201مرجع سابق ص 328

108- المرجع نفسه ص 228

109- انظر: - نبيل على المرجع نفسه ص 221-239

- محمد سكران 2001 مرجع سابق

110- نبيل على 2001 مرجع سابق ص 268- 270، 356

111- عبد السميع سيد أحمد المرجع السابق ص 155-167

112- نبيل على 2001 مرجع سابق ص 401

113- هاني بيترمارتن المرجع السابق ص 148

114- عبد السميع سيد أحمد مرجع سابق ص 131 114

115- من نيرس. تاريخ التربية في التربية والغرب. عالم الكتب الثقافية 993 ص 147

116- هيثم منايح- ملاحظات مقصية في صندوق الإنسيان في الفكر الإسلامي. مركز القـاهرة الدراسات صندوق الإنسان في القاهرة 2000 ص 25

117- من مندب مشمس الدين موقف الإسلام من العولمة في المجال الثقافي والسياسي توعية المجمل الأعلى للتقوية الإسلامية عصر، يولية 1998 ص 2101 المقرر

المؤلــف فى سطـــور

أستاذ.دكتور/ محمد محمد سكران إمبابى:

1- رئيس قسم أصول التربية، مدير مركز التدريب التربوى، كلية التربية جامعة الفيوم.

2- عضو اللجنة العلمية للترقيـة لدرجـة أسـتاذ مسـاعد تخصـص"أصـول التربيـة والتربيـة المقارنة"

3- مشرف ومناقش للعديد من الرسائل الجامعية، ومحكم للعديـد مـن الجـوائز فى مجـال التربية.

4- رئيس رابطة التربية الحديثة بالقاهرة.

5- عضو لجنة التعليم والبحث العلمى بأمانة السياسات بالحزب الوطنى المصرى.

6- عضو اللجنة العليا لتقويم مخرجات التعليم المصرى.

7- مرشح من قبل جامعة الفيوم لجائزة الدولة للتفوق فى العلوم الاجتماعية لعام2006م

8- مشارك فى معظم المؤتمرات المحلية والقومية، وفى بعض البلدان العربية.

9- كاتب فى العديد من الصحف القومية والحزبية والمستقلة فى مصر، وفى بعض الصـحف العربية.

10- له العديد من المؤلفات العلمية فى مختلـف المجـالات التربويـة والاجتماعيـة والثقافيـة والسياسية.

المؤلفـــات

1- الحرية الأكاديمية فى الجامعات المصرية. دار الثقافة. القاهرة2001م.

2- وظائف الجامعة فى ضوء الاتجاهات التقليدية والمعاصرة. دار الثقافة. القاهرة2001م.

3- التعليم المصرى: دراسة نقدية. دار الثقافة. القاهرة2001م.

4- التنشئة الاجتماعية والسياسية. دار الثقافة. القاهرة2001م.

5- الطالب والأستاذ الجامعى. دار الثقافة. القاهرة2001م.

6- دور التعليم فى التقدم التكنولوجي والصناعى فى المجتمع الياباني. دار قباء القاهرة2004 م.

7- فلسفة التربية فى عصر التحديات. النهضة المصرية القاهرة 2004م.

8- فلسفة التعليم الابتدائي فى ضوء التغيرات والتطورات المعاصرة. النهضة المصرية القاهرة 2004م.

9- العولمة والثقافة العربية. دار قباء القاهرة2004م.

10- التربية والثقافة فيما بعد الحداثة. الانجلو المصرية.القاهرة.2006م.

11- الطفل العربى وتحديات عصر المعلومات. الانجلو المصرية.القاهرة.2006م.

12- التعليم الجامعى فى مصر: رؤية نقدية تطويرية. الانجلو المصرية.القاهرة.2006م.

13- التعليم العالى وتنمية المجتمعات العربية. دار الثقافة. القاهرة2006م.

14- التعليم المصرى بين مطرقة السياسة وسندان الواقع. الانجلو المصرية.القاهرة.2006م.

15- التربية والمواطنة فى عالم متغير. الانجلو المصرية.القاهرة.2006م.

16- الهويات الثقافية وتحديات العولمة. الانجلو المصرية.القاهرة.2006م.

17- الثقافة العربية : التحديات وكيفية المواجهة. الانجلو المصرية.القاهرة.2006م.

18- الأمة العربية بين الاستهداف والاستنزاف. الانجلو المصرية.القاهرة.2006م.

19- مصر على طريق التحول الديمقراطى والسياسى. الانجلو المصرية.القاهرة.2006م.

20- التربية والمواطنة فى عالم متغير. الانجلو المصرية.القاهرة.2006م.

هذا الكتاب

نتناول فيه إرثنا المشترك نحن أبناء الأمة العربية، وحصيلة نضالنا، وتاريخنا وثمرة عشرات العوامل والمؤثرات الحضارية، إنها ولا منازع- الثقافة العربية، الزاد والزوار، الغاية والمراد، التي تجمع ما تفرقه السياسية، ولما لا. وهي دوما ذات الوظيفة التوحيدية لأمتنا العربية. ومع ذلك تواجه هذه الثقافية الحضارية الإنسانية عشرات التحديات الخارجية والداخلية، التي تعرض علينا الوعي بها.

واستحداث الآليات القادرة على مواجهتها وفي القلب منها "التربية" لميزا ولغيره جاد هذا الكتاب الذي قد يكون خطوة على طريق طويل من النضال للحفاظ على ثقافتنا العربية.

والله من وراء القصد معين

محمد سكران